

عَلَّمَ اللّٰهُ السَّيِّدَ خَطِيبَ الشُّوْرَةِ الْعَرَابِيَّةِ

بقلم
نجيب توفيق

الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٤
مع اضافات وتعديلات جديدة

المؤرخ الوطنى الكبير المرحوم
عبد الرحمن الرافعى

تقديم

حقوق الطبع محفوظة للؤلف

الناشر
مكتبة الحلويات الشرقية
حسين محمد امباني
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
لست ٩٣١٢٩٦

تَقْدِيمٌ

تحتل شخصية عبد الله النديم مكانة عليا في تاريخ الثورة العراقية . وفي التاريخ القومي عامة . فلقد اشربت نفسه روح الثورة منذ نشأته الأولى . واعتنق الحرية وتمسك بها طول حياته . فكان من روادها ومن شهدائها الأبطال . انضم إلى الثورة بقلبه ولسانه وروحه وجنانه . وكانت مواهبه في الترسل والشعر والكتابة وقوة الذاكرة والقدرة الخطابية قد زادت تعلقا بالثورة . فكان خطيب الثورة العراقية غير منازع . وصار من زعمائها المعدودين : كانت خطبه الحماسية وقودا للثورة وكانت له المنزلة الكبرى عند عراقي وزملائه . ظل وفيا للثورة ومبادئها حين مجاحها . وبعد هزيمتها واخفاقها . والوفاء للثورات بعد هزيمتها دليل على قوة العقيدة والإيمان . فلا غرو أن كان عبد الله النديم بطالا من أبطال الحرية . لم يستسلم للأعداء بعد الهزيمة وعلى الرغم من أن الحكومة بإيعاز من الإحتلال قد تعقبته وسمعت إلى القبض عليه ورصدت مكافأة مالية لقبورها . أُلِفَ جنيه لمن يرشدها عنه فإنه ظل مختفيا عن أنظارها يتنقل في مختلف الجهات زهاء تسع سنوات . ولما توصلت إلى مكان اختفائه لم يهن ولم يضعف . وظل على ولائه للثورة ومبادئها . يحارب الإحتلال ويدعو إلى الإستقلال . واحتمل في سبيل ذلك ما احتمل من الشدائد والمتاعب . ونفاه الإحتلال وأبعده عن البلاد . فظل رغم النفي والغربة مدافعا عن حرية البلاد وكرامتها وهو الزعيم الوحيد بين زعماء الثورة العراقية الذي استمر في جهاده السياسي ونضاله عن مصر في عهد الإحتلال . وهي ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية . أما النديم فقد ظل على عهده واستمر

يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته . وهذا يدل على مبالغ نمو نفسه وقوة شخصيته .

ولقد وفاء الأستاذ الأديب نجيب توفيق حقه من التقدير والتكريم في كتابه القيم (عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية) فأرخ له تاريخاً صادقاً نابضاً بالحياة ، ونتمعه في كافة مراحل حياته في نشأته الأولى ، ثم في مناصرته للحرية وانضمامه إلى الثورة العرابية ودفاعه عنها ، ثم في إخلاصه لها بعد إخفاقها واستمراره على كفاح الإحتلال ومحاربته .

كان ذلك بأسلوب شيق جذاب ، وبروح الباحث المحقق الذي يتحرى الصدق والإسهاب فيما هو بسبيله . فجاء كتابه من خير ما أخرج للناس في تصوير هذه الشخصية العظيمة التي كان لها الفضل الأول في الكفاح القومي . فللاستاذ الأديب نجيب توفيق خالص الشكر على تاريخه لهذا البطل الشهيد وتسجيله لمواقفه الرائعة في الكفاح من أجل حرية الشعب واستقلاله .

عبد الرحمن الرافعي

القاهرة في ١ / ٩ / ١٩٦٣

مقدمة

ليست هذه الصفحات عن قائد مظفر ، أو سياسى داهيه ، أو أحد أصحاب العروش من دوخوا الممالك والأمصار ، ولكنها عن رجل مصرى ، انبعث من غمار الشعب ، من الطبقة العامة فيه ، وعانى وذاق مما تعانيه من فقر ومسغبة وحرمان ..

عاش على أديم هذا الوادى الظليل ، وروى من ماء نيله ، وتغذى من ثمار أرضه ، وتنسم أهوبته ، وإتصلت أسباب الحب والوفاء له ، ونقشت على قلبه صورة هذا الوطن بآلامه وآماله بأهليه ظالمهم ومظلومهم ، مترفهم وبائسهم ، وعاش بهذا القلب حتى آخر نسمة من حياته .

ارتفع إلى مصاف الزعماء والقادة ، فلم يبطره الجدد ، ولم تفتنه عن غاياته وأهدافه من رفع مستوى الشعب الاجتماعى ، وبعث وعيه الوطنى ، والعمل على تعليمه وتنويره ، وأجتمعت له فى حياته ميزتان ، تقدير عظماء الرجال وأقطاب البلاد ، وحب الشعب والإلتفاف حوله فوجه الأولين ، وعلم الآخرين :

لم يعتمد فى فجر حياته على بيئة عظيمة يتربى فى أكنافها ، توفر له مايتزود به من علم ورعاية وجاه ، ولكنه بعد أن سلخ عهد الطفولة والصبا فى جو فاتم ، وارتقى إلى مراتب الفتوة والشباب ، علم نفسه ، فدرس وبحث وكتب وطالع ، فرضت عليه عبقريته أن يركب المصاعب ، ويصقل عقله ، ويهذب نفسه ، وفكره . حتى غدا الأديب الكبير ، والشاعر والرجال الشهير ، والخطيب الذى اهتزت له أعماد المنابر وصاحب أول صوت جهورى لا فى مصر فحسب بل فى الشرق بأسره ، فكان بذلك زعيم مدرسة الخطابة فى الشرق العربى .

إختط لنفسه طريقاً شافاً . وآثر في حياته الكرم والإحتمال ، والصبر على
المكاره فكافح الظالمين ولم يعن للغاصبين ، فلقى النفي والظلم ، واستهدف
لحرب شعواء فكان بذلك بطلاً من أبطال حرية الفكر ومصالحنا من قادة
الشعوب وحملته المشاعل وأصحاب الرسائل الإنسانية العليا .

كانت حياته غربلة ، وظروفه عجيبة ، فقد مارس أعمالاً متباينة ، وعانى في
عيشه ألواناً من العيش مختلفة ، وسلك سبلاً من إيسار وإعسار . فبينما هو العامل
الصغير في إحدى الدوائر الكبيرة ، إذ هو التاجر الذي يجعل من متجرة ندوة
للأدب . وبينما هو نديم الملوك وسمير العظماء ، فإذ هو الزجال الشعبي ، الذي
ينثر لآلىء أزجاله على الناس ويلقى الطرف الرائعة ، من نادر الحكم ، وجليل
الأمثال وبارع الدعابات وجميل القصص فيتلهمف الشعب المحروم على الإستماع له ،
وإشباع جوعه الروحي فكان بذلك صاحب مدرسة خطيرة للأدب الشعبي
الذي يعمل على ترقية ذوق الجماهير الأدبي .

وبينما هو مدير أول مدرسة أهلية تديرها أول جمعية خيرية إسلامية بالبلاد
فهو الممثل الناجح الذي مارس التمثيل وعلمه ، وشاهد الشعب تمثيلياته ،
الوطنية الرائعة من مسرح زيزينيا بالإسكندرية ، فحازت إعجابه ، وإعجاب
الملوك والأمراء .

وهو أيضاً الكاتب السياسي الكبير الذي أدار صحافة سياسية واجتماعية
عظيمة بالبلاد — الصحافة التي صاحبت يقظة الشعب الكبرى ، ومهدت لها
حتى إذا ماتت وترعرعت أثمرت أول ثورة في الشرق ، وهي الثورة العربية ،
ثورة مصر للتحرر من نير الظالمين .

إنه صاحب الأسلوب الرائع والقلم القوى الذي لا يستغلق أمامه باب من

الأبواب للكتابة فيه ، معانيه متدفقة ، وآراؤه صائبة ، سرعان ما قفزت به
ألمعيته ونباهته من زمرة الأدباء الناشئين إلى مركز الصدارة بين قادة الرأي العام ،
وأصحاب الأقلام السيالة والصحف الشيرة .

فهو إن طرق موضوعا ما سجل به فتحا جديدا في الصحافة ، ساعده في ذلك
إطلاع وافر ، وذكاء نادر ، وتقص فريد ، في أحوال الشعب ، ودراسة مشاكله
الإجتماعية والإقتصادية ، والثقافية ، فكان بذلك أول كاتب إجتماعي ظهر في
مصر — إمتاز ببراعة تصويره وتحليله للآفات الإجتماعية ، التي يعانيها الشعب
وعرضها عرضا صادقا دقيقا ، فكان الكاتب المفتح الذي يكتب ليصور للناس
صور مجتمعهم من كافة الزوايا والأركان ، فيكشف بذلك ما كان محجوبا منها
وراء الأستار .

هذا هو النديم زعيم نشأ من السفح وارتفع إلى القمة ، تلقى الإرشاد والتوجيه
من إمام زعماء الشرق قاطبة ، والفيلسوف صاحب الفضل في إنهاض الشعوب
الشرقية جمال الدين الأفغانى — فكان رسوله الأمين وتلميذه الخالص لرسالته ،
ثم شامت الصدف أن يرتشف من معين وطنيته ويتلقى إرشاده وخبرته فتى
صغير ، غض الإهاب ، في قلبه من حب مصر جذوة وعباب ، هو أبر الشباب
بها . وأبقاهم على مر الأجيال والأعوام أثرا في صفحات تاريخها ، ذلك هو
الزعيم الشاب مصطفى كامل .

فكان النديم بذلك صاحب دور فريد في تاريخ مصر فقد حمل رسالة أكبر
زعماء الشرق ، وساعد في توجيه أول زعيم سياسى بارز في مصر وهو مصطفى كامل
كان رسولا لهداية الناس لمس شعورها فألهبها ، وطاق بالعقول في سماء من
الآمال بعد تسود فيه الحرية ، وبجياة جديدة يحياها في ظل الكرامة والمساواة

والإخاء فتملت القلوب بمذب أمانيه . ولهجت الألسنة بذكّره ، واستعذبت
الآسماع سحر أسماره ، وطلاوة أحاديثه .

أثار كوامنهم وألهب شعورهم بآلامهم من ظلم طويل ، جاءت به كواهاهم الأعوام
الطويلة ، حتى إذا ما استبد بهم الشعور وتهايت لهم انظروف ، إنطلقت ثورتهم
الخالدة ، يقودهم فيها جيشهم الباسل بزعامة القائد الوطني أحمد عرابي .. .
ليتخلص إلى الأبد من نير سادته السادرين في غيهم ومظالمهم وتدور
عجلة الزمن بسرعة ... وتحقق الثورة ، وتضار البلاد بالإحتلال الإنجليزى
وبهمم الأحرار في مطاوى الأرض وتضيّق ببعضهم السجون والمعازل وينفى
النديم نفسه في اختفاء طويل دام تسعة أعوام ، ثم تدفعه مركبة الزمن للكهفاح
مرة أخرى فينتضى قلمه ويرفع صوته ويجاهر بمبدئه في عهد كان الجبن مستوليا
على ألسن عقدت من الخوف وأقلام أغمدت من الرهبة ، ومبادئ توارت
من الخشية .

فلم ينحن للظغاة ، ولم يخشع للإحتلال ، وكان الصدى الباقي من ثورة الشعب
الكبرى .. فضاق به الإنجليز ذرعا ههاج الحكام عليه فنفي ومات بعيدا عن
وطنه الذى طالما أحبه وأفنى حياته وصحته في سبيل حريته ورقية ودفن في
قبر مجهول

وهكذا لم ينعم بثرى مصر التى أحبها .. .

ألا فليبق في قلب كل مصرى مثوى طيب لذكراه العاطرة

الباب الأول

عصر النديم

- (١) الحركة السياسية والفكرية في مطلع القرن التاسع عشر
- و (٢) الحركة السياسية قبيل ظهور النديم
- و (٣) الحالة الاجتماعية
- (٤) النشاط الثقافي في القرن التاسع عشر
- (٥) طبقات الشعب

عصر النديم

الحركة السياسية والفكرية في مطلع القرن التاسع عشر

قبل أن نتكلم عن الحركة السياسية في عصر النديم يجب أن نتقصى العوامل السياسية الأولى التي ساعدت على انتعاش الحركة الفكرية في مصر الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر .

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية تغط في نومها وتكاد تكون صلتها بالعالم الأوربي شبه مقطوعة ، بل معدومة . وكان آنذاك في نهضة شاملة ، وقد انتعشت الحركة الفكرية في مطلع هذا القرن بسبب قيام الحملة الفرنسية على مصر وظهور محمد علي ، فقد أثار دخول الفرنسيين ، اهتمام المصريين إلى ضرورة الإصلاح في شتى دروبه ، من علم وأدب ودين وخاق وعادات وسياسة والاهتمام بسائر معاني الحرية الفكرية والنشاط العقلي .

ثم بدأ يتغير نظر المصريين إلى الحياة ، فأخذوا يفهمون أسماء جديدة كالحرية ونظم الحكم وحقوق الشعب ، لأن الحملة الفرنسية التي قادها نابليون كانت تتألف من أبناء الثورة الفرنسية ممن آمنوا بالحرية والإخاء والمساواة . وكان من نتيجة اتصاهاهم بالأهالي فهم هذه المعاني الجديدة ، وكان هذا الهم بمثابة الضوء الأول الذي ظهر في ظلام الحياة المصرية وبصر المصريين بمآلهم . وما هم فيه من ظلم وعبودية وجهل .

وقد ساعد الفرنسيون كذلك على إنهاض الحركة الفكرية والأدبية في البلاد ، فقد أدت بحوثهم إلى الكشف عن اللغة الهيروغليفيية ، ثم دراسة مشروع قناة السويس ، ثم إحضارهم مطبعة عربية ، وكان ذلك أول عهد البلاد بها .

وكانت مصر آخر دول الشرق معرفة بها ، كما نحا الفرنسيون بالصحافة الأولى التي أنشأوها نحوها يرتبط بمصالحهم فأنشأوا جريدتين باللغة الفرنسية ،

أولاهما إخبارية خالصة وهي *Le Courriere de L, Egypte* .

والثانية علمية خالصة وهي *La decade Egyptienne*

صدرا سنة ١٧٩٨ ، ثم أصدر مينو مرسوما بإصدار جريدة عربية إسمها النبيه سنة ١٨٠٠ ، ولكن لم تصدر سوى ساسلة التاريخ التي قام بتحريرها السيد اسماعيل الخشاب وهي سجل يضم محاضر جلسات الديوان وبعض الحوادث الهامة.

كما عنى الفرنسيون بالشئون الصحية فأنشأوا المهاجر الصحية وأدخلوا نظام سجلات المواليد والوفيات واهتموا بشئون الصحة العامة .

أما الوعي السياسى فقد تم غراسه الأول حين أدخل نابليون أول نظام نيابى يشترك فيه الأهالى فى حكم البلاد وهو «الديوان» وهو هيئة حكومية يشترك المصريون فيها لأول مرة فى تاريخهم الحديث ، ومارسوا بواسطتها أول مراحل فن الحكم ، وكان ذلك خطوة إيجابية نحو تكوين وعيهم السياسى الوطنى ، الذى كان ينقصهم ليدفعهم إلى الكفاح من أجل الإستقلال .

وكان من نتائج الحملة الفرنسية ، أن تفتحت أعين العالم الخارجى إلى مصر ، لما نشره الفرنسيون من كتب عديدة تكشف نواحيها التاريخية والجغرافية فوفد إليها كثير من الباحثين والعلماء والسامحين .

وكانت الصحافة المصرية فى القرن الماضى معرضا جميلا للأفكار الحديثة التى وفدت إلينا عن الثورة الفرنسية ، وأداة صالحة لنقل هذه الأفكار — وخاصة ما كان منها ملائماً للتفكير الشرقى — إلى المصريين وغيرهم من البلاد الإسلامية .

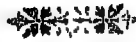
ولم يقصر قادة الرأي العام المصرى فى ذلك ، وبوسعنا أن نذكر بعض العبارات الرائعة والكتب الجميلة ، والصحف السيارة التى نشرت أفكار الثورة الفرنسية على يد كل من رفاة رافع الطمطاوى والسيد / جمال الدين الأفغانى وأديب إسحق وعبد الله النديم فهذا هو رفاع الطمطاوى يسافر فى بعثة إلى باريس ويشاهد ثورة الشعب الثانية على الملك شارل العاشر فيكتب عما شاهده بتفصيل فى كتابه عن رحلته إلى فرنسا : « تخلص الابريزى فى تانخيص باريز » ثم يترجم المهود التى أخذها الشعب الفرنسى على ملوكة من لويس ١٨ إلى لويس فيليب ، وهى المهود التى يطلق الفرنسيون عليها La Charta ثم يكتب فى كتب أخرى عن نظام الحكومة الفرنسية ومجلس النواب الفرنسى وكأنه فى ذلك يلتبس لوطنه أساوبا من أساليب الحكم ينبه قومه إليه .

ثم أتى بعد الطمطاوى ، صحفيون كانت مهمتهم التوفيق بين مبادئ الثورة الفرنسية ومبادئ الشريعة الإسلامية ، ومن الذين برزوا فى هذا المضمار أديب إسحق ، وكان شابا سوريا نهل من الثقافتين العربية والفرنسية ما أعده لأن يكون صحفيا ناجحا وأديبا من الطراز الأول — أتى إلى مصر وعاش بها حتى نشر أكثر من صحيفة . ثم نفي منها إلى باريس حيث نشر جريدة مصر القاهرة ، ومنها تحدث إلى المصريين عن الثورة الفرنسية ووفق فى إفهام المصريين بعض معانى الثورة بأسلوبه الرائع البديع ، الذى يفيض بالقوة والحياة واستطاع أن يوضح لهم المعانى الحقيقية لكلمات الوطن والوطنية والأمة والحرية والمساواة والدين والدولة ووجوب الفصل بين الأخيرين . كما استطاع توجيههم إلى أدوات الكفاح السياسى والقومى والعلمى ، ودعا إلى مجانية التعليم ووجوب نشره وباختصار نقل إلى المصريين خلاصة طيبة لمبادئ الثورة وأفكارها وتأنجها .

عبد الله أبو السعود :

هو أيضا من المواطنين الذين أسهموا في تلقين النفوس معاني الوطنية، وكان تلميذا للطباطبائي، ونقل إلى العربية تاريخ مصر ومهدده بمقدمه شرح فيها حب الوطن، فهو شيء أعلى من التعاق بمسقط الرأس، فإنه يقوم على حب الوطن والعمل الجيد والرغبة في التعاون . وعلى روح التضحية في سبيل الخير العام .

وكذلك حسين المرصفي : ونراه من كتاب الوطنية الذين حاولوا ايضاح المفاهيم القومية في مؤلفه « السكلم الثمانية » يفسر الكلمات التي كانت تشغل أذهان الطبقة النيرة . مثل كلمة الوطن والحربة والحكومة . . . الخ .



الحركة السياسية قبيل ظهور النديم

كانت مصر قبيل ظهور النديم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مسرحاً للأعيب السياسية فهي مريسة الشد والجذب بين مطامع الدول الأوربية، وأهواء الباب العالي، وأثرة الأسرة الحاكمة. وكان الخديو إسماعيل آنذاك في أواخر أيام حكمه، وقد ناءت البلاد بظلم حكومته المطلقة وإرهاقها الأهالي بالضرائب والأحكام الجائرة.

ومنذ إنشاء قناة السويس، وافتتاحها رسمياً سنة ١٨٦٩، وهي أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب، وأعين المطامع الاستعمارية متفتحة متربصة تاتمس الفرصة للإقتضاض على استقلال البلاد.

وكان في إنجلترا في منتصف القرن الـ ١٩ حزب سياسي حر، يخشى على الإمبراطورية من زيادة اتساعها وتشتت ممتلكاتها، ويحارب الفكرة الاستعمارية ولكن منذ تم إنشاء قناة السويس وربطت أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض وتكونت الجمعيات الجغرافية في أوروبا، وكثرت الاكتشافات في القارة الأفريقية عدل هذا الحزب رأيه

ومنذ ذلك الوقت أخذت إنجلترا وفرنسا تتنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها، وقد شجعهما على ذلك ظهور إسماعيل بمظهر من لا يحسب حساباً للعواقب وأخذ يفتح باب الإستدانة على مصراعيه، فكانوا يفرضونه بأفحش أنواع الربا.

وقد وضع الكاتب الإنجليزي سموركي سنة ١٨٨٢ بأن مصر كانت قد دفعت حتى هذا العام جميع ديونها الحقيقية - أي المبالغ المقرضة حقيقة وبفائدة

٦٤. / ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لا يقل عن الـ ٩٠ مليوناً من الجنبيات . وقد أدت هذه الديون التي لا موجب ولا ضرورة لها ، إلى تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية . واختلت الإدارة أكثر من ذى قبل ووضحت نية التوم ، وقلق المصريون على مستقبلهم ، وقد تجلى هذا القلق إبان الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، وهنا نذكر ما كتبه الإمام محمد عبده فى مذكراته عند ذكره جمال الدين وإثارة النهضة المعنوية فى مصر قال :

« وكان طامة العلم . . . وطلبة جمال الدين ينتقلون بما يكتبون من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة . والزائرون يذهبون بما ينالون إلى أحيائهم فاستيقظت مشاعر ، وانتبعت عقول . وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد ، خصوصاً القاهرة ، كل ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه ، ولا يزال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر فى الأنحاء على غير نظام ، إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فى سنة ١٨٧٧ ووجد الناس من أنفسهم لذة الإطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولتي روسيا - فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب — وكثرة الأجانب فى هذه البلاد — سهلت ورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها منهم ، ونحالتهم للعامة والخاصة ، مهدت الطريق إلى العلم بما فيها .

وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية ، فخرجت عما درجت عليه من التحرير فى الأمور الداخلية البحتة ، وانطلقت فى إيراد الحوادث فوجد بين الناس الناقم على تلك الجرائد والمناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معزوفاً من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها فى نشر الأخبار ، ومنافستها فى المشرب .

ولم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب ، بل اجتراً الكثير منها على نشر ما أصبحت عليه سائر الأمم في سيرتها السياسية والمعيشية مما فتح الأذهان وأيقظ الأفكار ونبه العقول ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وأخذ السيد جمال الدين في حمل من يحضر إلى مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول فتسابق إلى ذلك الكتاب ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد وكان هذا التاريخ (سنة ١٨٧٧) منشأ ظهور حركة المعارضة وصحافتها في البلاد ومن يطلع على أعداد جريدة مصر والتجارة ومرآة الشرق والأهرام يرى حقيقة ما ذكرناه .

وقد يتوهم بعض المؤرخين أن اهتمام المصريين بالحرب الروسية التركية يرجع إلى شعورهم الديني وتعلقهم بدولة الخلافة التي كانت مهددة حينئذ بالإضمحلال والواقع الذي لا شك فيه ، أن اهتمامهم كان سياسياً أكثر منه دينياً ، لأن تقسيم الإمبراطورية العثمانية كان معناه وقوع مصر في قبضة انجلترا .

ثم بدأت الصحافة العربية السياسية تظهر ، وبدأ الرأي العام يقوى أمام ضعف إسماعيل إزاء التدخل الأجنبي ، ووجدت البلاد حركة قومية دستورية ، ترمى إلى تقييد سلطة الحكومة المطلقة ، التي كانت في الداخل رمز بطش وجبروت وفي الخارج رمز ضعف وإستكانة ، وإلى إصلاح داخلية البلاد وماليتها لتخليصها من ربة الأجنبي ، وكانت الفكرة الدستورية تستمد قوتها من العوامل الآتية :
(١) وجود مجلس نواب صوري سنة ١٨٦٦ كان آلة في يد إسماعيل فلما تطورت الأحوال أراد المصريون توسيع سلطة المجلس وإعطائه حق الرقابة الفعلية على أعمال الحكومة .

(ب) بعث جمال الدين الأنفغانى فى نفوس المصريين منذ وفوده إلى مصر سنة ١٨٧١ فكرة إقامة نظام دستورى لعلاج أحوال الشرق المقبلة .

(ج) تهادى الأجانب فى أطماعهم وسطوهم على حقوق البلاد ، لأن إسماعيل لا يعتمد على حكومة شعبية مرتكزة على الأساس الدستورى ، وبالتالى فهى حكومة ضعيفة تعمل لمصاحبة حاكم مستبد .

(د) كان للبعثات المالية الإنجليزية التى وفدت إلى مصر فى الفترة من (١٨٧٦ — ١٨٧٩) أسوأ الأثر فى التشهير بسوء إدارة إسماعيل والنيل من روح ولاء المصريين نحوه ، حتى يضعف إخلاصهم له ، ويسهل للأجانب اغتصاب السلطة منه .

وقد لعبت بعثة السير ريفرز ولسن (١٨٧٨) الدور الأكبر فى هذه السياسة فنددت فى الأقاليم المصرية بأعمال إسماعيل وطلبت من المصريين أن يقدموا ظلاماتهم إليها ، ثم صرحت فى تقرير لها أن الحكم المطلق أصل البلاء . وحملت إسماعيل بمرسوم صدر فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٧٨ على إنشاء مجلس وزراء متضامن فى مسئوليته ، برئاسة نوبار وعضوية ريفرز ولسن وزيرا للمالية ودى بالنير وزيرا للأشغال .

وكانت هذه الوزارة تنفذ أغراض إنجلىترا السياسية والمالية ، فقضت على سلطة الحاكم الشرعى وانفردت بالأمر .

وكان أكبرهما الحصول على المال بكل الوسائل ، إرضاء للمالين الذين مهدوا لاساسة سيبلهم ، وقد عنيت الوزارة الأوربية بمحشد الموظفين الأجانب فى الحكومة المصرية ، وحرمت الإدارة من المال اللازم ، وبالجملة فقد زادت الأمور إختلالا لم تعرفه مصر من قبل .

(م ٢ — عبداقة التديم)

وقام مجلس النواب فى أول سنة ١٨٧٩ يطالب بتقرير حقوقه من حيث عرض القوانين المتعلقة بالشئون المالية عليه ، ووجوب موافقته عليها قبل تقريرها ، وذلك إعتراضا على اغفال المجلس فى المرسوم الصادر فى ٦ يناير سنة ١٧٧٩ الذى يقضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصبح نافذة بعد تقريرها من مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو فقط .. وقد تقدم بهذه المطالبة النائبان محمود بك العطار وعبد السلام المويالى ، وقامت الصحافة المصرية تؤيد هذه الحركة وتطالب بمبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب لا أمام إنجلترا وفرنسا .

وقامت فى الوقت نفسه خارج المجلس حركة معارضة قوية برئاسة شريف باشا وأخذت تطالب بإنشاء وزارة دستورية بحته ، مسئولة أمام مجلس النواب وقد تألفت هذه الوزارة فى ٧ / ٤ / ١٨٧٩ .

ونخلص من هذه العجالة أن مصر فى تلك المرحلة العصيبة من تاريخها كانت تعاني من تدخل الأجانب وتغلغل النفوذ الاستعماري فى جميع مراقفها سواء كانت أهلية (شركات) أو حكومية حيث كانت الإدارة المصرية فى أيدي الأوربيين ، وترك اسماعيل البلاد سنة ١٨٧٩ وهى مثقلة بالديون ، مما جرح المصريين فى عزيمتهم القومية ، فأعلنوا تعهدهم بسداد هذه الديون بشرط أن يتولوا هم حكم بلادهم ، مع قبولهم الرقابة الأجنبية على أن تكون قاصرة على النواحي المالية فقط ، ولكن عبثا حاول المصريون فى أواخر حكم اسماعيل التخلص من النفوذ الأجنبي ، لأن الإنجليز كانوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد حتى أوائل حكم توفيق .

الحالة الإجتماعية

تطلع المصريون إلى الغرب من زاوية السياسة ، فوقعت أبصارهم فيه على المعاني الجديدة لحرية الفرد وحقوقه ونظام الحكم ، وتطلعوا إليه من أفق الاجتماع فاسترعت انتباههم حضارته المتألفة ، وعاداته البراقة ، فاندفعوا يعبون من أنوار مدنية جديدة ، استحوذت على ألبابهم وأفكارهم ، فأغفلوا الملابس الشرقية كالجبة والعمامة ، وارتدوا الطربوش والبدلة الأفريقية ، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الأوروبية ، ودخلت العادات الأوروبية في أساليب المأكل والولائم ، فأخذ الناس يمدون الموائد ، ويتناولون طعامهم على النمط الأفريقي ، واستتبع ذلك بالأسف محاكات الأجانب في تناول للشروبات الروحية ، فعم في المجتمع المصرى الفساد ، وصارت الخمر من شر الآفات التي ابتلى بها .

وانصرفوا في فن البناء عن الأطرزه العربية الجميلة ، التي كانت متعة النواظر ، إلى احتذاء الهندسة الأوروبية ، التي توفر لهم نظمها أسباباً من الراحة ، ومال الشباب في أوقات فراغهم عن الجود والقعود ، إلى الألعاب الرياضية ، يزاولونها ويقضون فيها الساعات الطوال ، وتخلق الناس بالأخلاق الغربية ، في أحاديثهم وندواتهم ، وعكفوا على اللغات الأجنبية يتحدثون بها ، أو يمزجون طرفاً منها باللغة العربية تأقفاً .

وخرجت المرأة كذلك عن العادات الشرقية الماثورة ، وتراخى حبل المحافظة على العادات والسجايا العربية ، واندفع الناس في تيار التقليد المقوت

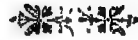
للغربيين ، يأخذون منه الفث والسمين ، مفتتين بالجديد ، حتى غرقوا في موجة التفرنج ، التي امتدت إلى أصول الأخلاق فوصمت بها ، حتى أصبحت المقامرة والمضاربة بالمال عادة مستحكمة ، والرشوة والمحاباة داءا دويا في جسم المجتمع ، وحتى كاد التأثق عند بعض الشبان ينقلب إلى لوثة من الرقاعة والفساد ، فأفاق العقلاء من غفوتهم ، وانتقى المصاحون أفلامهم يدرأون عن أبناء الوطن هذا الوباء الجارف .

وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ، ومشاهدة التمثيليات ، وزاد إقبال الناس على الموسيقى والغناء ، وارتقت أساليب الأخير ، وزادت مكانة المغنين في النفوس ، ونالوا من محبة الناس حظا عظيما ، وفي مقدمتهم عبده الحامولى الذى كان إمام المغنين في عهده بلامنازع ، وابتدع الحديو إسماعيل سنة الرقص الأفرنجى ، فكان يقيم في قصرى عابدين والجزيرة حفلات راقصة (بللو) بالغة الفخامة ، وكان يدعو إليها الكبراء وذوى المراكز الإجتماعية ورجال السلك السياسى وعقيلاتهم — وعنه أخذ بعض المصريين هذه السنة — ودخل الرقص الأفرنجى إلى مجتمعتنا المصرى حتى يومنا هذا .

وكانت لحفلات الأفراح في ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان السراة والأعيان يفتنون في تفخيمها وتعظيمها وينافسون في مظاهر البذخ والإسراف فيها ، وعندهم أخذ كثير من أفراد الطبقتين المتوسطة والفقيرة ، فاستدانوا لأجل هذه الأغراض ، ووقعوا تحت طائلة الديون والارتباك المالى في حياتهم الخاصة ، كما امتاز هذا العصر بهجة الحفلات العلمية المدرسية التي كانت

— ٢١ —

تقام لمناسبة انتهاء الدراسة في المدارس على مختلف مستوياتها .
وكان لحفلات سباق الخيل في ذلك العصر ، من مظاهر الروعة ،
جعل أفراد الطبقة الممتازة وغيرهم من طبقات الشعب يتسابقون إلى مشاهدتها
بالعباسية ، واستمرت حفلات الموالد الدينية والأعياد موضع إقبال الناس
ورعاية الحكام .



النشاط الثقافي في القرن التاسع عشر

كان النشاط الثقافي في الحقبة التي تعيننا من القرن التاسع عشر ظاهراً الأثر، وضاح الضرر، فقد أينعت فيه غراس الحملة الفرنسية وظهرت ثمار البعثات العلمية التي نهلت من ينابيع الغرب، وقام الأزهر بنصيبه من البعث والانطلاق والتجديد بعد الفتوى التي أصدرها الشيخ محمد الأنباي شيخ الجامع الأزهر وأمن عليها الشيخ محمد البنا مفتي الديار المصرية بجواز (تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعية وتركيب الأجزاء والمعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف) .

ولقد كانت تلك الحقبة آهلة بالعلماء والأدباء والشعراء، يدور انتاجهم إلا أقلهم في فلك القديم ومحاكاته، على أن طابع تلك الحقبة إنما يتجلى في أمرين اثنين هما انتشار الصحافة وترجمة الروايات .

شهدت مصر في سنة ١٨٦٥ ميلاد أول صحيفة مصرية بعد صحيفة «التنبيه» على عهد الفرنسيين وبعد الوقائع المصرية^(١) على عهد محمد علي^(٢)، تلك هي مجلة «اليعسوب» الشهرية ومنشئها محمد علي باشا الحكيم وإبراهيم الدسوقي، ومنذ ذلك التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر، ذخرت مصر بالصحف والمجلات السياسية الأدبية أنشأها المصريون أو أصدرها الشاميون الذين هرعوا إلى وادي النيل، واتخذوها ميداناً لتسابق أقلامهم .

(١) صدرت سنة ١٨٢٨ وحرر فيها أولاً بالتركية ثم حرر فيها بالتركية والعربية على عهد الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين .

(٢) أدب المقالة الصحفية في مصر . الدكتور عبد الألطيف حمزة ج ١٠ ص ٢٧ .

نذكر من صحف المصريين « وادى النيل » - أنشأها أبو السعود سنة ١٨٦٦ « ونزهة الأفكار الأسبوعية » لإبراهيم الموباحى ومحمد عثمان جلال ١٨٦٩ ولكن لم تعش إلا وقتاً قليلاً ، و « روضة المدارس » صدرت سنة ١٨٧٠ كتب فيها كثير من الأدباء والعلماء و « الوطن » لميخائيل عبد السيد أنشئت سنة ١٨٧٧ ، والمؤيد للشيخ على يوسف و « الأستاذ » للسيد / عبد الله القديم أصدرها سنة ١٨٩٢ .

ونذكر من صحف السوريين : الكوكب الشرقى لسليم باشا حموى عام ١٨٧٣ ، والأهرام لسليم وبشارة تكللا سنة ١٨٧٥ ، والمقطم لصروف ونمر مكاريوس سنة ١٨٨٨ إلى كثير غيرها ما بين يوميه وأسبوعية وشهرية من مثل المقطم والهلل واللطائف ولسان العرب والبيان وأينس الجليس الخ .

فجال هؤلاء وأولئك فى السياسة والأدب ، وأنشأوا فن المقال الصحفى ، وكان للشاميين أثرهم وفضاهم على الصحافة الشعبية المصرية .

أما الترجمة فيبدأ كذلك عهدها المنظم فى زمن الحملة الفرنسية .. فالمشور الذى أمر بونايرت بتوزيعه على أهل الاسكندرية قد ترجمه « فنتورا » وطبعه للمستشرق (حنا يوسف مرسيل) مدير مطبعة الحملة ، وقام بهذا العمل على ظهر الباخرة لوريان ^(١) .

ثم تنسج دوائر الترجمة فى مصر طوال العقود الثمانية من القرن التاسع عشر ، ويقوم بها مستشرقون ^(٢) وشرقيون ، يدبرونها فى نقل الكتب العلمية والأدبية.

(١) حركة الترجمة بمصر خلال القرن ال ١٩ لجاك تاجز ص ٤

(٢) أوفد عمد على ثلاث بعثات علمية إلى أوروبا ، فتكونت بذلك ثلاثة طبقات من =

والمحاضرات ، وبستخدمونها في الأعمال الحكومية ، حتى كان الربع الأخير من ذلك القرن حتى اتسعت دائرتها أيما اتساع ، وتناولت مختلف الفنون والشئون ودارت اللغات الأجنبية على الألسنة ، وشجعت الحكومة الترجمة والمترجمين ، ونهض بها غير واحد من الأدباء ، ممن لم يعملوا في نشر كتبهم المترجمة ورواجها إلا على الشعب ، فكسب العصر زادا طيبا من المعارف ، ما بين علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وأدبية . وظفرت المكتبة العربية بنفائس من كتب الغرب .

وهاجر كثيرون من السوريين إلى مصر وانتظموا في سلك الحكومة والتعليم في المدارس المصرية ، ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدعاة ، الذين كان أكثرهم من المستعمرين العارفين باللغة العربية ، فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربي ونفع من مدارسهم رجال كانوا زهرة سورية ، وغاب عليهم الأدب والشعر والكتابة وترجمة الروايات الجديدة ، واتخذوا ذلك صناعة يتكسبون منها .

غير أن العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، قد تميزا بترجمة القصص والروايات التمثيلية ، ولما كان فن التمثيل العربي في مصر شامى الأرومة ، فقد مهرة الأدباء السوريون واللبنانيون بطائفة صالحة من الروايات التمثيلية ، نقلوها من اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية ، ثم شرعوا يعالجون التأليف ، فحذا

== العلماء والأطباء والمهندسين والضيباط ، فنقلوا إلى اللغة العربية كثيرا من الكتب الجليلة فأحدث ذلك في اللغة العربية انقلابا عظيما كما اكتسبت من سعة الأغراض والمعاني والألفاظ العلمية وطرق البرهنة والاستنباط ثروة طائلة ، ولما حاول أن يجعل اللغة التركية اللغة الأساسية في الثقافة والتعليم والإدارة تفرغ عليه ذلك ، فاضطر إلى تجارة طيبة البلاد فأصبحت اللغة العربية لغة كل ذلك وظهرت على اللغة التركية واللغات الأوربية التي كانت تدرس وجوبا معها .

حذوهم المصريون ، ترجمة وتأليفاً أو اقتباساً وتمصيراً ، كرواية « تروتوف » —
تقلام عثمان جلال وسبكها في قالب مصرى وسماها الشيخ متولف .

ولم ينحصر نشاط المترجمين في الروايات التمثيلية بل تعداه إلى مختلف
ضروب القصص فلكيت هذه من الجمهور اقبالاً كبيراً ، وتسربت المعانى والأساليب
الإفرنجية إلى الأدب العربى ، شعره ونثره ، على أسنة أقلام المترجمين . يبرزها
الضعيف فيهم في ثوب ركيك مهمل ، ويجلوها القوي الكفى في برود قشب
من الديباجة العربية .

.. ولقد كان لشيوع تعليم اللغات الأجنبية وجعلها ضمن المناهج العلمية الإجبارية
في مدارس الحكومة والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة ، أن انتقلت كثير
من المعانى والأساليب الأوربية التى يقبلها الذوق العربى إلى اللغة العربية ، فأثرت
بذلك ، وحصفت أفكار أهلها ، واتسعت اغراض القول في وجوههم .

ولا يفوتنا أن نذكر أن من أسباب النهضة الأدبية الأخيرة إنشاء المحاكم
الأهلية ، ونظام التقاضى والترافع أمامها باللغة العربية ، وكثرة الأندية والمحافل
السياسية والأدبية والعلمية . وإحداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول
عليها شرط فى خدمة الحكومة .

ويتم صورة ذلك النشاط السياسى الثقافى فى تلك الحقبة ، توفر المطبعة الأميرية
والمطابع الأهلية على إخراج نقائس الكتب العربية ، ثم ارتياد الناس المكتبات
العامة . ينهلون من معينها ، وترددهم على المتاحف يرهفون بذلك أذواقهم ،
ويصقلون ملكاتهم ، وازدياد عدد المتعلمين ممن يتخرجون من المدارس المصرية
أو المدارس الأجنبية .

طبقات الشعب :

الأسرة الحاكمة : تفرعت الأسرة الحاكمة ، وكثر عدد أفرادها في عهد خلفاء محمد على وصاروا يمثلون طبقة السادة والاقطاعيين في المجتمع ، فابتنوا القصور الفخمة وعاشوا في حياة كلها كسل ودعة ، في غمار الخمول والملاذات والرفاهية ، على حساب هذا الشعب البائس المحروم ، ورغم أن محمد على اهتم بتنشئة انجاله وتعليمهم ، ولكن خلفاؤه قصرُوا في الاندماج في الشعب والاعتزاز بالانساب اليه ، فكانوا ينفرون من الاختلاط به ، واستعمال لفته ، ويتخاطبون إما بالتركية أو باللغات الأجنبية الأخرى ، وقد أفضى الأمر ببعضهم أن تنكر لهذا البلد بأسره ، وفضل المعيشة في الخارج سواء في الآستانة أو في أوروبا ، واعتبروا أنفسهم غرباء عن الشعب .

ثم بعد ذلك تشاحنوا فيها بينهم ، وسادت بينهم الفرقة والعداء ، وحسد الحاكم منهم باقي أفراد عائلته ، فعباس الأول كان يمت سعيد وارث الملك من بعده ، وحنق على عمته حتى شرع في قتلها ، وكان إسماعيل يسىء الظن بجميع الأمراء من آل بيته ، ولما مات عمه سعيد لم يرع الواجب والإحترام له ، فدفن بالإسكندرية بدون إحتفال ، بينما في نفس الوقت أقيمت الأفراح في القاهرة ايذانا باعتلائه عرش مصر ، ثم عادى إسماعيل أخاه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم حتى ارغمهما على بيع املاكهما واقصاهما عن البلاد نهائيا .

الموظفون :

ارتفع مستواهم الثقافى عن ذى قبل ، وانحط مستواهم فى الوطنىة والاخلاق

ورعاية مصالح الشعب ، وساءت الإدارة بانتشار الرشوة ومظالم الحكام ، واغتصاب الأملاك ، والبعث بحقوق أبناء البلاد .

طبيعة الزراعة والصناع والتجار :

ساءت أحوال الفلاحين ، بما زاد عليهم من ضرائب ، وما اقترن بالقسوة في جمعها ، وظلت السخرة سائدة في هذا العهد وسلبت الأراضي من أصحابها ، واستعبد صغار الفلاحين في مزارع الحكام والأغنياء استعبادا بشعا . أهدرت به كرامتهم الإنسانية إهدارا مثيرا ، فكانوا يعملون لاستصلاح أطيان الخديو دون أجر — وكانت قاعدة الحكام في معاملة الفلاحين هي العنف والإرهاق ، وكانت طريقة جباية الضرائب ، الإقتصاص بالضرب بالكرباج ممن يخالفون الأوامر ويتأخرون في دفع المتأخرات عليهم . وكثيرا ما كان يقع غضب الحكام على الفلاحين العزل بغير ما ذنب أو جريمة — سوى شهوة الظلم والبغى واستلاب الحقوق ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل ، يحميان الضعيف وينصفان المظلوم — ولم تكن هناك رقابة على الحكام من حكومة عادلة ، أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام كما وقع على الأهالي حيف آخر من ناحية المرابين من الأجانب ، إذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ومن حماية الامتيازات الأجنبية ما جعلهم يتمادون في استغلالهم للفلاحين حتى انتزعوا منهم الأموال والأملاك ، وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يتحرر الفلاح في هذا العصر من الفقر والفاقة والجهل والانحطاط ، وظل يعيش عيشة السكد والكسح بأقل الحاجات والنفقات .

النهضة النسائية :

بدأت هذه النهضة في عصر إسماعيل ، فقد أنشأت الزوجة الثالثة لإسماعيل « جشم آفت خانم أفندى) أول مدرسة بنات مصرية بالسيوفية وعينت السيده روز ناظرة عليها ، ولما زاد الإقبال عليها ، اعتزمت انشاء مدرسة أخرى أعظم منها ، فبنت مدرسة كبيرة فخمة وقبل افتتاحها ، كان إسماعيل قد بارح القطر هو وزوجاته ، وأهمل شأن المدرسة وشغلها الحكومة ببعض الدواوين ، ومكانها الآن تشغله « وزارة المواصلات » ثم أنشئت بعد ذلك المدارس المختلفة لتعليم البنات ، وبدأت المرأة تشترك في النهضة الاجتماعية والأدبية ، وكانت « عائشة عصمت تيمور » طليعة هذه النهضة .

وكان لرفاعة رافع الطمطاوى فضل كبير في الدعاية لتعليم المرأة ، وتتجلى فكرته من وضعه كتابا مشتركا لتتقيف البنات والبنين سماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » سنة ١٨٧٢ ، ثم كثرت ابتداء من منتصف القرن ١٩ مدارس البعثات الأروبية . فأنشأت مدرسة راهبات الراعى الصالح بشبرا سنة ١٨٤٤ ، ومدرسة راهبات القديس منصور دى بول فى الموسكى سنة ١٨٤٥ ، ومدارس الجزويت سنة ١٨٧٨ ، ومدرسة الرسالة الفرنسيسكانية الإيطالية سنة ١٨٥٩ ، وكان لبعض هذه المدارس فروع فى المنصورة وكفر الزيات وطنطا والاسماعيلية ، وقامت هذه المدارس وما زالت تقوم إلى الآن بالاضطلاع بعبء تهذيب الفتاة وتربيتها .

التمثيل :

وقد بدأ المسرح المصرى فى الربع الإخير من هذا القرن يستقيم له كيانه ،
وتفتح لتمثيل الروايات العربية بعض الأحيان أبواب الأوبرا ، ويعنى به الحكام ،
وتألفت الفرق التمثيلية كفرقة يوسف خياط وسليمان القرداحى ، وأبى خليل
الفيانى واسكندر فرح ، ومال السكتاب إلى الفن المسرحى يغذونه بالمسرحيات
المرجحه وأشهر هؤلاء نجيب الحداد .



الباب الثاني

حياة النديم

(١) نشأته الأولى

(٢) الأديب الشريد

(٣) نشاطه في الاسكندرية

(٤) الشاعر الهارب

(٥) في المنفى الأول

(٦) عودته إلى مصر

(٧) نفيه الثاني وموته

(٨) أبو الهدى الصيادي

(٩) تأثره وتأثيره

(١٠) جمال الدين الأفغاني

الباب الثاني

حياة النديم

ولد الشاعر العظيم « عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الادريسي » الشهير بالنديم في يوم عيد الاضحى عام ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م بالإسكندرية .

وكان أبوه مصباح من قرية « الطيبة بمديرية الشرقية ، وحينما اشتد عوده انتقل إلى الإسكندرية ليعمل نجاراً بالترسانة التي أنشئت في عهد محمد علي لبناء الأسطول البحري الكبير ، وظل يشغل عاملاً بها حتى صدر من الباب العالي بتركيًا فرمان سنة ١٨٤١ وكان من بنوده خفض () الجيش المصري إلى ١٨ ألف جندي وإغلاق المصانع الحربية التي تمون الجيش ومن بينها ترسانة الإسكندرية .

فلما أقفلت الترسانة أبوابها في وجه الشاب مصباح ومئات غيره من شباب البلاد، لم يشأ العودة إلى قريته ليعيش فيها معيشة المسغبة والحرمان شأن آبائه وأسلافه بعد أن عاش في المدينة وتذوق نعمة الوظيفة بل استقر في الإسكندرية . واتخذ مخبزاً صغيراً يصنع فيه الخبز ويبيعه للمواطنين . وهكذا عاش هذا الرجل حياة بسيطة فقيرة، مسكن متواضع وملبس لا يراعى فيه إلا أن يؤدي أغراضه الضرورية في حى وطنى فقير قريباً من حى القبارى بالإسكندرية يسمى « كفر عشرين » .

بعد أن استقر الحال بمصباح في عمله الجديد وأحس نوعاً من الطمأنينة تزوج ثم ولد له ابنه « عبد الله » وسنه إذ ذاك ٢٦ سنة .

(١) كان تعداد الجيش المصري حسب إحصاء سنة ١٨٢٩ و ٦١٦ و ٢٧٧ جندي وبحار (٣ — عبد الله النديم)

نشأ الطائفة في حى من الأحياء الفقيرة ، وما أن شب وأصبح قادراً على التعلم حتى بعث به أبوه إلى الكتّاب ، الموجود بمقرّبة من مسكنه كما يفعل الناس من مثل طبقة يرسلون أبناءهم إلى الكتّاب زمننا ، يتلقون ثمالة من معلومات ، وقليل من مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، وتجويد القرآن الكريم . وقد يدا على الصبي الصغير من الذكاء ما جعله يبرّز رفاقه في حفظ القرآن واستيعاب ما يتلقاه في الكتّاب قبل أن يبلغ التاسعة من العمر الأمر الذى شجع والده أن يتابع تعليمه في مدرسة أرقى من هذا الكتّاب ، وهى مدرسة جامع الشيخ إبراهيم باشا (الجامع الأنور)^(١) عام ١٨٥٥ ولكن الطالب الذكى الذى عهدنا فيه نباهة الطفولة لم يستطع هضم ما كان يلقى عليه من دروس وذلك لخطّة الدراسة العقيمة والكتب المعقّدة وجمود العقليّة المسيطرة على هذا المعهد وبقية المدارس الدينيّة الأخرى وقتذاك ، التي كانت تسير على أساليب القرون الوسطى .

وكانت الكتب التي تدرس في هذا المعهد من نتاج العصور المتأخرة فقدت الروح وصارت شكلاً لا حياة فيه . متون قصد بها أن تكون ملغزة لتأتى عليها شروح تفيض في شرح ألفاظها ثم حواش تستدرج مافات الشارح ، ثم يأتى بعد ذلك التقرير أو التعليق ، وأكثرها مساجلات انمظيّة يضيع المعنى بينها ومعجمات يصعب على طالب العلم حل ألفاظها وأحاجيها .

وكانت الجماهرة العظمى من طلبة العلم الشريف لا يصبرون على هذا اللون من جفاف الدراسة ولا يتحملون العناية في فهم كتبها المعقّدة ، ويصحبهم

(١) أنشأ هذا المسجد الشيخ إبراهيم باشا سنة ١٢٤٠ هـ ووقف عليه الأوقاف الكثيرة وسماه « الجامع الأنور » ليضارع الجامع الأزهر في القاهرة ورتب له العلماء يقرأون فيه الفقه والنحو والأصول والتوحيد والعلوم اللسانية والكلامية وبقية العلوم الأزهرية (المخطوط التوفيقية - ٧٠ ص ٧١) .

- ٢٥ -

اليأس ، فيهربون منها بعد مدة تطول أو تقصر حسب قوة تحملهم وصراعهم مع نفوسهم أو خداعهم لها . كان اليأس من النجاح - كما قال الشيخ محمد عبده - يتسرب إلى قلوب خمسة وتسعين في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل - سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعدادة للفهم .

أمضى الفتى الناشئ « عبد الله بن مصباح » بضع سنوات يتلقى العلم بالمسجد الأنور ، يحضر حلقات « فقه الشافعية والنحو والصرف والتوحيد والمنطق والعلوم اللسانية والأصول » وظل في هذه السنوات ينازع نفسه ويجهد على السير في هذا السبيل ، ويحاول قدر الطاقة أن يستجيب لما يلقى عليه وأن يستسيغ ما يقرأ فلا يستطيع ، وعاف طريقة التدريس فأخذ يهجر حلقات الدرس ، وسم حفظ الكتب دون فهم فلم يعد يلتفت إليها ، ولم يستطع أن يغالط نفسه في حقيقتها وعرف أن هذا ليس بطريقه وأن القدر قد رسم له حياة أخرى غير التي أختطها له أبوه ، فقاطع الدراسة وفر من الجامع الأنور .

ولكن إلى أين . . . إلى التسكع في الطرقات وحشر نفسه بين الجماعات - فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الزجل أو الشعر أو يتبادرون الملمح والنوادر ، أو يتماجنون بما أرادوا من ألوان المجون ، اندس الصبي بينهم ، واستمع بكل أذنه لهم ، وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شيء يستقر فيها ، وهذه الخزانة هي حافظته القوية ، وذاكرته العجيبة التي كانت إذ ذاك ، كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ثم أصبحت فيما بعد - أعنى وقت الشباب والكهولة - كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التي وصف بها .

وقد حجب إليه هذا النوع من الدراسة غير المنظمة ، أنها توافق مزاجه

وتناسب استعداداه ، فأخذ يصاحب الناشئين فى الأدب ويغشى مجالسهم ويجالس أساتذتهم، ولكن لم يكن فى ذلك العهد للأدب درس منظم ، ولا هو يعد علماً ولا فناً وأما هو هواية كذى الصوت الجميل يهوى الغناء فيقلد من سبقه .

أليس عجيباً أن فى هذا شأنه وتلك أسبابه ، لم يكلف نفسه ذهاباً إلى المدرسة أو الجامعة ، ولا أخذ نفسه فى أول الأمر بشئ من جد الحياة فى وقت الطلب ، يصبح بعد زمن ليس بالطويل ، إماماً من أئمة الأدب فى عصره ورائداً من رواد النهضة فى أمته ؟

الحق أن القارئ حياة هذا الرجل ، ليؤمن لإيمانا لا ريب فيه - بأن ملائسة الحياة نفسها ، ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيراً فى النفس وتكويناً للخلق من الجامعة أو المدرسة .

ولا غرابة فى ذلك ، فالحياة الواقعية نفسها كانت أهم مصدر لشقافته رجل كبير من رجالات الأدب العربى (وهو الجاحظ) وجاءت تصانيفه أكبر شاهد على ما نقول .

تخيل معى هذا الفتى الصغير وهو يحول فى أنحاء الإسكندرية أو فى أحياء طنطا أو المنصورة أو القاهرة ، يستمع إلى السوق وهم يتحدثون ، أو إلى الخاصة وهم يتحاورون ، ويغشى الموالد - حيناً - وينج بنفسه هناك فى غمار هذه الطائفة التى عرفت باسم (الأدبائية) ليلتقط ما يقولون ، ويقلدهم فيما يفعلون ، لا تفوته حركة من حركاتهم ، ولا من حركات الناس جميعاً فى ذهابهم وإيابهم ، ولا تضع منه همسة من همساتهم - وكأن ذهنه آلة تصوير تهبأت لالتقاط كل هذه الأشياء المتعددة - كما قال الأستاذ أحمد أمين .

والنفس الحساسة تخزن حتى حفيف أوراق الشجر ، وهففة الأغصان
ودبيب النمل وحلاوة البسات وأدق مجالى الجمال والقبح ثم تعرف كيف
تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه وقد اشتهر أمر الأديب الناشء
فى الاسكندرية ، وأصبح يدعى ليجالس الخامة ويصاحب السادة وينادم
الكرماء فيترسل ويسجع ويخطب وينشد الشعر ، ويخالط العامة فيترجل
ويطلق الأمثال والنوادر على البديهة وصار اسمه برغم صغر سنه ، يتردد
فى المحافل والمجالس .

ونقل الناس أخبار «عبد الله» إلى أبيه مصباح فى مخبره ، فنارت ثأثرته
وأصيب بخيبة كبرى فى ولده المندور للعلم ، وخير الوالد ولده ، فإما أن
يعود إلى طلب العلم فيجد الرعاية والإئناق أو يذهب إلى حال سبيله ، ويتولى
أمر نفسه فياً كل بشعره وزجله ، ولكن عبد الله آثر عدم العودة إلى حلقات
الدرس ، وخرج من الاسكندرية وأخذ يطوف البلاد ويجوب المدن
والقرى ، تارة يركب القطار ، ومرات كثيرة يقطع المسافات سيراً على
الأقدام ، لا ترده المتاعب عن أمله ولا تلبيه الملاعب عن عمله ، يجد شأن
أمثاله من الظرفاء الجوالين - دائماً ، مكاناً له على موائد العمد وأعيان البلاد
أيمنهم يأنشده ، وينادهم بأزجاله ، يسموهم بمناقشاتة ويشد إليه عيونهم
بأحاديثه العذبة ، ويتعرف على البلاد وظرفاتها ، فيناظرهم ويناشدهم ، ومن
كل ذلك تزداد معارفه وتنمو خبراته ، وقضى فى رحلته هذه زهاء ستة
أشهر اكتسب فيها لقباً جديداً اشتهر به ، وغلب عليه ، وصار يعرف
به طوال حياته وهو لقب «النديم» .

وقد علمته رحلته الجرافة والأقدام ، ومعاناة الشدائد - سعيًا وراء الرزق ،
وحب الظهور بين مشاهير الندماء - وقد كان قبل الرحلة - شأن كل حدث

هيا با يخاف الاغتراب ويتملكه الجبن حين يفكر فى سبل العيش المجبولة .
وعاد النديم إلى الإسكندرية وسرعان ما برم بالعيش فيها بسبب حقد
زملائه محترفى الأدب عليه وتنكرهم له ، وتقدم شعر وأساليبه البديعية الجديدة
التي جاءهم بها معه من رحلته . وكما يقول هو : أعلنوا عليه الحرب وتجمعوا
ضده من كل حزب .

ولم تعد مجالس الإسكندرية ترضى طموحه وذوقه ، وقد تنهت آفاق
معرفته بعد رحلته ورأى عالماً أكبر وأوسع ، وسمع عن دنيا تختلف كثيراً
عن الإسكندرية ، فهاجرها إلى القاهرة فى عام ١٨٦١ م . وسنه إذ ذاك سبع
عشرة سنة ، ونزل فيها ضيفاً على صديق له يدعى عبد العزيز حافظ ، كان
قد تعرف به فى الإسكندرية يعمل مفتشاً بالسكة الحديد وكان ذا يسار يحب
الأدب ويكرم الأدباء .

ثم أخذ يبحث عن مصدر للرزق ، وكانت الحكومة فى حاجة إلى شبان
متعلمين تشغل بهم الوظائف المستحدثة فى مكاتب التلغراف ، فتقدم النديم
ليعمل ياحدى هذه الوظائف ، ثم أخذ يتدرب على هذا الفن حتى أتقنه بعد
بضع شهور ، وعين عاملاً للبرق « تلغرافياً » وصار يتنقل فى مكاتب مختلفة
حتى استقر به المطاف فى مكتب التلغراف ببها .

ولم يكن النديم سعيداً أول أمره بعمله لتأني عن وطنه الأول ، وحرمانه
غذائه الروحى فى صحبة الأدباء والشعراء ، وضائق نفسه بحياة الصخب
والضجيج التى يحياها ليل نهار . يعانى من صغير القطارات وضوضاء المسافرين
ومن صخب الحمالين والباعة الجائلين ، ولا ينقذه من كل ذلك سوى
قلبه ، ينغمس به عن ضيقه فى خطابات يكتبها إلى صديقه عبد العزيز حافظ :

(ولو علم السيد ما أنا فيه من معاناة الأمور ، ومعاناة الدهور ، لالتبس عذراً لتأخيري ، فأرجو الصنفح عما يوجد في هذا من القبح ، فقد حررته ليلة نوبتي ، بعد عشائي وقبل نومتي ، مع صغير الوبورات ، وجميعه العربات ، ونداء العدة مدة بعد مدة فعندى من الأوباش كل سكير وحشاش ، حزب يلعب الدفنة ، وفريق يأكل كيلة ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقفز كالقرد ، وكنت في بلوى كبيرة إذ صار المحل كبيرة) .

وألقى نفسه بعد ذلك متردداً عند مفترق الطريقين ، فقد كادت عشرته هؤلاء الجبال تستميله إليها ، يحرفه تيار الجبال ، وأصبح منها قاب قوسين أو أدنى وفي ذلك يقول :

« وانتظمت في سلك التلغراف ، وامتزجت بالأوباش بعد الأشراف .
فضعف يقيني ، ولم أجد من يقيني ، فإن أغلبهم سكارى ، وكلهم حيارى ،
لا يعرفون الهدى ، ولا يتركون الردى ، أعبدهم من إذا رأى الخمر هام ،
فلا يرد إلا بالحمام وأصلحهم نواصي العمل ، وأقنعهم أشعي الأمل -
لا يركون ولا يتصدقون ويخلفون ولا يصدقون ، ولا يرون عيباً في فحش ،
فهم أغلط من وحش ، إن حدثوك كذبوا ، وإن اتهمتهم خانوا وسرقوا
وإن هديتهم ضلوا وسرقوا ، كم قت فيهم خطيباً ، وأسمعتهم وعظاً طيباً فلم
يزدادوا إلا نفورا وقد أعياني رد هذا الخطب ... »

ولكن القدر أنقذه قبل أن يجرى به ضياع الإنسانية في كموف الضلال ،
فنقل إلى القاهرة بمكتب تلغراف القصر العالى ، مقر الأميرة خوشيار خانم
أفندي أم الخديوى اسماعيل أو مقر قصر الوالدة باشا - وكانت ذات جمال
وبهاء ، تحب الفنون وتسعى لاستكمال أسبابها في قصرها العظيم الذى كان يقع
على النيل ، أو ما يعرف الآن (بجازدن سیتی) وفى هذا القصر رأى النديم
حالماً زاخراً بأشتات من الأجناس والطبقات ، مليئاً بأنواع الترف ومظاهر

المجد والالهة وكانت الأميرة لاتألو جهداً في استيفاء أسباب المتعة والسرور ، وكانت تقيم مع حاشيتها أول الأمر في سراى الزعفران بالعباسية ثم انتقلت منها إلى القصر العالى ، وكان يحوى فرقة موسيقية لعزف الأدوار الغربية تحت رئاسة مديرة حائزة أرقى الشهادات من الخارج فى غاية الجمال والرواء ، وأثناء إقامة الحفلات الموسيقية بالقصر كانت ترتدى (سترة) من الجوخ الأحمر المزخرف بالقصب وسروال (بنطلون) من الصوف الأزرق ، وقد رصع صدرها بالنيشين وعلى رأسها طربوش وفى يدها عصا فضية ، وكان هذا زى العازفات أيضاً ، كما كان بالبهو الداخلى بالقصر فرقة موسيقية شرقية لعزف الموسيقى التركية بمصاحبة فرقة من المغنيات المصريات والتركيات ، كذلك كان بالقصر مسرح وفرقة مسرحية لتمثيل الروايات الكوميديّة وفرقة من أجمل الراقصات الأوربيات ، كما كان بالقصر مجموعة ممتازة من الجوارى والوصيفات تعنى بترتين تربية عصرية ، وقد بلغ مجموع من بالقصر منهم حوالى ألف شخص ، وكان على رأس القصر خادم أسود ، رهيب المظهر مرهوب الجانب قوى الشكيمة عظيم النفوذ فى دوائر الحكومة هو خليل أغا- باشى أغا الأميرة ، وليس أدل على نفوذه ، من رئاسته لجمعية الحفلات الكبرى التى تقام بالقصر وفى أثناء حفلات أفراح الأبنجال (حفلة زواج الأمراء حسن وحسين توفيق) التى دعى إليها الأمراء والوزراء وكبار الأعيان كان الجميع يقبلون يديه عند مقابلتهم له بدون استثناء ابتغاء مرضاته ، ولاغرو فى ذلك فكان له من النفوذ ما يرفع به من يشاء وينكل بمن يشاء .

وكان أثناء عمله بالقصر العالى بالقاهرة ، دائم الاتصال بمجالس العلماء والأدباء ، وفى أوقات فراغة يغشى ندوات الأدب ومجالس الخاصة الناهيين فى عصره ، وبصفة خاصة ندوة جمال الدين الأفغانى التى كان يعقدها فى منزله بجى الأزهر وأحياناً (بقبوة متاتيا) بالعتبة الخضراء ، حيث يتجمع حوله أنصاره وكذلك مجلس حسن بك حسنى البارودى بغيطة العدة (باب الخاق)

الذى كان عامراً بالأدب وعشاقه ، كما كان يتردد على مجلس الشيخ أحمد وهبي الذى كان يعقده فى محله الكائن بالغورية لبيع الطرايش ، وقد توثقت الصلات بينه وبين أحمد وهبي فعرفه بدوره إلى كثير من فحول الادباء فى ذلك العهد ومنهم محمود سامى البارودى - محمد صفوت الساعاتى ، السيد على أبو النصر وكان الاخيران من شاعرى المعية السنية ، كما كان يحضر عدة ندوات أخرى فكان بالنهار تلغرافيا يستخدم الإشارات ويرسلها وبالليل أديبا يجالس الادباء .

استمر النديم يعيش حياة منظمة مطمئنة ، فهو يعمل بالنهار بالقصر العالى ويحضر مساء مجلس أستاذه جمال الدين الافغانى ولا يكدر حياته مكدر ، إلى أن حدث خلاف بينه وبين خليل أغا رئيس القصر ، اختلف الناس فى أسبابه ، ولم يصرح لنا النديم فى كتاباته عن ذلك صراحة ، فمن قائل أن الطاغية الاسود كان يعاقب الخدم بشدة دون ذنب سوى الدسائس وثار لذلك عبد النديم وأبدى احتجاجه على ذلك مع بعض موظفى القصر ، بما حقيق عليه خليل أغا إذ اعتبر ذلك تدخلا فى شؤنه ، ومن قائل أن النديم كان قد شوهد فى مجالس أستاذه جمال الدين وكانت تظل معقودة إلى ساعة متأخرة من الليل فكان من المتعذر عليه أن يصل بعد ذلك إلى مكتب عمله صباحا فى الميعاد المقرر ، فأغضب ذلك رؤسائه وجلب سخطهم ، حتى وصل أمره إلى رئيس القصر ، ومن قائل أن ارتياده مجلس جمال الدين الافغانى قد بلغ القصر خصوصاً وقد بدأ الافغانى ينتقد صراحة أعمال اسماعيل ويندد بسياسته واستبداده .

فتربص رجال خليل أغا بالنديم ، وأوسعوه ضرباً مبرحاً ، وكانت الخطة أن يقضى عليه قضاء تاماً لولا لطف الله به ، فقد قيض له من بعض زملائه من موظفى القصر . من سهل له طريق الفرار فى منتصف الليل . وهو مشنخ بالجراح . يكاد يتهاوى من شدة الألم .

— ٤٢ —

وهكذا يتم الفصل الأول من الصراع بين عبد النديم العامل المصرى الصغير وبين ظالم جبار من أتباع اسماعيل ، وخرج يغلى من الغضب ؛ ويضج بالثورة والألم ضد الطغاة - والإقطاعيين وأمرأء بيت إسماعيل - وآثر الصمت بعد ذلك زمناً ، وفصل من وظائف الحكومة وحرّم عليه التعيين بها بعد ذلك ، لغضب خليل أغا عليه .

الأديب الشريد

أخذ النديم يضرب في الأرض على غير هدى ، ويحجوب مد الوجه البحرى وقراه ، مستعيدا سيرته الأولى من ملازمة الأعيان وكبار المزارعين ممن يجيدون الاستماع وتذوق الادب . وحط رحاله في أول الامر في المنصورة ، واتخذها مركزاً له ، يطوف مايطوف ثم يأوى إليها ، ويؤنسه فيها أصدقائه ومحبيه ، وفي طوافه تعرف على عمدة (بدوى) الشيخ أحمد أبو سعدة وكان من ثروة الريف ؛ يملك حوالى ألف فدان في مركز فارسكور دقهلية ؛ وكان من ذوى النفوذ الضخم ، معروف بالبطش والشكيمة . أعجب به لحسن حديثه وطلاوة مسامراته ، فدعاه للإقامة عنده لتدريس أولاده القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الدينية . وقد أفادته هذه الإقامة معرفة الحياة الحقيقية في الريف ، واستبداد الإقطاعيين بعمالهم من الفلاحين الكادحين ، وانطبع في ذاكرته الطرائف من الملاحظات ، فقد جلس إلى الإقطاعى الواسع الثراء ولاحظ مع ثرائه شدة تقثيره على الفلاحين التمساء ، فتكشفت له الجريمة الكبرى التى ارتكبها الاستبداد والاقطاع بين ألوف الفلاحين . ثم مالبت أن تختلف مع العمدة آخر العام ، حين طالبه بأجر تعليم أبنائه ، فرفض أن يعطيه حقه ، وأراد أن يكون عمله نظير إطعامه كبقية أتباعه ؟؟ فلم يقبل النديم أن يكون مسخراً ، فتشاحنا وتبادلا الشتائم ، فكبر على الاقطاعى الكبير ان يتناول عليه النديم فسلط عليه خدمه ليحرقوا داره وينالوه بالاذى . ولما عرف بما دبر له ، فرهاربا من القرية ليلا غير كريم ، وهكذا يتم الفصل الثانى من الصراع بين النديم المعلم وأحد كبار الاقطاعيين .

وتناقل الناس في المنصورة أخباره ، وقدراته في قرص الشعر والرجل ،

- ٤٤ -

حينما هجا الشيخ أبى سعدة بقصيدة مشهوره ، سُخِذت سنان موهبته ، وذاعت
فى أرجاء الريف . فاستدعاه السيد محمود الغرقاوى من أعيان المنصورة - وكان
من عشاق الادب - واستضافه وأكرمته ، ثم فتح له متجرأ للخردوات
ليمارس فيه الاعمال التجارية ويعيش منها ، ولكن كيف ينتظم النديم فى حرفة
التجارة وهو لا يجد استعدادا طبيعياً فى نفسه لهذا العمل ؟ فأهمل وتراخى
وانشغل بالادب والادباء حتى أفلس

وعاد يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفاً على عشاق الادب ، وينهد على أعيان
القطر ووجهائه فيكرمون وفادته ، ويهشون لمقدمة ، لما رزقه الله من حلوة
اللسان ، وخفة الروح وسرعة الخاطر وحسن المئادة .

وذاع صيته بين محبى الادب ، يتحدثون لمعجز رسائله ومحركاته نظماً
ونثراً ، ويتباهون بحفظها وإلقائها فى الأندية والمجتمعات حتى وصل خبره
إلى شاهين باشا كنج عام ١٢٩٣ هـ بطنطا .

وكان شاهين باشا مفتشاً عاماً للوجه البحرى والحاكم بأمره فيه ، له
ذوق أديب وإحساس شاعر ، فكان يستضيف الادباء ليأنس بمطارحاتهم
الادبية ، ويطرب بمساجلاتهم الشعرية .

ويحدثنا أحمد باشا تيمور كيف اتصل النديم بشاهين باشا فيقول :

كان بين شاهين باشا والشيخ أحمد الجندى أحد العلماء بالمسجد الاحمدى
صحبة وتزاور ، وكان الشيخ يستظرف غلاماً حلاقاً مليح الشكل ، حسن
الصوت فأمره أن يغنى بحضرة الباشا ، فغنى بقول النديم :

سلوه عن الارواح فى ملاعبة وكفوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره وولوا إذا دبت إليكم عقاربهم

ولا تذكروا الأشباح بالله عنده فلو اتلف الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعيني والدموغ تكاتبه ويسجب عني والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدنى الحبيب لصبيه سوى زفرة تثنى الحشى وتجاذبه
وكان كثيرا ما يتغنى بها ، فطرب الباشا طربا شديدا ، واستظرف قائل
الآيات وتمنى رؤيته ، فأرسلوا له بالحضور ، فلما حضر إلى طنطا وواجهه ،
استقبح صوته ، إلا أنه أعجب بظرفه وأدبه ، ومال إليه ، فأتخذه نديما
لا يمل ورفيقا حيث حل .

وأصبح مجلس شاهين باشا بعد أن انضم إليه النديم ، كعبة يجمع إليها
المثقفون وعشاق الأدب ، وصار للنديم فيه ليال مشهورة حضرها أفاضل
الشعراء وكبار منشىء العصر وزجاليه ، فناظرهم - على مسمع من شاهين
باشا ورواد مجلسه - فى أساليب البديع المنوعة وطارحهم النوادر والملح ،
وناشدهم فنون النظم والنثر فظفر بهم جميعا .

وفى مجلس شاهين باشا تعرف النديم على التونجى بك ، وكان من الحاشية
الخدوية ، ذا غنى ويسار ، فأعجب به وعينه وكلا لدائرته . .
ولم إلى هذا العهد كان يعتبر النديم من أئمة الزجالين فى مصر .

* * *

على هامش الكفاح

وقد هيا له العمل فى دائرة التتوينجى بك فرصة التردد على القاهرة لمقابلة
موكله هناك ، وأمنت صلته بشاهين باشا صاحب النفوذ لدى الخديوى اسماعيل ،
خوفه من خليل أغا أن يلحقه بأذى ، وردت هذه الوظيفة إليه روحه المعنوية
وأعادت إليه شعوره بكرامة الموظف الذى يكسب قوته بعمله ، وما أن عاد

إلى القاهرة حتى عاوده الحنين إلى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى بقهوة متاتيا . . . ولكن الحديث فى الندوة قد تغير ، كان الحديث فى ندوة الأفغانى فى أول الأمر عن الإصلاح الدينى واعتباره الطريق للإصلاح السياسى والاجتماعى ولكنه فى هذه المرة كان يتحدث بصراحة حديثا عنيفا عن الظلم الاجتماعى الذى تنوء به أعناق المصريين ، واستعبادهم منذ القرون الطويلة من السنين ، من عهد الفرس حتى الأتراك . وعن مظالم اسماعيل والتدخل الأجنبى ، ويدعو إلى حرية الرأى والقلم والحكم الديمقراطى السليم ، ويقارن بين الحكومات الغربية وتحررها والحكومات الشرقية واستبدادها ، ويدعو إلى التكتل الشعبى وتكوين الرأى العام وتنظيمه ، وكانت هذه الأسماء أو المصطلحات شيئا جديدا يرد على الأسماع ، لم يعرف المصريون عنه شيئا من قبل ، فقد كانوا - لا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبيده فى إدارة بلاده . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون ، مصر فون فيما تكلفهم به وتعزبه عليهم .

عاد فوجد أستاذه الكبير لا يقصر حديثه على الخاصة ، بل يقرب إليه العامة ، ليتسكن فيهم رأى قوى وجهة وطنية شعبية . كانوا يرتادون مجلسه فيتنبهون من حديثه سوء حال أمتهم ، ويتفهمون مواضع بؤسهم ، ويتبصرون بأسباب الفقر والذلة ، ويصممون على أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وأن يتحرروا من العبودية للحاكم ، ويفهموا موقفهم منه وموقفه منهم ، وكان ينفث فيهم الشجاعة كيلا يخافوا بأسه ، فليست قوته إلا بهم ، ولا غناه إلا منهم .

ويتطلع النديم إلى وجوه زملائه من رواد المجلس فيجدها قد تغيرت . لقد ماتت عليها الابتسامات وارتسم عليها التحفز والعمل ، يتناولون بأعناقهم

إلى ما يقوله شيخهم ، مشربين إليه ، يجهرون بالشكوى مما آلت إليه البلاد
ويظهرون الخوف على الوطن أن طال حكم إسماعيل ، فيفكر فريق منهم
في خلعه وفريق يدبر قتله .

ولا يلبث النديم أن ينتظم في عقدهم مرة أخرى ، فيصيده ما أصابهم ،
وتمس كلمات الإمام قلبه ، وكأنها جمرات تكوى بها عواطفه فتشتعل ، أو
سياط نمزق ثياب الغفلة عنه ، وغشاوة الظلمة من حوله فيفيق ويجد في نفسه
كما يجد زملاؤه في نفوسهم ، بعد سماع خطب الأفغانى وحديثه أن الواحد
منهم جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة^(١) ، وانضم النديم إلى المحفل
الماسونى الذى أنشأه أستاذه ، وحين نظمت شعبه ، كان نصيبه في هذا
التنظيم ، أن يتخذ الإسكندرية مقراً لدعايته ونشاطه ، ويبصر الناس بمبادئ
حزب الإصلاح .

نشاطه فى الإسكندرية

حينما بعثه حزب الإصلاح (أنصار جمال الدين الأفغانى) إلى الإسكندرية
سنة ١٨٧٩ ، رأى الناس لا يشتغلون بما كانوا يشتغلون به أمس من الأسفار
المسلية وأشعار أبو النواس والبحترى وهجاء أبى الرومى ومديح إسماعيل ،
وفسكاهات الشيخ على اللبثى ، إلى غير ذلك من الفسكاهات المضحكة
والأحاديث الفارغة ، يقضون بها أوقات فراغهم - نعم هاله أن رأى المدينة
وقد انتشحت أحاديث الجماعات بها بثوب الجدد والرصانة ، فهى يومئذ تتحدث
فى أمور خطيرة ، تتصل بمستقبل البلاد ومصيرها وأعمال الحكام ومصالح

(١) المنار ٨ - ص ٧١٠

الأهالى ، وتردد الألسنة آنذاك كلمات جديدة منها صندوق الدين ، وتدخل الدول الاجنبية والشورى والظلم والاستعباد والاستقلال والحرية والجهل والعوز ونحو ذلك ، فانضم لجمعية سياسية تدعى « مصر الفتاة » لى ينشر عن طريقها مبادئ حزب الإصلاح ، واستهدف الشباب المصرى من هذه الجمعية « القضاء على دكتاتورية اسماعيل واستبداده والعمل على خلعه أو قتله أو المطالبة بالحكم بالشورى والدعوى إلى الإصلاح العام » وكانت منشورات الجمعية ودعوتها تلقى الرعب فى قلب اسماعيل ، فأخذ جواسيسه يترصدون أعضائها فى كل مكان ، محاولين كشف أمرهم لينزلوا بهم بطش إسماعيل ١١١

وتوثقت الصلات بينه وبين صحبه ثائرة تتطلع إلى نوع من الادب غير الذى كان ، وتجد غذاءها فى الصحف السياسية والمقالات الثورية والنقدية ، وكان يشغل فى صحافة من هذا النوع أديب اسحق وسليم نقاش ، فأصدروا بجريدة مصر وجريدة التجارة ، التى كان يمدّها جمال الدين الافغانى وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم ، وانغمس فى نفوس التيار عبد الله النديم ، وحول قلبه إلى هذا الاتجاه لأول مرة فى حياته ، فلقبت مقالاته النجاح والشهرة ، مالقت إليه الانظار .

وأخذ يدعو إلى إنشاء الجمعيات التى تسعى فى السبيل النفع العام ، فى ضلّ البلاد وعرضها ، وحتى ينتزع الخوف من القلوب ، أعلن أن أهدافها هو النشاط الثقافى والاجتماعى ، وبدأ هو بإنشاء أول جمعية بالاسكندرية وهى الجمعية الخيرية الإسلامية فى ١٨/٤/١٨١٩ ، وجعل من أهدافها فتح المدارس الأهلية للبنين والبنات لجميع أبناء الشعب ، ومجاناً للمقراء ، وبمصاريف قليلة للقادرين . وكان النديم نائب رئيسها ؛ وترك لمنصب الرئيس شاغراً ليتولاه محافظ الشجر

مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية : أنشأتها الجمعية المذكورة

وتولى نظارتها عبد الله النديم . وتعتبر أولى مدارسها . اهتمت هذه المدرسة بالتعليم على أساس منهج قومي فريد في عصره (سنأتى بشرحه في فصل أثر النديم في التعليم) وتشجيع الطلاب على الخطابة ، وتعويدهم التعبير عن آرائهم في جو استحكم فيه الخوف ، وانعقدت ألسنة الناس من شدة بأس الحاكمين ، وقد انتشر طلبه هذه المدرسة في المحافل والمجتمعات يخطبون في كل مكان في معاني الوطنية والحرية وحب العلم والعدالة الاجتماعية ، ثم أعلن النديم عن إقامة ندوة أسبوعية بالمدرسة . وأباح الحضور فيها للجميع ، يتحدث فيها الخطباء في الدين والسياسة والثقافة بحرية تامة ، لنشر الوعي القومي بين الجماهير ، وافتتح أول ندوة في ١٧٧٩/٧/٢٢ ، فأحدثت هذه الحركة دويماً فكرياً في الإسكندرية ، وتحدث النديم في هذه الندوات بصفة خاصة عن فضل الجمعيات والمحافل الخطابية ، والصحافة وكيف تخلق الشعور الوطني وتنبه الرأي العام ، واشترك معه تلاميذه في الحديث ، وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة في صفحاتها الأولى ، وخلعت عليه كثيراً من الألعاب فدعته « خطيب الشرق » ، « خادم الإنسانية » ، « محي الوطنية » وسمى محله « سوق عكاظ » تارة و « معرض باريس للآداب » تارة أخرى وأصبحت الإسكندرية ولا حديث لها إلا خطب النديم ومحافاه ، وانضم إلى الجمعية كثير من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية .

وأكثر النديم من الحفلات المدرسية ، وقام فريق التمثيل بالمدرسة بتقديم المسرحيات القومية والوطنية ، وقد نجحت المدرسة نجاحاً كبيراً في تقديم مسرحية (الوطن وطالع التوفيق) على مسرح زينب بالإسكندرية ، في حضور الخديو وكبار رجال الدولة . وأعجب جمهور المشاهدين بتمثيل

الطلبة لاسيما وقد نهبت المسرحية الأفكار وفتحت الأنظار لنقد العيوب الاجتماعية والسياسية .

أما رياض باشا رئيس مجلس الوزراء في ذلك الحين ، لما أحس بخطور النديم وأفكاره المناوئة لأسلوب حكمه ، فلم يلجأ إلى النفي والسجن كما هي عادته لردع خصومه وناقديه ، بعد أن كسرت شوكة طغيانه وخفقت من استبداده حركة الجيش المعروفة « بحادث قصر النيل » التي قامت في فبراير سنة ١٨٨١ ، أثرا اعتقال ثلاثة من كبار ضباطه المصريين : أحمد عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي لاجترائهم على تقديم مذكرة تطالب بإصلاح الجيش والحد من طغيان عثمان رفقي وزير الحرية الشركسي " . . . وأجبر الجيش رياضاً على إقالة عثمان رفقي وتعيين محمود سامي البارودي ، وفقدت الحكومة هيبتها حين فقدت السيطرة على الجيش ، ومن ثم لجأ إلى أسلوب المؤامرات في محاربة معارضيه وأعدائه .

وفي ذلك يقول النديم :

« قد أوجس رياض خيفة مني ، بما بلغه من أحد الذوات عني . فعزم على فض الجمعية وتشتيت العصية ، ووسوس إلى بعض الذوات من الأعضاء وجعلهم لي أعداء ، يعارضونني في كل موضوع ويتظاهرون بغير المشروع ، لأضيق برجال أنسى ، وأترك الجمعية بنفسى » .

وحين ظهرت رائحة الخلاف ، وعلم الناس أن رياض باشا سيط على النديم أعوانه ليخرجوه من الجمعية ، تشيعوا للنديم ، وبدأت موجة من التحمس تحتاج المركز الرئيسى للجمعية ، وتبارى الخطباء في مدحه والثناء عليه ، ونظموا القصائد في تكريمه ، وأطلقوا عليه اسم « مؤسس الجمعيات » و « رائد الدعوة إلى الإصلاح بالتعليم والتعاون والاتحاد » : ثم استقال

النديم بعد ذلك من الجمعية بعد أن ضيق عليه الخناق ، خصومه من أنصار رياض .

مجلة التنكيك والتبكيك :

قبل أن يستفحل الخلاف بين النديم ورياض ، أدرك بجبرته أن رياض لن يدعه يمضى فى طريقه الإصلاحى ، ولن يبق على نشاطه فى الجمعية ، إذا ما تعرض فى محافلها الخطائية لنظام الحكم أو انتقاد ما تئن منه البلاد من استبداد ، وتعسف وخضوع لقنصل انجلترا وفرنسا اللذين استنزفاد البلاد لسياستهما المالية ، وما أن أحس بوادى العاصفة تهب عليه وعلى جمعيته حتى عزم على إصدار مجلة تحمل إلى الناس رسالته وتصله بجمهورية إذا ما منع من الخطابة سماها « التنكيك والتبكيك » .

وصدر أول عدد منها فى ١٨٨١/٦/٦ تحمل اسم « التنكيك والتبكيك » وخرجت إلى عالم الصحافة العربية بطابع جديد غير مسبق ، فقد أرادها النديم أن تكون صحيفته إلى الخاصة والعامة من أبناء الأمة) وسوف نتحدث عنها بإفاضة فى الفصل الخاص (بأثر النديم فى الصحافة) .

ثم أخذ النديم يطوف بالبلاد ويرتق منابر المساجد ويجلس إلى الفلاحين فى مجتمعاتهم يبذر فى نفوسهم بذور الثورة ويشغل ناراها فى قلوبهم ، ويحدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزقنى والمنصورة وميت نصر عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام ، يرفلون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمرافق والغايات والمخنيات ، ويتفقون الأموال عن اليمن وعن الشمال ، وماهى فى الحقيقة إلا أموالهم هم ، أموال الفلاحين البؤساء ، ودعا فى هذه الخطب إلى الوحدة القومية بين الأقباط والمسلمين ، ونقد المساوىء الاجتماعية والتذكير بمجد مصر السابق والثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية .

وقد اتصل به رجال الثورة العراقية آنذاك ، وسار على فهمى إلى ميت
غمر ، حيث كان النديم يواصل جولاته في البلاد ، وأخبره بما حدث بينه
وبين رياض ثم عرض عليه أن يدعو علانية لحركة الجيش بقلبه ولسانه ،
وبسط له الخطة الكاملة التي يخطط لها الجيش لتصل البلاد إلى ما تريده من حرية
ومساواة بين المصريين والأتراك ، ومن حكومة دستورية تظلمها الشورى ،
تخلص الأمة من الطغيان والنفوذ الأجنبي . ولأقت الخطة استجابة كاملة
وتأييدا تاماً من النديم ، وبدأ يعلن على الأشهاد - انضمامه إلى منظمة
الجيش ، وينادى فى الناس بالاجتماع حولها حتى تخلصهم من حياة العبودية
والظلام ، وبما قاله :

«وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم ، وناديت بانضمام الجوع
لإيهم ، وأوغلت فى البلاد ، وزدت بالاستبداد ، وتوسعت فى الكلام ،
وبينت مقابل الحكام الظلام ، لأعرفهم إلا بالجهلة الأسافل ، ولا أبالى
بهم وهم ملء المحافل ، (١) » .

ولم يلبث النديم حتى سافر إلى القاهرة ليلقى قائد حركة الجيش ، وأحمد عرابى
الذى أحله منزلة قريبة من نفسه ، وأصبح من أنصاره ، واتخذته مستشارا
يستشير برأيه فى كثير من الأمور ، وقويت الحركة الوطنية بانضمامه إليها .

ثم أشار عليه أحمد عرابى لتغيير اسم المجلة فغيره ، وسماها « الطائف »
وظهر أول عدد منها فى ٢٠/١١/١٨٨١ ، وأصبحت الطائف جريدة الثورة
ولسان مجلس النواب وأكبر وأقوى الجرائد فى عهدها ، وأصبحت الصحف
تنقل عنها ما تكتبه حتى « الوقائع المصرية » . ثم انتقل بها إلى ميدان القتال
لتحريض الجنود وإشعال حماسهم .

وانتهت الثورة العرابية بالهزيمة المعروفة ، ووقعت البلاد بأسرها في محنة عظيمة ، وحين أيقن العرابيون من هزيمتهم بعثوا بعريضة مع وفد منهم إلى الخديو بالإسكندرية يتوسلون بها إلى عفوه ، ثم أشار النديم إلى تعديلها بما لا يتنافى مع الكرامة الوطنية فبعثوا بعريضة أخرى بعدها ، وأوفدوا بها عبد الله النديم فلما وصل إلى كفر الدوار ، نمت إليه أنباء العريضة الأولى من رفض الخديو لها وقبضه على مقدميها ، فقفل راجعاً في نفس القطار إلى القاهرة فوصلها في الرابعة من صباح ١٤/٩/١٨٨٢

لقد ظل النديم يؤدي واجبه نحو أمته ونحو الحركة الوطنية التي قامت لتخلص الشعب من الاستعباد حتى آخر لحظة من لحظات الخطر ، وهنا لم ينسكركم في الأشخاص كما فعل غيره ليحفظوا أرواحهم ، وإنما فكر في الأمة وفي مستقبلها وفي جهادها الذي قامت به على هذا الطريق ، فلم يوافق أعضاء المجلس على الاستجداء والإقرار بأن ما قامت به الأمة وما قام به عرابي وهو قائدها كان ذنباً وعصياناً .

الشاعر الهارب

سلمت القاهرة في ١٥/٩/١٨٨٢ ودخلها القائد الانجليزي ومعه نائب الخديو سلطان باشا الذي أصبح صاحب الحول والطول في العاصمة ، وقبض على جميع زعماء الحركة الوطنية حتى الذين فروا إلى الخارج ما عدا عبد الله النديم ، وجندت الحكومة كل قواتها للقبض عليه وبثت الجواسيس والارصاد في كل مكان ، وحين ذهبت جهودها هباء ، أعلنت عن مكافأة قدرها ألفانم الجنيهات لمن يقبض على النديم حياً أو ميتاً ، وقررت عقوبة الإعدام لمن يخفيه أو يعلم بمكانه ولا يخبر عنه ، ونشر ذلك في الوقائع المصرية تباعاً ، وفي جميع الصحف وفي منشورات وزعت على المديرين وعمد البلاد .

كان النديم يعرف حق المعرفة أنه العدو اللدود للخديو ولقوة الاحتلال ولسلطان باشا ورياض باشا ولسلطان نفسه ، وأن هؤلاء جميعاً سوف يجتمعون على الانتقام منه وتلفيق التهم التي تودى به ، جزاء هجومه عليهم وسيكون أفظع إنتقام .. ولذلك قرر الحرب وكانت قصة هربه وتنكره قصة بطولة وثقة بالنفس وإعمال حيلة وتدير خطة ، بل مغامرات أشبه بالقصص البوليسية ، استمرت تسع سنوات ظل فيها محتفياً والبوليس يجد في أثره ، وكانت قصص الذين آووه وأخفوا أمره ، تفيض برموز التضحية في سبيل الوطن .

فبعد أن عاد النديم من كفر الدوار د قرب فجر ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ذهب إلى منزله بحي العشماوى ، ثم اصطحب خادمه حسين أحمد ووالده مصباح وركبوا عربة د حنطور ، إلى ساحل بولاق ليودع أباه ، الذي استقل

مركباً إلى الاسكندرية هرباً من الاضطهاد ، وكر النديم راجعاً هو وخادمه إلى دار صديق له يسمى الشيخ مصطفى بيولاف وظل مختفياً بها عشرة أيام حتى طالت لحيته وشعره ، ثم غير زيه من الملابس الأفرنجية فلبس ثوباً من الصوف الأحمر الخشن المسمى « بالزعبوط » واعتم بعمامة حمراء ، شأن مشايخ الطرق الصوفية الرفاعية ، وغطى عينيه بمنديل وأعفى شاربه وأطلق لحيته ، وخرج ليلاً يتوكأ على عكاز طويل يأخذ بيده خادمه قاصداً ساحل بولاق ، حيث وجد مركباً شراعياً مقلعة إلى بنها ، فاستضافه ملاحوها تبركا به ، فركبها هو وخادمه ، وقبل أن تصل المركب إلى بنها علم الراكب أن الكوبرى بها مغلق على غير العادة . وفكر النديم في الأمر فهداه إحساسه الداخلى أن إغلاقه في غير مواعده ، إنما قصد به حجز المراكب حتى يتسنى لرجال البوليس تفتيشها فأخذ يتمم بالمسبحة ويذكر الله يصوت مرتفع زيادة للتنكر ، ونزل رجال البوليس إلى السفينة وفتشوها وسألوا ملاحيها عن (النديم) فقد رآه شاهين فؤاد المفتش بالمصرف العقارى ومن ممالك عباس باشا منذ عشرة أيام متجهاً إلى ساحل بولاق ليستقل منه مركباً ، فنفوا عليهم به أو رؤيتهم له ، ولم يتعرفوا عليه وهو على بعد خطوات منهم ! وبعد انصرافهم انتقل إلى سفينة أخرى ترسو إلى الجانب الآخر من الكوبرى متجهاً إلى دمياط .

وفي طريقه علم من الصحف أن حامية « دمياط » سلمت فنزل إلى « ميت النصارى » وفي الصباح ركب مركباً آخر إلى المنصورة ومكث مع خادمه في مسجدائها ثلاثة أيام ، يستضيفهما الناس ويرسلون إليهما الطعام تبركاً بشيخ الطرق الصوفى ، ثم واصل السفر براً حتى وصلا منية الغرقا (بمركز سمنود - على الشاطئ الغربى لفرع دمياط) ولم يكن ينوى الإقامة طويلاً إلا ريثما يستعد لمواصلة خطته للهرب إلى الشام ثم إلى أوروبا ، ونزل عند صديق له « عالم أزهري » ذى مكانة في القرية ، فأواه وخبأه وكان

بالقرية أحد مشايخ الطريقة الصوفية الصاوية يسمى الشيخ شحاته القصبى ، وكان ذا نفوذ واسع فى هذه المنطقة ، وكان النديم قد أخذ عليه أيام طوافه بالبلاد عهداً وأصبح من مريديه ، فأرسل إليه يخبره بمخبئه وعزمه على الهرب إلى الشام ولكن الشيخ منعه من مبارحة البلاد ، وأمره بالتستر ، وكون الشيخ مع الصديق الأزهرى جهازاً لحمايه النديم والإشراف على إخفاء أمره عن الحكومة . وقد مكث النديم فى منزل صديقه الأزهرى زهاء أربعة أشهر ، ولقد ضاق خادمه بالاختفاء ووسائله ، وحن إلى أهله فأخذ يبكى ويطلب العودة إليهم ، وفى هذا خطر كبير على النديم ، إذ لو سمح له بأن يذهب إلى أهله ، فلن يضمن أن لا يتصل بالبوليس ويكتشف أمره ، وإن أبقاه على هذا الحال فضحه بيكانه ، فتصنع اقتناعه بطلبه ، وطمأنه ووعدته بالعودة ، واستعمل النديم ذكاه وحيلته ، فاشتري الجريدة الرسمية وأخذ يقرأ بصوت مرتفع ، ثم تصنع الفزع وضرب كفاً بكف ، وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم » ، ولما سأله الخادم عما أفرغه قال له : لقد جاء بالجريدة خبر خطير جداً ، وهو أن الحكومة جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه ولن يأتيا برأسك خمسة آلاف ، تخاف الخادم وأخذ يبالغ فى التنكر أكثر من سيده ، وقد غير له اسمه وسماه صالحاً حتى يتم تنكره فاستراح من تلك الناحية ولازمه الخادم طوال مدة الاختفاء .

كانت فترة الاختفاء الأولى من أقسى الأيام التى مرت بالنديم ، فهو لم يتعود الحياة فى السكون والظلام والوحدة ، وهو الحركة الدائبة والشعلة المتقدة وزاد من ضيقه أنه كان يقيم هو وخادمه فى حجرة مظلمة يتساوى فيها الليل والنهار ، ويصل إليها الضوء من سرداب طويل شديد الظلمة ، وكانت أرضها ترشح بالماء لانخفاضها وقربها من خليخ يمر بالقرب من البلدة .

وكان لا يتمكن فيها من الكتابة أو القراءة إلا على ضوء مصباح صغير

يضاء بالكبروسين الكثير الدخان ، وقد شغل وقته بتعليم خادمه القراءة والكتابة ، وعلمة ما يلزم لمثله من أنواع المعارف ، مكافأة له على ملازمته إياه وخدمته له .

وفي ذات يوم جاءه في مخبئه الشيخ محمد الهشري عمدة (العتوة القبلية وهي إحدى قرى مديرية الغربية) - بخطاب من الشيخ القصبي - لأنه أحد أتباعه - يقول فيه للنديم : قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتبك إذنى ، وأطاع النديم وخرج مع الرسول ، ولما خرج ليرى النور لم يستطيع الأبصار ، لطول ما أمضى من وقت (أربعة أشهر) في ظلمة حالكة ، ولم يمض على مغادرته مخبئه في منزل الشيخ الأزهرى بضع ساعات ، حتى اقتحم رجال الشرطة الدار ، وقتلوه ودخلوا هذه الحجرة المظلمة ، ولكن العصفور كان قد طار ... ١١٩

ومكث النديم ضعيفاً على الشيخ محمد الهشري مدة كبيرة تبلغ عدة سنوات ورغم أن بيت العمدة كان يقيم به حين ذاك أكثر من أربعين شخصاً ، فلم يكن يعلم عنه أحد شيئاً ، سوى أنه رجل من أشرف جروان ، يقيم بالبيت ليعلم بعض العلوم الشرعية ، ولم يكن يخرج من الحجرة المخصصة له ، بدعوى أنه من المتصوفين الذين يؤثرون العزلة وقد نعم بمنزل العمدة بنوع ما من الاستقرار ، لأن مضيعة رجل من رجال الحكومة ولا يتطرق الشك إليه لأنه هو نفسه مكلف بالبحث عنه ١١ وقد تسلم النديم بسلاح القراءة والتأليف لقتل رقاب الفراغ والوحدة .

ولنتجول خارج عالم النديم بعيداً عن مخبئه ، لنسمع ما يدور بشأنه من أحاديث وإشاعات ، فقد أصبح أسطورة من الأساطير ، فالحكومة بقواتها ورجالها لم تستطع القبض عليه ، فأطلق رجالها الإشاعات يبررون عجزهم ، بهربه إلى الخارج وحينئذ آخر يشاع عن القبض عليه وإيداعه في سجن دمنهور ثم قتله جزاء ثورته على الخديو .

أما جمهور الأهلين فقد نسجوا حوله القصص ، وأصبح في نظرهم بطلا من أبطال المغامرات ، بل جعله خيالهم قادرا على كل شيء كالأولياء وأصحاب الكشف ... ؟ ألم تعجز الحكومتان المصريه والإنجليزية عن القبض عليه ، لقد صارت القصص المنسوجة حول اختفائه حديث المجالس يسمرون بها ، في الندوات والمقاهى والاجتماعات المختلفة وبما جاء في بعض هذه ، أنه هرب مع العرب وخرج إلى الصحراء العربية ومنها إلى المغرب الأقصى حيث يعيش هناك ، وآخرون قالوا أنه مات شهيداً الوطنية في معركة التل الكبير ومنهم من قال إنه لاجئ في بيت أحد قناصل الدول الأجنبية .

ثم قصة أخرى تدعى أنه كان مختفياً في بيت رياض باشاوزير الداخلية نفسه الذى أصدر أمرا بالقبض عليه ، وقد سهل له طريق الفرار بعد ذلك . وأعجب قصة يرويها النديم نفسه ، أن رجلا دخل المضيقة في منزل صديقه الهمشري ، وقال أن عبد الله النديم عند السلطان الآن ، ولما سئل كيف تم ذلك ؟ قال :

د إنه توجه من دمياط إلى الشام بمراكب البرتقال ، ثم سافر من يافا إلى استانبول ، فلما صار فيها ، صعد إلى مئذنة بالقرب من سراى السلطان بين العصر والمغرب ونادى بالآذان ، فلما سمعه السلطان استحضره وسأله عن هذا الآذان ، فقال له : أنا أذنت لسمع مولانا السلطان ويدعونى إليه ، عبد كم عبد الله النديم المصرى ، فقام السلطان وأخذه بالحنن وقال له :

الحمد لله على سلامتك يا ابنى ، ما أصل حكايتكم ؟ وكيف انكسرت العساكر المصرية ، فقص عليه الخبر من أوله لآخره ، ففرح السلطان به وأكرمه ، وأمر أن يلحق بوظيفة كبيرة ، فلم يقبل الخدمة وقال :

أنا أحب أن السلطان يبعث معى عساكر مصر ومراكب لتخلص لنا البلاد من أيدي الإنجليز .

وكانت أحبار الجواسيس المنتشرين في طول البلاد وعرضها ، للبحث عنه تقض مضجعه، وتجعله في قلق دائم، متوتر الأعصاب ، مهددأ في كل لحظة بالقبض عليه ، لذلك كلف أنصاره بإطلاق إشاعة هربة من البلاد ، وبالفعل أطلق صديق أجنبي من أصدقائه (سيرته فيما بعد) إشاعة هربة إلى ليفورنو بإيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، ونشرت الخبر جريدة الأهرام ، وانتقدت رجال الأمن إعمالهم وعدم إحكام رقابتهم على التأثير الهارب ، حتى تمكن من الإفلات من قبضه الحكومة ، وبلغ الأمر كبار رجال وزارة الداخلية ، فقرروا إرسال مندوب خاص إلى ليفورنو للقبض عليه ، فذهب وعاد بخفي حنين ، ثم أرسلت الحكومة من يبحث عنه في الشام ، وزعم آخرون أنه فر إلى طرابلس الغرب ، وقال آخرون أنه عقب هروبه ، سارع بالسفر إلى سيلان للاجتماع بعرايى ، وقالت إحدى الجرائد السيارة أن النديم ذهب في الأيام الأخيرة إلى باريس ونشر فيها مقالات عن الثورة العراقية وأسباب إخفاقها ، وقدد بالمصريين ونسب إليهم الضعف والجهن والاستسلام لقوات الاحتلال ،

كان من نتيجة هذه الإشاعات أن خف البحث عنه نوعاً ، وصدقت الحكومة أنه هرب من البلاد ، وكان صديقه الأجنبي آنف الذكر يملك عزبة قرب « العتوة القباية » وهو المسيوفيلكى ، لم يهاجر إلى بلاده مع من هاجر إلى الخارج من الأوربيين ، بل ظل يرقب الأحداث ويكتب عنها شاهد عيان ، وقد انقطعت صلاته بهذا الصديق منذ هربه بعد هزيمة الثورة العراقية ، ورغب في أن يتصل به ، ففكر بأن يبعث له رسالة يدعوه فيها (لزيارته ، حتى يستعين برأيه في بعض ما يصادفه من مشكلات ، ويطلب منه بعض المؤلفات يعالج بها الفراغ القاتل الذى يعانىه ، واختار لذلك الشيخ محمد الهمشرى الذى ارتاع من هول هذه المغامرة ، التى ستجر الأنظار إليه ،

وفيهما ما يتهدد مصيره هو أيضاً ، وكيف يأتمن سر حياته شخصاً أجنبياً وهو لم يفشه إلى أقرب المقرين إليه ؟ .

ولكن النديم شجعه وطمأنه ، وبعد جدال دام ساعتين ، قبل الشيخ الهمشري أن يحمل رسالة إلى الأجنبي صاحب الضيعة ، وأن يخبره بمكان النديم ، وذهب العمدة حاملاً الرسالة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يدفعه الأمل في وفاء الأجنبي وتؤخره وساوس نفسه من أنه حامل حكم لإعدامه ، وأعياء التفكير على أول حدود الضيعة وتنازعتة أمور كثيرة ، وهم أن يعود راجعاً على أعقابهم ، لولا بضع من جرة جعله يستمر في السير ، حتى وصل إلى بيت الخواجة ، ولما دخل وجد عنده بعض الأجانب وثلاثة من مشايخ البلاد المجاورة ، وبعد التحية قدم له الرسالة فقرأها الفرنسي وهو منزعج غاضب ، ولما فرغ من قراءتها ، أعطاها لزوجته فقرأتها بدورها وأعادتها إليه ، فما كان منه إلا أن مزقها لرباً ورعى بها ، وقد وجف قلب العمدة لما رآه ، وأخذ يدق قلبه دقات الاضطراب والخوف وينتظر كلمات الموت أو الحياة من بين شفقي الخواجة ، وأخيراً ظن أن ما تخوفه قد تحقق فقد نظر إليه شرراً وقال بدهجة عنيفة : (قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ لتصرف فيه لزيد أو عبيد ، ثم تعتذر بالضرورات ، فأحفظ لي حتى عندك حتى آتيك وتناسب ، وإياك أن تمد يدك إلى بنك أو خواجة غيري ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت في شرك المحاكم ، وحكمت عليك بما لا ترضاه) ثم انصرف يتحدث مع ضيوفه الأجانب ، وظن العمدة أنه سيخبرهم عن النديم ، فامتلاً قلبه خوفاً ، وانحنى باللائمة على نفسه ، لإقدامه على مثل هذا العمل ، وأخرجه من تفكيره صوت الخواجة يقول له : « تفضل أنت وقل له ما سمعت » ،

وخرج العمدة وهو لا يكاد يرى الطريق مما يدور في ذهنه ، وما يعتمل

في نفسه من اضطراب ، وسار مهموماً مكروباً تدور به الدنيا ، لا يفهم من الموقف إلا أن الخواجة غاضب وأن السر قد ذاع وأنه لم يحفظ الأمانة التي أودعها إياه شيخه شحاته القصبي ، وحينما عاد العمدة إلى النديم لم يجده بأسعد حال منه إذ أنه كان يفكر أيضاً في الأمر ، وفيما إذا كان العمدة سيخفق في مهمته أو ينجح ، ولما قص عليه ما حدث سرى عنه ، ولم تحب فراسته في الصديق القديم ، وأوضح للعمدة أن الخواجة التزم هذه المهجة معه في حديثه ، ليصرف أفكار الحاضرين .

وحدث ما لم يكن في الحسبان ، فبينما النديم والعمدة ينتظران ما تحبته لهما الظروف على يدى الخواجة ، جاء مأمور المركز ونزل بمضيئة العمدة ، وسرت الهواجس من جديد في قلب العمدة ، ولعبت به المخاوف ، فلعل الخواجة اتصل به وأخبره بمقر النديم ، وقد جاء للقبض عليهما معاً ، وخرج إليه العمدة ورجلاه لا تكادان تحملاه ، وبين لحظة وأخرى كان ينتظر أن يفتحه المأمور في الأمر أو يصدر أمراً بتفتيش المنزل ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ولم يشر إليه من قريب أو بعيد ، وأخذ الاطمئنان يعاود قلب العمدة قليلاً قليلاً ، إلا أن مفاجأة جديدة حدثت ! ! أضافت إلى الموقف رهبة جديدة ، فقد ظهر على باب المضيئة رجل في هيئة مشايخ القبائل ، يلبس جبة وقطناً وعمامة ومتلفعاً بحرام أبيض ، وما أن رأى المأمور حتى عاد أدراجه ودخل قاعة أخرى ، وذهب العمدة ليرى الزائر الغريب ولشد ما كانت دهشته عندما وجده الخواجة ، فانتابه شعور غريب هو شعور الفرح بصدق الخواجة وكتبانه سره ، وشعور الخوف من أن يرتاب المأمور في الزائر فيسعى إلى معرفة الخبر ، وعاد العمدة إلى المأمور فلم يجد لديه أثراً للشك أو الريبة ، فقاد الخواجة إلى باب الحريم ، ثم دخل به إلى حجرة النديم ، قما أن رآه حتى عانقه عناقاً طويلاً يتخلله ضحك وبكاء ،

ثم جلسا وأخذ النديم يروى له ما مر به من ظروف وأحداث ، وقد أدى هذا الخواجة للنديم خدمات كبيرة ، فكان يطلعه على أخبار السياسة في البلاد الأجنبية ويشترى له الملابس والسجائر وأدوات الكتابة والصحف ، ويؤنسه في وحدته ويناقشه في السياسة والدين ويعاونه في التأليف ، وقد بعثه النديم إلى أصدقائه القدامى وأقاربه ليتعرف على أحوالهم وظروفهم ، خصوصاً لإخوان المعركة وزملاء السلاح ، وقد جاءه الخواجة ذات يوم يخبره أنه قرأ في الصحف الإنجليزية أن مجلس العموم البريطانى استطاع أن يصدر قراراً بإعادة مناقشة أسباب الثورة العراقية وتدخل إنجلترا المسلح ، وأن المعارضة البريطانية قدمت من القرائن والمستندات ما يثبت خطأ الحكومة البريطانية فيما أقدمت عليه ، وأن ما قام به عراقى كان ثورة وطنية حقيقية تعبر عن آمال الشعب المصرى ، وقد أنبأه أيضاً أن الجواسيس ورجال الحكومة يضايقون أباه مصباح وأخاه عبد الفتاح ، وقد اتهموا الأخير بتأليف جمعية سرية تسمى (الجمعية الإعدامية) ومن أغراضها اغتيال الأشخاص الذين ناصرُوا الاستعمار الإنجليزي ، ومن ثم حددت إقامته .

وكان من الشخصيات الأخرى التى يستخدمها النديم فى الاتصال بالعالم الخارجى صديقه الشيخ الأزهرى الذى آواه أول أمره فى منية الغرقا ، فكان يكتب له خلاصة الأخبار وجميع ما يجرى فى مصر ، ويزوره فى مخبئه عند الشيخ الهمشرى ومعه الكتب العلمية وكان يشترك هو والشيخ شحاته القصبى ، والشيخ مصطفى كأعضاء فى جهاز إخفائه كما ذكرنا آنفاً ، وكان هذا الجهاز يعمل على الوقوف على ماتنيته الحكومة بشأنه ويطلعه عليه أولاً بأول حتى يكون على بينة وحذر .

وكان الشيخ محمد الهمشرى رسوله الدائم إلى رئيس الجهاز شيخ الطرق

الصوفي محمد شحاته القصبي ، يذهب لتلقي التعليمات منه ، وفي ذات مرة طلب إليه النديم أن يسأل شيخه إلى متى يظل في محنته ، لعل الشيخ بصفاء قلبه وكثرة عبادته يكشف الحجب عن المستقبل ، فيجيبه الشيخ على لسان الرسول : (دع عنك هذه الوسوس والأوهام ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وأكث من ذكر الله ليلاً ؛ فإنه ينير الباطن ويصفي القلب ، ولا تعلق أملك بخروجك في هذا العام أو الذي بعده أن الأمد طويل وعمله عند الله) .

مكث النديم عند الهمشري أكثر من عامين وفاجأه موت مضيفه ؛ فكانت فجيعته في صديقه شديدة ، وفقد بموته الأمان على نفسه ؛ فقد أصبح مصيره معلقاً في يد القدر إذ لا يعلم بأمره في المنزل إلا زوجة العمدة المتوفى ، وحتى أولاده الكبار لا يعرفون شيئاً عن حقيقته وأقل هنوة منهم . أو من أحد من أهل المنزل وعددهم يربوا على الأربعين قد تكشف سره ، ولكن صاحبة الدار حسمت الأمر بسرعة ، وكانت على مثال زوجها مروءة وشهامة ، فجاءت بأكبر أبنائها صاحب المسؤولية الأدبية عن الأسرة بعد أبيه ، وكان شاباً لم يتجاوز الخامسة عشرة وأخبرته أن ضيفهم المحتفى عندهم هو عبد الله النديم الزعيم الوطني الذي جعلت الحكومة لمن يدها عليه ألف جنيه . ثم قالت : « أفتريد أن تكون كأبيك في حفظ الجار وحماية الدمار فتؤويه وتكرم مشواه . أم ترغب في حطام الدنيا فأكون بريئة منك إلى يوم الدين ؟ » فقال لها : « حاشا لله أن أخفر ذمائي فسترين أني أحافظ عليه محافظتي على عرضي . ولن يصل إليه أحد بسوء ما دمت حياً ، فباركته والدته وأكرمت فيه شهامته وحزمه . وقد أحست المضيفة وابنها بالفراغ الذي تركه موت العمدة صديق النديم وجليسه وبالوحدة وبالوحشة التي يقاسيها في وحدته ، فتخبراه الشيخ خليل مآذون القرية وأخاه الحاج شاذلي الصلحة

— ٦٥ —

يزورانه من وقت لآخر للحديث معه ومسامرته متعريضين للخطر بالدخول عنده وإخفاء سره رغم المغريات على إفشائه .

— ٨ —

ولقد كان في حاجة ماسة إلى من يقوم على شئونه الخاصة في مختبئة ، وإلى قلب حان يعطف عليه ، ويسرى عنه عذابات المحنة ومضايقاتها التي يعيشها طوال هذه الأيام ، وبلغ من كرم أسرة الهمشري انتهاء ، فزوجوه ابنة صديقه العمدة المتوفى ، وزوجوا خادمه بواحدة من أتباع الأسرة . وعلى مر الأيام تسرب إلى بعض من أقارب الأسرة ، أن هناك هارباً من الحكومة — لا يعرفون من هو — ، مختبئ في بيت الهمشري ، وحين نشبت خلافات وحزانات بينهم وبين هؤلاء الأقارب ، أجمعوا أمرهم على إبلاغ الحكومة وجاء رسول الخير يحمل إلى أسرة الهمشري نبأ ما يبت الخصوم لها ، وما أجمعوا عليه أمرهم ، فأسرع النديم بالهرب . وخرج ليلاً من الباب الخلفي للنزل حتى لا تراه العيون الراصدة ، وخرج معه الشيخ خليل مأذون القرية ليده على مسالك الطريق في الظلام ، وسارا يضربان في الليل على غير هدى حتى ابتعدا عن منطقة الخطر .

ومرة أخرى يحالف الحظ النديم — وما أكثر ما حالفه أيام الاختفاء . فلم يكذب يتبعد عن قرية (العتوة القبليّة) حتى جاءها البوليس وهجم على بيت الهمشري يبحث عن ذلك الهارب المختبئ فلم يجد له أثراً . وطير الخبر إلى الشيخ القصبي فأخذ أتباعه ومريدوه يرقبون النديم وهو يجوس الديار ويعتوضون طريقه ، ويقدمون إليه في خفيه ما هو في حاجة إليه من طعام وكساء ومؤونة الليلة والليلتين ، وكانت هذه الفترة ، من الظروف العصيبة المشحونة بالمفاجآت والأزمات ، لاسيما وقد انتشر في هذه المنطقة الجواسيس

(٥ — النديم)

وزادت دوريات البوليس بعد البلاغ الذى تلقاه المسئولون عن الهارب
المختفى ١١١

الشهامة ضابط

وذات مرة أثناء سيره أبصر من بعيد ضابطاً ومعه قوة من الجند تقوم
بدوريتها على ظهور الجياد ، فأنحرف إلى طريق آخر ظناً منه أنه سيكون
بعيداً عن أنظار القوة ، ولكن الضابط أبصر به ولاحقه ثم ترك أفراد القوة
بعيداً وجاءه بمفرده ، ثم أمره بالوقوف ، فلم يمثل وظل مستمر آ فى سيره ،
أخيراً ضيق عليه الخناق وهدده بإطلاق النار عليه وقال لهقف ولا تخف
أنا أعرفك أنك النديم الثائر الهارب . . فلم يكن له بد من التسليم ووقف
وأخذ يتمتم قائلاً (الأمر لله . الله الأمر . لاحول ولا قوة إلا بالله العلى
العظيم) ونزل الضابط من على صهوة جواده وسار معه إلى مكان بعيد عن
الأنظار حتى لا تنفطن القوة إليه ، والنديم صامت حزين لا يعرف أين
مصيره . واستمر برهة ثم فاجأه الضابط بأن طمأنه على حياته وقال له إنى
أعرفك أنك النديم رجل الثورة العرابية ، وأنا عن يقدروك ولن أعرضك
للخطر ولن أساعد الذين يرغبون فى إيذاءك ، رغم أن هذا سيحرمنى من
مكافأة كبيرة ، وترقية ومستقبل عظيم لى ، وإنى أهب لك الأمان وهذا كل
مامعى - وأخرج من جيبه ثلاث جنيحات كانت فى محفظته وساعته ثم أردف
قائلاً (ولو أنى شركسى الأصل ولكنى عربى المروءة والشهامة ، ومحال على
أن أستغل فرصة لقاءك وأقبض عليك) - ثم أرشده إلى طريق أمين ،
يستطيع به أن ينجو من دوريات الجنود والجواسيس التى تبحث عنه وحياه
وطلب دعوته وانصرف .

وفى هذه الفترة كان النديم دائم التغيير والتبديل فى هيبته التنسكية وقد
استغل فى ذلك خبرته القديمة فى التثيل واتقانه فن التنسك ، ومقدرته على التحدث

بلهجات عربية مختلفة . فكان يدخل كل بلد بلباس مخصوص ويتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواه التي يدعيها، سواء ادعى أنه مغربي أو يمني أو فيومي أو شرقاوى أو نجدى ثم يصلح لحيته لإصلاحاً يوافق دعواه ، فيطيلها حيناً عند دعوى المشيخة ويقصرها حيناً آخر حين دعوى السياحة ، ويبيضها في بلد ويحمرها في قرية ويسودها في عزبة .

وكان انتشار الجواسيس ، وثرات الأراجيف سبباً في فتور بعض إخوانه وأصدقائه ، فقد داخلهم الخوف والرعب ، وقعد بهم عن معونته ، ولكنهم واجه ذلك كله بثبات وتجلد للحن ، وقابل الأعاصير بقلب عامر بالإيمان لا يرهب النوائب .

ولقد بلغت الأسماء التي انتحلها أكثر من عشرة . منها يوسف المدني ، محمد الفيومي ، على اليمنى ، سى الحاج على المغربي ، والسبكي ، والغزى ، والتاجى ، والمصرى والشرقاوى والنجدى .

وقد ساعده على إجادة التنكر، حسن حديثه ولطف مسامراته وحلاوة ملقاه ، وبلاغة قوله ، وذلاقة لسانه مما جذب إليه القلوب ، فلم يبال أحد من الذين استضافوه من معارفه، بما كان يتهده في هذا السيل الشاق من مخاطر جسيمة ، والوقوع تحت طائلة العقوبات التي فرضتها الحكومة على من أخفاه .

لقاء مع رجال المباحث

وفي ذات مرة بينما كان على رصيف محطة طنطا معتماً السفر إلى المحلة الكبرى ، تنبه رجال المباحث إليه فاقترعوا منه يراقبونه ، فسرعان ما أعانته قريحتهم المتوقدة أن يبدأ بسؤالهم عن ميعاد القطار وأسئلة أخرى ، ثم استطرد في الحديث معهم حتى أخذهم بسحر حديثه وطلاقة لسانه ، وأخذ

يتطرق معهم إلى الحديث في أمور الدين والمعاش حتى أدخل في روعهم أنه من كبار أئمة الدين ، وأخلى من نفوسهم كل شك من ناحيته وتبدل شعورهم إلى احترام وإجلال نحو رجل الدين الكبير ، ولما حان موعد القطار انحنوا على يديه يقبلونها ثم حملوا أمتعته ووضعوها بجواره في القطار وودعوه وداعاً كريماً جليلاً .

وكان القديم دائماً يستعين بذكائه وسرعة بديهته ، يسعفانه إذا ألمت به مصيبة أو أحاط به مخبرون ، دون أن يظهر عليه أى أثر للارتباك .

مساجلات أدبية مع مدير الغريبة

ظل كذلك حوالى ثلاثة شهور بعد أن ترك منزل الهمشري عمدة الغتوة ، ثم ألقى بعضا الترخال في قرية (الكوم الطويل) من قرى مديرية الغريبة وأقام بها على أنه رحالة أقبل من المدينة المنورة ويدعى الشيخ يوسف المدنى .

وأخذ يدرس الفقه والتوحيد في مسجد القرية ، ويخطب الناس يوم الجمعة . وصار الضيف إمام القرية يتكلم بلهجة أهل المدينة فيقبل عليه الناس ويبالغون في إكرامه تبركاً به وللسكان الذى جاء منه ، ونعم في هذه البلدة . بعض الاستقرار ، وكان دائماً يجلس في مندرمة العمدة ليحدث الضيف حديثاً ممتعاً في الشؤون الاجتماعية والدينية والأدبية حتى أنس له الجميع وأحبه الجميع وعاش بملابسه التنكرية حياة عادية لإخفاء فيها ، ولحق به خادمه ، ولكن زوجته الهمشيرية لم تلحق به ومرضت ولحقت بالرفيق الأعلى . فحزن عليها حزناً جماً ، لما أولته من حب وعطف وحنان .

أقام بهذه البلدة ثلاث سنوات ولم يداخل أحد الشك في شكله وهيئته . أو لهجته ولم يعرف حقيقته إلا جهاز الإخفاء .

وذاغت شهرة الشيخ المذاني كعالم وواعظ وفقه ومحدث ، وبصار يدعى إلى مجالس الأعيان والشيوخ فيها ، وزار البلدة مصطفى باشا فتخى مدر الغريبة وقتذاك ، فاجتمع به في منزل العمدة ، وذازت بينهما مناقشات طويلة وأحاديث متنوعة فقال : مصطفى باشا لجلسائه على أثرها :

(لولا على بأن النديم قد مات وانقضت أيامه لقلت أنه هو هذا الرجل بعينه ولكن جل من لا شبيه له) ولم يكتشف المدير من أمره شيئاً .

في ضيافة أحمد باشا المنشاوي

وأحسن جهاز الاختفاء أن شهرة النديم قد ذاعت ، والشهرة غالباً ما تجلب وراءها البحث والتقصي والحسد ، وزيارة المدير وتعقيقه على المناقشات بينه وبين النديم قد يثير في النفوس بعض الشكوك فجاء الأمر إلى النديم بالرحيل ، فانتقل إلى المحلة الكبرى ومكث فيها نحو ٣٠ يوماً ثم عاد إلى منية العرقا (مركز جهاز الاختفاء) وأقام بها ثلاثة شهور ثم قصد سنهور ، والعجورين ثم القرشية ونزل ضيفاً على أحمد المنشاوي باشا في ذي يميني وادعى أنه عالم يدعى الشيخ البني وكان المنشاوي باشا من أعيان مديرية الغربية ، وكان من أنصار الثورة العراقية أمدها بالمال والمؤن والرجال ، وعفت عنه سلطات الاحتلال بأسباب حمايته للأوربيين والأجانب المقيمين في طنطا من فتنة دينية كادت أن تنشب رحاها . وفي الغالب أن شخصية النديم كانت معروفة للمنشاوي باشا وكنتم أمره وتظاهروا بتصديق تنكره من أنه عالم يميني .

وكان مجلس المنشاوي مجلس علم وأدب يؤمه الأدباء والشعراء ، ومن بينهم محمد التيمي صديق النديم ، وبدأ الشيخ البني يأخذ مكانه بينهم ، يناقش العلماء وينظر الأدباء ، ويتغنى بالشعر ، وأخذ صديقه ينشر حتى وصل

القاهرة وسمع عنه رياض باشا رئيس الوزراء وأرسل إليه الشيخ سعد زغلول
(سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصرى) ليسأله عن مثل يبنى مشهور قرأه
في أحد الجرائد اليومية آنذاك .

في البكاتوش

قضى النديم في ضيافة المشاوي باشا خمسة شهور . تزوج خلالها
بزوجته^(١) الثالثة بنت مصطفى أفندى منى من أهالى المحلة الكبرى .

ثم رحل من القرشيه زاعماً التوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج
ولكنه كر راجعاً إليها ، متخفياً في زى أهل المغرب وادعى أنه من أهلها
وسمى نفسه (سى الحاج على المغربى) ونزل ضيفاً على صديقه القديم الشاعر
محمد التيمى وأقام عنده شهراً ثم انتقل إلى الدلمون إحدى قرى مديرية
البحيرة ومكث بها شهرين ثم قصد البكاتوش وكان يقيم تارة عند عمدها
الشيخ إبراهيم حروفش أحد أنصاره الوطنيين وتارة أخرى عند جاره
أحمد جوده الذى أصبح دليله في الليل يصحبه إذ أراد الانتقال من بلد
لآخر ، ويتجشم معه السير في أضيق المسالك لقوة بنيته .

ثم جعل النديم لإقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ، يقيم عند محمد
معبد الحلاق فيكرمه ، ثم انتقل عند صديقه الأديب الشاعر محمد شكرى .
وكان وقتذاك كاتب مركز دسوق (في زى حجازى) على أنه ابن عمه جاء
زائراً من الحجاز ، ولحقت به زوجته هناك وعاش فترة في كنف صديقه ،
ثم انتقل إلى « برية المندره » حيث أقام هو وزوجته في منزل بعيد وسط
الحقول وحدهما لا يشاركما فيه أنيس أو أليف ، وكان أقرب بيت إليهما

(١) الزوجة الأولى تزوجها عندما كان طالباً بالتفграф بينها والثانية بنت الهشوى
حمدة العتوة القبلية والثالثة بنت مصطفى أفندى منى .

على مسيرة نصف ساعة ، أما خادمه وزوجته فكانا يقيمان في قرية الجزيرة .
وكان النديم قد جعل لهما راتباً شهرياً يعيشان منه .

وفي أثناء وجوده في قرية المنذرة ، ذاق طعم العوز والفاقة ، وساءت
أحواله الاقتصادية ، ولما زاره صديقه العالم الأزهرى وعلم بحاله ، أرشده
إلى صديق له (وهو شريف إدريسي) ليكتب له ، فلما كتب له شارحاً
ظروفه بعث له رسالة من جميع مواد التكوين التي يحتاجها هو وعائلته عدا
الملابس المختلفة بكمية كبيرة تفيض عن حاجته .

القبض عليه

أمضى النديم في المنذرة ما شاء الله أن يمضي فيها ، ثم عاد إلى البكاتوش .
ولحقت به زوجته هناك ، وكانت زوجته هذه تسمى إليه وتغاضبه فجملت
عليه مع محنة الاختفاء سوء المعاشرة وضاق بها ذرعا مرة ، وهم أن يظهر
نفسه للحكومة ثم تراجع وأصلح أمره معها ، ولعلها كانت هي الأخرى
تضيق بالاختفاء والوحدة ولذلك طلبت أن تذهب إلى الجزيرة فأذن لها ،
وما أن استقر بها المقام هناك حتى تشاحننت مع زوجة خادمه ، وكاد يفتضح
أمرهما ، وأسرع الخادم إلى سيده بالبكاتوش مستغيثاً ، فذهب النديم إلى
الجزيرة متنكراً تحت اسم « الشيخ إبراهيم الشهاوى » ، وبقي هناك شهرين .
استأنس به العمدة وأعجبه حديثه فتغاضى عنه ، وكان يخرج ليتنزه معه دون
تنكر ، على غير عادته .

وفي الجزيرة التي نزلها النديم كان يقطن رجل اسمه حسن الفرارجى وكان
سابقاً من جنود البوليس السرى ومن الذين اشتركوا في الحملة التي كانت تبحث
عن النديم ، وكان للفرارجى هذا حقل خارج القرية ، ذهب إليه يوماً ليرعى
شؤونه فوجد رجلاً يقرأ في كتاب وقد جلس معه مأذون القرية ، فاشتبه

على أمره ، وأجد في مراقبته إلى أن تأكد من شخصيته أنه عبد الله النديم الذى تبحث الحكومة عنه ، فذهب إلى القاهرة واتصل بالمسؤولين فيها .

وفي قصر الخديوى ، أنهى إليهم بمعلوماته ، وكتب عريضة يطلب فيها الألف جنيه قيمة المكافأة .. وأمكن الواشى لم يجد جزءا وشايتته بالنديم لأن المكافأة كانت موقوتة بعام واحد ، واليوم قد مضى على اختفاء النديم أكثر من تسع سنوات . حين تبين لأهل الجيزة فيما بعد وشايتته ، قاطعوه ، فعاش مكرها منبوذا طول حياته .

وصدرت الأوامر بالقبض على النديم ، وكلف وكيل حكامدار الغربية بالقبض عليه (محمد افندى فريد) الذى تنسك في زى تاجر من تجار القطن ، وذهب إلى الجيزة في ٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ ليلا . على رأس فرقة من الجنود طوقت الغربة وطلب وكيل الحكمدار من العمدة أن يدهم على البيت الذى يقطنه الشيخ إبراهيم الشهاوى فأنكر وجود هذا الاسم في قريته ، واستعان البوليس بالفرارجى ليدهم عليه ، وأحس النديم بحركة غير عادية خارج الدار ، وتوجس خيفة في نفسه وأراد الانتقال إلى دار أخرى فصعد إلى سطح المنزل واسكنه فوجىء ببنادق الجنود مصوبة نحوه من الدور المجاورة ، فاضطر إلى أن يعود أدراجه ، وتيقن أنه مقبوض عليه لا محالة وفتح باب الدار وواجه البوليس بشجاعة وسلم نفسه .

وقبض عليه وأرسل إلى مركز السنطة ولم يوضع في السجن بل في حجرة خاصة وبدأ البوليس في استجواب خادمه واستعملت معه وسائل العنف ، ما اضطره إلى الإقرار ببعض أسماء من آووا سيده وأكرموه في الاختفاء .

وفي صباح اليوم التالى نقل إلى طنطا لتجرى النيابة التحقيق ، وكان رئيسها آنذاك المرحوم (قاسم بك أمين) وقال له : أنت حر في كلامك

فقل ما شئت ، وأمر بأن يوضع فى حجرة نظيفة وأن يقدم له القهوة والدخان من جيبه الخاص ، وقبض على الذين أدلى خادم النديم بأسمائهم واعترف بأنهم آووه وساعدوه فى الاختفاء .
أما زوجة النديم فقد أرسلت إلى أهلها بالمحلة الكبرى .

أحدث القبض على عبد الله النديم خطيب الثورة العراقية وأحد زعمائها دويلاً فى الصحافة والمجتمع وشغل الدوائر الحكومية فى مصر وإنجلترا ، وبدأت الصحافة تكتب مطالبة بالعفو عنه حتى ينتفع الميدان الصحفي ببعثته . وأعاد الذكرى إلى قلوب المصريين — ذكرى الثورة التى كانت تبغى لمصر الاستقلال والحرية والكرامة ثم فشلت ١١ .

وفى ١٢-١٠-١٨٩١ — قرر مجلس الوزراء برئاسة حسين رشدى باشا لمعاد النديم إلى الشام — والإفراج عن جميع الذين قبض عليهم وسجنوا بتهمة معاونته على الاختفاء مع منحة إعانة مائة وخمسين جنيهاً ليستعين بها فى غربته

الذين عاونوه فى الاختفاء :

هؤلاء نفر كثير ، نخص بالذكر منهم فى هذا المقام بعض البارزين منهم ممن لم يضعف من عزائمهم وعد الحكومة ووعيدها ، وعرفوا للنضحية حقها ، وآمنوا بالقيم الاجتماعية والإنسانية وأن الوفاء من شيم الكرماء .

(١) الشيخ شحاته القصبي : من مشايخ الطرق الصوفية ، له أتباعه ومريده وهو شيخ ينفق عن سعة ، على نفسه وعلى أتباعه ومريديه ، ومن هنا أحبه هؤلاء وأخلصوا له ، يأمرهم فيطيعون ، ويدعوهم فيستجيبون ، يصف عبد الله النديم هذا الشيخ فيقول : « هو أستاذنا الكامل المولى الفاضل ، الورع التقي ، السيد شحاته القصبي ، وهو شيخ من الصالحين المنقطعين إلى الله تعالى ، ولكنه يأكل من كسبه ، ويقم بيته ، ولا يطالب

من الناس شيئاً ، ولا يأخذ فوائده من مرديده ، كما يفعل أسياف الطرق ، بل بيته مفتوح للصادر والوارد ، وكرمه زائد ، وفضله مشهور .

وكان النديم يستشهد برأيه ويستشيريه في كل أموره ، وخصوصاً ما اتصل بأمر هربه من البلاد إلى الشام ، فكان يثنيه عن ذلك دائماً .

حدث النديم قال : « لم أتقابل معه إلى الآن ، وإنما بعثت إليه من أخبره بمكانى الأول ، وكنت عازماً على السفر إلى الشام ومنها إلى أوربا ، فنعنى من الخروج من البلاد ، وأمرنى بالتستر حتى يقضى الله تعالى بالفرج ، وقد رأيت بركة رأيه ، فإن السيد حسن موسى العقاد وسليمان بك سامى ، قبض عليهما فى بلاد الدولة وأنا الآن فى هذا المكان ، معتقداً أنه لا يصيدنى إلا ما قدره الله تعالى وأراده (١) .

وحدث أيضاً قال : « وهذا الذى أخبر صديق محمد الهمشرى بمكانى الأول ، وبعث لى جواباً يقول لى فيه : قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك لذننى (٢) » .

وظل الشيخ القصبي راعى النديم وحاميه أول عهده بالاختفاء ، فكان النديم يرسل إليه ، الفينة بعد الفينة — من يطلب منه النصيح والمشورة ومن ذلك أن النديم أرسل إليه الهمشرى يوماً بجاءه الهمشرى يقول : « إن حضرة الأستاذ الأكبر رضى الله عنه يسلم عليك ، ويقول لك دع عنك الوسواس والأوهام واشتغل بطاعة الله تعالى ، واكثر من ذكر الله فإنه ينور الباطن ويصفى القلب ولا تعلق أملك بخروجك هذا العام أو الذى بعده ، فإن الأمد طويل وعلمه عند الله تعالى ، والشئ الذى استأثر الله

(١) كان ويكون س ١٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) كان ويكون صفح ٩٤٦ ، ٢٤٧ .

بعلبه ، لا تشغل تفسك به ، بل اشغل وقتك بما ينفعك ، ولا ينفعك إلا
الالتجاء إلى الله تعالى .

(٢) الشيخ محمد الهمشري ، عمدة العتوة القبلية بمديرية الغربية وكان
ياوى النديم لأن شيخه الشيخ شحاته القصبي قد طلب منه ذلك لأنه في حد قول
النديم (يعصى الحكومة ولا يعصى الشيخ لأن عصى الشيخ من عصى الرحمن) .

وكان الهمشري رسوله إلى الشيخ القصبي وإلى صديقه الفرنسي . وقد
أكرم مثواه ورعاه في منزله ، مقبلاً بين أفراد عائلته كأنه أحد أفرادها ،
زهاء ثلاث سنوات حتى لقد تزوج في هذا البيت وأنجب بنتاً وماتت
ولم يشعر به أحد : حتى إذا مات الشيخ محمد الهمشري رب العائلة ، وكانت
زوجته مثله في المروءة والشهامة ، استحضرت ابنها الأكبر ، مشفقة حزينته
حازمة رفيقه . وقالت له : « يا بني إن المرحوم والدك كان كريماً برا بالضيف
المقيم بيننا السيد عبد الله النديم ، أسكنه معنا وأصبح فرداً من أفراد الأسرة
لم يعطف عليه كسكين غريب لا مأوى له ، بل عامله كضيف عظيم يشرف
أكرم بيت باستضافته ، وقد اعتبر والدك أن هذا هو أقل واجب يؤدية نحو
زعيم من زعماء الوطن ، أضير في - بيل مبادته ، وحكم عليه أن يظل هكذا
هائماً طريداً لأن الحكومة الاستعمارية حاربت ، ورصدت مبلغ ألف جنيه
لمن يدل عليه ، وهكذا ترى يا ولدى مقدار ما أحاق بهذا المجاهد النبيل من
ظلم واضطهاد ، ومنذ طورد وهو لم ينعم بظل وارف ياوى لإياه ، وكفاه أن
سلب طمأنينة البال ، واستقرار النفس ، فهل تقبل يا ولدى أن ترعى الذمار
وتحافظ على عهد المرحوم والدك ، أو تكون ضمن هؤلاء الذين أغرام المال
عن الوفاء ، وخذعتهم الحياة الدنيا وزخرفها عن الحياة الآخرة ، وهل تريد
أن تخسر جزاءك عند ربك وجزاءك من وطنك ...

فتأثر الابن من هذا الحديث وتحمس نحو الاحتفاظ بعهد الله النديم

وأخلص نحو عهد والده ، وظل النديم مقبلاً مطمئناً بمنزل هذه العائلة ،
ولعمري فإن ما أتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لما يندر
مثله في ذلك الزمن .

في المنفى

اجتاز النديم « يافا » من ثغور فلسطين مقراً له في منفاه . فسافر إليها
من الإسكندرية على صورة من التكريم والإجلال ، وشيخه أهله ومحبوه
من أهل الثغر وجمع غفير من المواطنين ومنهم محافظ الإسكندرية عثمان باشا
عرفى ونقلت الصحف والبرق خبر إبحار النديم إلى « يافا » ، وحين وصل إليها
في ١٥ / ١٠ / ١٨٩١ ، استقبله على الميناء عدد كبير من العلماء والأدباء
والأعيان ثم استضافه السيد علي أبو المواهب مفتي يافا وأقام عنده النديم
شهرآ ، ثم اتخذ لنفسه داراً خاصة أصبحت منتدى عاماً لأدباء الثغر وعلمائه ،
وصارت تعقد فيها الجلسات العلمية والأدبية .

ولم يلبث النديم طويلاً حتى جاءه خبر وفاة الخديوي توفيق وتولى
الخديو عباس الثاني الحكم وعفا عنه في ٣ / ٢ / ١٨٩٢ ، وأباح له العودة حين
يريد ، وكان قد استهواه حديث جلسائه من أهل فلسطين عن الأماكن
المقدسة فعزم على زيارتها قبل أوبته إلى وطنه ، وبالفعل خرج مع صديق
له من أعيان يافا في مارس سنة ١٨٩٢ وسارا حتى وصلوا جبل الطور المسمى
جبل جازيم واتصل بالسامريين . وزار قبور أنبياء بني إسرائيل ، ثم مرا
بعده قرى ، إلى أن وصل نابلس فلبث فيها يومين بين حفاوة علمائها ، وبعدها
زارا قبر يوحنا المعمدان ، ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الأقصى ،
واحترق به متصوف القدس الشريف وقتذاك إبراهيم حتى باشا ، وختم
رحلته بزيارة قبر النبي موسى في مايو سنة ١٨٩٢ .

ولقد كتب إلى صديق له (عزبنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى ، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يعمل في نصف شوال ، ولن أحضر حتى أזורه مرة ثانية فإنه صاحب الأمر بالعفو عني - وذلك لأنى عند دخولى حضرته الشريفة أنشدته في الحال :

رجوتك يا كليم الله حاجا أرجيها وقد حققت فضلك
فقل لى مثلبا لك قبل أوحى إله الخلق قد أوتيت سؤالك

عودته إلى مصر

كانت الظروف التي تولى فيها عباس ظروفًا دقيقة ، فقد دعى من فيينا ، ليتولى الحكم في مصر في الثامنة عشر من عمره ، والاحتلال قد أرسى قواعده في البلاد ، وتمكن الإنجليز من وضع أيديهم على كل شيء ، ولكن عباس شاب وطني لقن آراء الاستقلال والشعور بالوطنية ، وقد عزم على استرداد حقوق البلاد فقد كان ناقماً على جده إسماعيل لإسرافه وعلى أبيه توفيق استسلامه وشعر أن شباب الأمة يجاريه هذا الشعور .

وفي ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطتها في سياستها الماضية التي آلت إلى ضعف نفوذها في مصر فأخذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت فرأت أن - يكون من هذه السبل الالتفاف حول عباس ، وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف وتتجه هذا الاتجاه - وكل هؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد الإنجليز بالجلاء .

والحكومة الإنجليزية تلوح من طرف خفي للخديو أن يتبع سياسة والده في مسالمتهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويقوى نفوذه عن طريق الرحلات إلى المديرية ومقابله الأعيان وزيارة المعاهد والمدارس كما أخذ يميل إلى

مباشرة الأعمال بنفسه ، بالاتصال بالمديرين وتسكليفه المختصين كتابه التقارير عن حالة التعليم والجيش ونحو ذلك .

وعند ذلك بدأت تظهر في البلاد تيارات مختلفة وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية إما رغبة في الاستفادة وإما عن عقيدة أيضاً .

وفي هذا الأفق الملبد بالسحب ظهر « عبد الله النديم » ثانية وقد سمح له الخديو عباس بدخول مصر فكتب قليلا يدرس ما فاتته من شئون مصر مدة غيابها ثم عزم على استئناف جهاده الصحفي وأنشأ جريدة « الأستاذ » وظهر العدد الأول منها في ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ ، يتولى هو تحريرها ويتولى أخوه إدارتها . وقد كتب في أول عدد منها أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية أما السياسة من حيث هي فن فإنها تدخل في موضوعها العلى .

وكانت تعد في أول أمرها امتدادا للجريدة « التنسكيت والتبكيك » من حيث موضوعها وأسلوبها لعنايتها بنقد العيوب الاجتماعية في المجتمع المصرى ثم هي بعد ذلك لا تنفك عن تناول الموضوعات السياسية والتعليق على كل ما يحدث في الأفق السياسى من أحداث .

ثم ارتفعت نغمتها شيئاً فشيئاً في الميدان السياسى ومناصرة الحركة الوطنية ومؤازرة الخديو عباس ومناهضة الاحتلال حتى بدا ذلك واضحاً في العدد الصادر في ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ فيفتتح العدد بمقال جرىء عنوانه « لو كنتم مثلنا لفعلمت فعلنا » وهى كلمة تتردد على لسان بعض الأوربيين يخاطبون بها الشرقيين ويقع المقال في ست وعشرين صفحة من أقوى ما كتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار ، ويندد بالغربيين فى أساليبهم وبالشرقيين فى غفلتهم ثم يدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه .

واستمر على هذه النغمة في الأعداد التالية . فقد كانت مقالاته صدى لما يحدث من أزمات ، وفي تلك الأيام بعينها ، اشتد الجفاء بين الحديو واللورد كرومر لأنه في ١٥ / ١ / ١٨٩٣ أقال مصطفى باشا فهمى منتهزاً فرصة مرضه . وعهد إلى حسين نغرى باشا في تشكيل الوزارة فعارض اللورد في إقالة مصطفى فهمى دون أخذ رأيه ، واشتد الأخذ والرد ، وأندرت انجلترا الحديو لإنذاراً شديداً ، وانهت المسألة باستقالة حسين نغرى وتعيين رياض باشا حسب إشارة اللورد كرومر ، وانتشر الخبر بين أفراد الشعب فأقبلت الوفود على الحديو في ٢٨ يناير تلقى الخطاب في تأييده في موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحا في الجرائد التي تناصرت الحركة الوطنية .

وبصفة عامة فإن مقالاته بالأستاذ كانت صرخة مدوية أخرى حاول بها إيقاظ مصر كي تنبته لما يحدث بها من أخطار ، وعالج في هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية ، وخلقية ، لم تخطر على بال أحد من قبل ، فتراه يتكلم عن التعليم وأثره في الحضارة والعمران ، وما يجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الأخلاقية ويمدد هذه المثالب ويبين أثرها في تأخر الأمة ، وتارة يبحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان والتنكر للأجانب مهما كان شأنهم وذلك في مقالة « هذه يدى فى يد من أضعها » ،

ولما أخذت نغمة النديم في الأستاذ تعلو بنقد الانجليز صراحة في سياستهم الاستعمارية في الهند وفي غيرها من البلدان طلب اللورد كرومر من الحديو عباس فنيه فأطاع ولم يستطع حماية من كان يحميه ويدافع عنه ، وودع الأستاذ قراءة في آخر عدد صدر في ١٣ / ٦ / ١٨٩٣ فكان عمره أقل من عام ، ولم يذكر في وداعه السبب الحقيقي الذى من أجله أوقف الأستاذ عن الصدور ، وقال في خاتمة وداعه .

وما خلقت الرجال إلا لمصاهرة الأهوال ، والعاقل يلنذ بما يراه في
فصول تاريخه من عصمة وجلال وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :
أودعكم والله يعلم أنى أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواع تعدت فالسلام عليكم

في منفاه الأخير

خرج النديم إلى يافا حيث كان قبل عفو الخديو عباس عنه ، ورتبت
الحكومة المصرية له معاشاً قدره خمسة وعشرون جنبها شهرياً ، يعيش منها
على شرط أن يلتزم الصمت ويمتنع عن نشاطه الصحفى السياسى ، ولكنه
ما لبث فى منفاه زهاء أربعة شهور حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن فى سياسة
الدولة العثمانية ، ويلبى السلطان فصدر الأمر بأبعاده أيضاً .

فأخذ يذرع الأرض لا يعرف أين يستقر ، فلا مصر تقبله ولا أى
أرض من أراضي الدولة العثمانية تقبله ، ونزل الاسكندرية أياما حتى تحل
مشكلته ،

ولقد درج كثير من أحرار الأتراك على السفر إلى أوروبا وإنشاء الجرائد
التي تنقد سياسة السلطان وتطالب بالدستور وإصلاح شئون الدولة ، فكان
من سياسة عبد الحميد فى بعض الأوقات استرضاء هؤلاء الناقين وإغرائهم
بالإقامة فى الأستانة تحت سمعه وبصره ، مجرياً عليهم الأرزاق ، وموفرآ لهم
أسباب الراحة والطمأنينة مع إسناد الوظائف لهم فى بعض الأحيان - لذلك
احتشد فى الأستانة عدد كبير من أعلام القلم والبيان والسياسة ومنهم السيد /
جمال الدين الأفغانى وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم وقد قام
المندوت السلطانى بمصر الغازى مختار باشا بالاتصال بالدولة العثمانية والتوصية

بمعاملة عبد الله النديم هذه المعاملة . فقبلت ، وسافر إلى الآستانة وعين بها مفتشاً للطبوعات بالباب العالى بمرتبة ٥٤ جنيتها مجيداً ، مضافة إلى المعاش المقرر له من مصر - ويأبى كرمه إلا أن يصرفها جميعاً مع ما كانت تجود به مكارم عبد الحميد من الإحسانات الخاصة ، فى سبيل الخير والبر بالأهل والأقارب والأصدقاء .

وفى الآستانة عاش النديم حياة هادئة خاملة ، فقد عطلت كل مواهبه ، وأوقف نشاطه - والصوت العالى قد سكوت ، والقلم الملهب قد سكن فى غمده ، وأصبح فى وسط يكاد يختنق منه ، لامتئس له إلا باجتماعه بأستاذه العظيم جمال الدين الأفغانى ، يحادثه ويسامره - ولكن رغم هذا كله تأبى الظروف إلا أن يصطدم بشخصية عظيمة النفوذ فى بلاط السلطان عبد الحميد ، تلك هى شخصية أبو الهدى الصيادى .

وللصيادى تاريخ عجيب ، فهو سورى من حلب ، نشأ فى فقر وإملاق ، ودفعته المقادير إلى الآستانة . وسرعان ما توصل إلى الخليفة يتادمه حتى أصبح أقرب المقربين إليه (وسوف نفرّد لترجمته فصلاً خاصاً فى هذا الكتاب) . ولم يخش النديم صولته ، وانتقد تصرفاته ، وأطلق فيه لسانه ، ولم يعن لهيبته ، وهكذا وقف الزعيم المصرى الحر مرة أخرى يواجه طاغية من طغاة عبد الحميد ، وكما عودنا النديم هذه المساجلات بين الأحرار والطغاة ١١ وكان القدر العجيب جعل من حياته صفحة من مكافحة الطغاة ومحاربة الظالمين - فكما اصطدم فى أول حياته بخليل أغا رئيس قصر والده اسماعيل ، فهو يختم حياته منازل جباراً مارداً من أعوان السلطان وكتب فيه « كتاب المسامير » ، ابتكر فيه أسلوباً عنيفاً من أساليب الهجاء المقذع واصطنع فيه أسلوباً عنيفاً من أساليب الهجاء ، والقذع الشديد فى شخصية الصيادى ، وما كان ذلك كله إلا تعبيراً عن صدر يحتج فى الغيظ وقلب يمور بالغضب .

وبلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط ، فأبلغ السلطان عبد الحميد يأمره ، وما فيه من تعريض شديد به . وبحث عنه طويلاً من غير جدوى ، واستطاع أحد أصدقاء النديم « جورج كرتشى » أن يحتفظ به ويخفيه ويفر به إلى مصر ثم يطبعه .

وقد ذكر ولي الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » صورة من الخصومة الشديدة بين الصيادى من جهة ، وبين جمال الدين الافغانى والنديم من جهة أخرى قال :

« لما كان المرحوم السيد / جمال الدين الافغانى والمرحوم عبد الله النديم على قيد الحياة ، كانا يغيطانه حتى تتبادر شؤونه من عينيه ، ولقد أطلا سهادته وضاعفا همه ، فما كنت تسمع له إلا صخباً وعويلاً متصلاً ، وشكايات أثر شكايات ، يطرق بها باب السلطان .

ولما ألف فيه النديم كتاب المسامير ، قامت له قيامته وجعل يهدر كما يهدر الفحل إذا هاج ، ولو مد الله في أيامهما لعاجلناه بما يلحق به حتفه ، ولكن لكل أجل كتاب وكان السيد / جمال الدين إذا ذكره في مجلس السلطان لم يسمه إلا أبا الضلال ، ولقد استشاط عبد الله النديم غضباً ذات يوم - وكان دعى إلى قصر السلطان وسئل هناك أن يكف عن هجاء أبى الصيادى - والسلطان مظل عليه من كوة يسمعه ويراه - فصاح النديم بأعلى صوته قائلاً : « لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال وسام الافتخار ، فلألبسنه أنا وسام العار ، يلزمه في حياته ويصحبه إلى قبره وبعد مماته . »

خفاف من بالقصر من وعيد النديم وأخذوا يتلطفون في أسكاته ، ولم يستطيعوا ذلك إلا بعد جهد أضعافهم .

ولقد حدث له أثناء إقامته بتركيا ، أن وشى به إلى السلطان ونسبت إليه

أمور كثيرة ، هو منها براء ، وكاد الأمر يصدر بنفيه إلى بعض الولايات البعيدة ، لولا أن الخبر وصله وهو في إحدى ضواحي القسطنطينية فأرسل برقية يتبرأ فيها مما اختلقه الوشاة - وختماها بالعبارة الحماسية التالية :

(إنك يا أمير المؤمنين القادر على الانتقام والعقاب بلا معارض أو منازع ولكننا سنقف بين يدي عادل وقاهر يقضى بيننا بالحق وهو خير الحاكمين)
فأعجب السلطان بحجراته وشجاعته وثباته على مبادئه. وأعجب بقوة نفسه ، ولم يأنه فرضى عنه وعدل عن قراره . وكان يحن إلى الوطن حنيناً شديداً - هذا الوطن الذى أحبه ، وأفنى فى سبيله بدنه وقواه ، موطن أحبائه . وأصدقائه وذوى قرباه ، هذا الوطن الذى ألم بكل شئونه ، وظروفه ، فلما سافر الخديو عباس حلى إلى القسطنطينية عام ١٨٩٤ طلب استدعائه ، فقابل المترجم عدة مرات ، كان يسر فيها الخديوى من طلاوة أحاديثه وجميل أسماؤه ، فلما أزمع الأوبة إلى القطر المصرى استمر النديم فى منادئته إلى مضيق الدردنيل « جنات قلعة دولا نعلم بدقة ماذا كان من أحاديثه معه ، ولكن مما لاشك فيه ، أنه أفضى إليه بما يساوره من شوق وحنين إلى الوطن ولا بد أنه استرجاه فى هذا الأمر ، وطلب شفاعته لدى السلطان .

ولقد كان حقاً من أعز أمنياته أن يعيش ليرى الوطن مستقلاً ، وأن يقوم من نكسته بعد هزيمة الثورة العراقية ، نتيجة الخيانة التى تسربت إلى صفوف الخونة من المواطنين ، ونتيجة دسائس السياسة الانجليزية التى لعبت دورها لاستكتاب السلطان قراراً يصم المواطن العظيم والزعيم الوطنى أحمد عرابى بالتمرد والخيانة وتلك لعمري ، كانت أقوى وسيلة قام بها الاستعمار لتشتيت القلوب الضعيفة وصرف الجماهير عن نصره الوطن فى شدته . . .

كان يود لو أتاحت له الظروف، ليعود إلى وطنه الحبيب، يندل في سبيل
أبنائه آخر قطرة من دماؤه ، ويصعد بين إخوانه آخر زفرات صدره الشائر
ضد أعداء الوطن والعروبة جمعاء ، ولعل أشد ما يحزن في النفس، أنه لم يعيش
ليرى ويسمع تليذه العظيم مصطفى كامل ، الخطيب المصرى المفوه ،
وخليفته فى الزعامة الوطنية الرشيدة وخليفته فى التوسع فى الخطابة الوطنية
والاجتماعية ، خطابته بالعربية وخطابته بالفرنسية فى محافل أوروبا ، حين
أسمع العالم الغربى فى حواضره الكبيرة صوت مصر ، وكسب أنصاراً
عديدين للقضية المصرية ، يؤيدون دعوته الخالدة بالجلاء التام عن مصر
والسودان ، مظهرأ بجلأ مدى ما يهدد السلم العالمى من مخاطر نتيجة لبقاء
قناة السويس تحت قبضة انجلترا ، مطالباً انجلترا باستنجاز وسودها
العديدة بالجلأ .

لم يعيش ليرى مصطفى كامل يبلغ ذروته فى قضية دنشواى ، وكيف
فضح الانجليز وحاكمهم أمام محكمة الرأى الإنسانى العالمى .. وانتصر
عليهم ، مما اضطر انجلترا أن تعزل حاكمها العاتى اللورد كرومر ١١

ولقد بذلت بعض الجهود الرسمية لعودة النديم إلى وطنه ، بعد
ما استبدت بيدنه الكليل الأدواء والأوصاب ، وكان الأمل كبيراً فى ذلك
بدليل ما جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١١/٦/١٨٩٥ وقد جاء
بالنص « كتبت الحكومة المصرية رسمياً إلى الأستاذة العلية تستقدم حضرة
الفاضل عبد الله أفندى نديم الذى ينتظر قدومه إلى القطر فى آخر هذا
الأسبوع أو فى الأسبوع القادم ، ونحن نهىء حضرته وسائر صحبه وخلان
تهنئة خالصة » .

هذا ماورد فى جريدة الأهرام .. ولكن هل تحقق هذا الزعم ، كلا
لم يتحقق ..

نعم . . حرمه الدهر أعر أمانيه ، وصاحب هذا القلب الرهيف ،
أخذ يحترق كدأ وحزناً في غربته ، ولم يحتمل بدنه الكليل آثار الآلام
النفسية مع العلل الجسدية التي كان يعانيها ، فاستفحل داء السل الرئوي الذي
أصابه في منفاه ، حتى بلغ حداً لم ينفع معه نطس الأطباء . وظل يحتمل
آلام المرض المستشري في بدنه بصبر وإيمان إلى أنه حمم القضاء . . وانتقلت
روح - المجاهد العظيم إلى الرفيق الأعلى ليلة الأحد العاشر من أكتوبر
سنة ١٨٩٦ .

وعندما علم السلطان بذلك ، أمر أن يكون مشهده على جبيه الخاص ،
وسارت أمام نعشه فرقتان من الجيش ، وفرقة من الشرطة ، وطلبة
المكتب السلطاني وسار خلفه رهط كبير من رجال الفكر والعلم في الآستانة
وغيرهم من الوجهاء والكبراء ، منهم أستاذه العظيم جمال الدين الأفغاني ،
والسيد عبد الرحمن الجزولي وهو الذي توفي الفقيه في بيته ، وأودع جثمانه
الثرى ، في مقبرة مجهولة بمدفن يحيى أفندي في باشكطاش ؟ ؟

بالأمس كان غريباً في ديارهم واليوم صار غريب اللحد والكفن

ولقد كانت ظروف منفاه ومرضه الأخير وموته وحيداً دون أنيس
أو رفيق ، من أبلغ المآسى التي خطتها يد القدر ، فالخطيب الذي حرك
قلوب الجماهير ، والسمير الرقيق الظريف ، الذي كانت احاديثه مصدر غبطة
ومعجاب المواطنين جميعاً جماعات وأفراد ، أمراء وفقراء ، حرم من يؤنسه
في آخر ساعات حياته ، ومن يواسيه في أخرج أوقات مفارقتة دنياه !!

وكانت أمه وأخوه قد علما بمرضه فسافرا إليه، ولكن وصلا بعد أن
تم قضاء الله واختطفه الموت ، ووجدوا متاعه وأثاثه قد نهب، فعادوا وليس في
يديهما إلا الحزن والأسى .

وقال عنه أحمد تيمور باشا :

« ومن تأمل بعين الاتعاض في تقلب الأحوال بالمرجم وما ذاقه من
حلو الزمان ومره ، وما قاساه مدة الاختفاء ثم النفي حتى مات غريباً حق
له العجب وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه » .

وبما يؤسف له أنه لم يعرف قبره إلى اليوم ولم يفكر أحد في النهاء .
إلى تركيا للتنقيب عن قبره لتحديد مكانه وإقامة شاهد عليه ، ولو كان
تم ذلك ، لكان من السهل في العهد الحاضر بعد ثورة الجيش العظيمة ، أن يتقل
جثمانه إلى وطنه ويكرم ذكره ويحاط بكل مظاهر الاجلال والاعتبار التي
تليق بتاريخ جهاده المجيد ، ولقد أحسنت حكومة الثورة المجيدة إلى ذكره ،
وأقامت تمثالا له ، في حديقة الخالدين ، قريبا من ميدان محطة الرمل ،
بالاسكندرية مسقط رأسه ، والبلد الذي قضى فيه أيام شبابه .

أبو الهدى الصيادى

طاغية من طغاة عبد الحميد ، نازله عبد الله النديم فى منزله الأخير

من الرجال الذين لعبوا دوراً خطيراً فى حياة السلطان عبد الحميد.
الثانى وكان لهم شأن يذكر فى سياسة الدولة العثمانية . السيد أبو الهدى.
الصيادى :

وقد ولد سنة ١٢٦٦ هـ فى خان شيخون . من أعمال حلب ، وعاش.
فى كنف أبيه الشيخ حسن وادى الذى يتصل نسبه بالإمام الرفاعى ،
وقد كان أبوه من مشايخ الطرق الذين يقيمون الأذكار ، ويستعطفون.
أهل الجود والكرم ، ونشأ الفتى نشأة أبيه ، فلم يكذب يشب عن.
الطوق ، وتظهر عليه علامات النجابة والذكاء ، حتى ترك خان شيخون إلى.
حلب ، جاءها كطالب علم ، فانتسب إلى إحدى مدارسها الدينية ، وتلمذ
على مشايخها يأخذ عنهم الفقه والتفسير والحديث والأدب والأصول وكل
ما يزيد فى ثقافته الدينية .

وبدأ حياته الأدبية ينظم الشعر ، وظهر فى الأوساط الحلبية كشاعر
مداح ، وشعره بالنسبة لاتجاهات الشعر فى القرن التاسع عشر ، على جانب
من الرقة والجزالة ، فمن قوله فى الغزل :

ما هب	نشر	الصبا	إلا	فوادى	صبا
والنفست	همتى	لريم	ذاك	الحبا	
يا ساكنا	مهجى	صيرتها	كالهبا		
رفقاً	بذى	لوعة	رأى	الهوى	مذهبا
لأجل	خديك	قد	يعشق	ورد	الربى

واتخذ أبو الهدى الشعر وسيلة للظهور ، وفرض شخصيته على المجتمع الحلبي ، فكان ينظم قصائد المدح . ويطوف على البيوتات الكبيرة ، يمدح رجال الدولة وأعيان البلد .

وإذا كان من المنتسبين إلى السيد الرفاعي ، فقد أجازته والده بطريقة أسلافه « وألبسه الخرقة الشريفة بإذن ابن عمه الشيخ علي أفندي آل السيد خير الله الصيادي الرفاعي شيخ مشايخ حلب . ثم أتم السلوك على يد شيخه الأجل السيد بهاء الدين الصيادي الشهيد بالرواس ^(١) .

وعرف أبو الهدى ، بعد أن لبس جلباب التصوف . بأنه «شيخ طريقة» و «دقاق مزهر» وإذا كان للوظائف الدينية مقامها فقد طمحت نفسه للتولية على «خان شيخون» - مسقط رأسه - وسعى إلى ذلك حتى وجهت إليه توجيهاً شرعياً بحكم محكمة ولاية سوريا . وذلك سنة ١٢٨٥ هـ وعمره يومئذ تسعة عشر عاماً .

ولم يكن خاصة حلب ورجالاتها ينظرون إليه أكثر من «شيخ طريقة» و «دقاق مزهر» و «شاعر مداح» يستجدي أهل الجود والكرم ، ولكنه كان يرى نفسه في القمة نسبياً وحسباً ، وكان له من فرط ذكائه هذه الطمحات الواسعة ، ومدينة حلب لن تطمئن له هذه النزعات .

ثم فكر في السفر إلى إستانبول . ولم يكن السفر في ذلك العهد من السهولة كما هو اليوم ، ولكن ماهي مشاق السفر بجانب ما كان يحلم به من السيطرة والمجد .

ويصفه الأستاذ الكبير محمد كرد علي في مذكراته نقلاً عن أبيه بقوله:

(١) « الدر المنتظم » مختصر براهين الحكم ص ٢٩٩ .

كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول في خان من خاناتها، وكان يزورنا درويش، شاب أسمر اللون، جهورى الصوت، تبدو إمارات الذكاء عليه. وله جدائل يرخيها على ظهره، يعم بمئزر ويكتسى عباءة وقمطاناً، ويضرب بالدف، وينشد أشعاراً على طريقة القوم، وما كان يشاركنا في النفقة، ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة، وهذا الفتى هو محمود بن حسن وادى المعروف بأبى الهدى الصيادى الرفاعى.

ثم شخص بعد ذلك إلى استانبول. وأخذ يتصل بالمرموقين من كبار الرجال، فرأوا فيه فتى ألمعى الذكاء، يفيض جنانه بفتوحات التصوف، فما كان منهم إلا أن عموا على تحقيق بعض رغباته، فوجهوا إليه دنقابة أشراف قضاء جسر الشغور، كما نال رتبة مولوية أمير، وسنه يومئذ ثلاثة وعشرون سنة، ثم ولى قاضياً على جسر الشغور مع احتفاظه دنقابة أشرافها وفى سنة ١٢٥١ هـ عين د نقيب أشراف، عموم ولاية حلب، وكانت سنه حينذاك الخامسة والعشرين من عمره.

هنا فى هذه الفترة بدأت العيون تتجه نحوه، وأخذ الناس يتقربون إليه، ويولتفون حوله، ويزجون إليه التهنئة، ويلتمسون منه العطف والرعاية، ولا سيما بعد أن خصه السلطان عبد العزيز خان، براتب خاص، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فوضه نقيب أشراف دار الخلافة، النظر إلى نقباء ولايات سوريا وديار بكر وبغداد والبصرة، بل فوضه أيضاً أن يعطى منشور الدنقابة لجميع نقباء ولاية حلب.

ولقد اتخذ بعد ذلك المدائح النبوية وسيلة لتحقيق مآربه. ولما كانت النزعات الدينية هى السائدة فى عصره، وكان للدين قداسته وتأثيره، فقد استغل هو هذه الظاهرة للوصول إلى أرفع مرتبة فى الدولة التى كانت لا تنيب الشمس عن أطراف مملكته.

لقد كان السلطان عبد الحميد ، خليفة للمسلمين ، فلم لا يكون الصيادى شيخه وصفيه ؟ فهو ذو نسب ، وهو من الأشراف ، وهو من المتصوفة ، إلى كل هذا شاعر ذلق اللسان ، من أذكىاء البشر ، ولكن كيف الوصول إلى الاعتبار السلطانية ١١٩

لقد أعد قصائد المديح ليهيئ السلطان بعد أن وجهت إليه « بابة الحرمين الشريفين » ، ولكن السلطان قد اعتاد سماع هذه الثنات من كثيرين غيره وثمانها أعطيات وأوسمة ، وقد قبض الثمن ، وكان المفروض أن يرجع إلى موطنه ، ولكن مصالحه وأمنيته أوسع من هذا ، فما هو السبيل إلى بلوغ هذه الأمنيات ؟

لقد شاء القدر أن يحقق أمانيه عن طريق المرأة ، نعم ، عن طريق المرأة . أتيج له أن يكون أقرب المقرين إلى قلب السلطان .

والحادثة التالية تكشف لنا هذا السر ، فقد أصيبت زوجة ناظر الضبطية بمرض أعجز الأطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فتذرع بكل ما فى وسعه لشفاها ، ولما يئس من علاجها ، وصفوا له أبا الهدى الصيادى ، وما يكتب من حجب وتمايم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه ليطلب حبيبته . بما عنده من بضاعة المشايخ ، وقد شاء القدر أن تهرأ زوجة ناظر الضبطية ، فعظم مقام الشيخ فى عين ناظر الضبطية ، وشاع بذلك ذكره فى دار الملك ، وكثر قصاده والمعتقدون به ، وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارعون إلى تصديق من يعتقدون فيه . الخير ، ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثانى بعارض يشبه عارض زوجة الناظر ، فعلم الوزير بالأمر ، فعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبى الهدى مع زوجته ، وقال فيه كل خير ، حبيه إلى السلطان ، فاستدعاه إلى مداواة حظيته بأدعيته ، فجاء يداويها بما داوى به .

امرأة الناظر فشفيت الجارية بعد أيام وأعقب ذلك اتصال أبي الهدى بالسلطان عبد الحميد^(١).

وبعد هذه الحادثة ، وبعد قصائد المديح ، دعى لشرف الحضور الأقدس السلطاني بواسطة نافذ باشا المشير - السرقناة يومئذ - وهي أول مرة فاز فيها بشرف الثول بين يدى جلالته وسنه وقتئذ ثمان وعشرون سنة ، وقضى حوائجه وتعطف عليه وأمره بملازمة خدمة أعتابه ، مرة أو مرتين في كل أسبوع د وأغدق عليه نعمته ، وبعد أن أقام مدة ، استأذن جلالته في السفر . فمنعه ونصبه رئيس مجلس المشايخ في نفس دار الخلافة ، وبموجب الإرادة حررت له التذكرة الرسمية من شيخ الإسلام خليل أفندي^(٢).

* * *

لقد كانت سياسة السلطان عبد الحميد ترمى إلى اجتذاب الشخصيات الدينية الكبيرة إلى حظوته ، لتكون عماده في السيطرة وبسط نفوذه ، وبلغ مسامحة ما يتميز به الشيخ أبو الهدى من صفات ومزايا ففتح له الباب على مصراعيه وسرعان ما ولجّه الشيخ باطمئنان .

من قرية خان شيخون إلى الآستابة ، من الضعة إلى المجد ، من الفقر إلى الغنى ، من الهاوية إلى القمة ، من التمرغ على الاعتبار إلى التربع في دست القصور ونعيم الملك والسلطان . . وهكذا كان وهنا أنشد قصيدته الشهيرة التي يفتخر بها :

(١) « المذكرات » محمد كرد على ص ١٤١

(٢) التاريخ الأوحى ص ١٤١ .

كيف لا تردهى بنا العلياء ولنا المجد طينة ورداء

وعاد الناس يتساءلون ، ولا سيما في وطنه . عن السر في بلوغ الرجل هذه المكانة الساحقة . لقد تخطى كبار الشخصيات من العظماء وكبار رجالات الدولة ، وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان ، وبعد أن كان الصيادى في نظرهم من « الحواة المشعوذين » ، أصبح من « الدهاة المرموقين » وهنا أى بعد أن صدرت الإراة السنية بتعيينه رئيساً لمجلس المشايخ ، فى المملكة العثمانية ، خرسى الألسنة عن ذكر نشأته وماضيه ، لا تذكره إلا بالتكريم والتعظيم .

وقضى الشيخ سنوات طويلة إلى جانب السلطان ، ومكانه فى صعود متوال ، وكان خلالها ملجأ القاصدين ، وكان قصره فى بشكطاش بغية الرواد من مختلف الأقطار والأمصار ، وكانت كلمته فى المملكة العثمانية تجرى فى نفوس الحكام بجرى السحر ، وإذا وصل إلى هذه المكانة السامقة ، كثر حاسدوه وشائثوه وخصومه والمنتهقون لقدره ، وبينما كان يسمع مدح الشعراء كانت الدسائس تحاك له من وراء الستار ، فكان يتسم لهؤلاء وأولئك ولا يظهر الحقد لأحد ، حتى إذا تمكن من الفرصة ضرب ضربته ، فقد كان خصومه من كبار الرجال وأهل الخطوة عند السلطان ، فما زال بهم حتى بذم واحداً واحداً ، وبقي مكانه كالطود الراسخ ، لا تززع قواعده الصروف ، ولا تترقى إليه الهمم .

وقد مشى وراء خطواته الوزراء والكبراء ، وقبل يديه أعيان القصور والأمراء ، وانفرد عن الأشباه . والنظراء ، فظل فى حياته فى حماية عبد الحميد ، باقعة السلاطين من آل عثمان ، زهاء ثلاثين سنة فى صعود متوال ، وورقة مكان ، ولم ينل أحد من الأمة العربية بل التركية ما نال عنده من المنزلة

الرفيعة والحظوة السنية ، وكانت حضرته يومئذ في القسطنطينية قبله ذوى الآمال من القصد ، ومثابة الغرباء على اختلاف الأجناس من أقصى البلاد . فسكنت ترى أبناء الهند والصين والأفغان ومراكش ومصر والسودان ؛ إلى غيرهم من أجناس الأمم الإسلامية المنتشرة ، بل كثير من عطاء الفرنجة يؤمون تلك الحضرة للتحدث عنه في بلادهم ، ومشاهدة الرجل الذى طبقت شهرته سائر عروش الممالك^(١) .

وقد خصه شعراء البلاد العربية . من ذوى الحاجات ، بالكثير من المديح ، واستعانوا بمدحه على قضاء حوائجهم ، فأخذ بناصرهم وأكرم وفادتهم ، وأدنى منه مجلسهم ، فكان منهم من يؤلفون الأشعار ويعزونها إليه ، ومنهم من ينظمون الأشعار ويروونها عنه ، فتناقلت الألسن ما بدا من فضله المتزود ، وسهت الأفكار عن نقصه الكامن فيه .

وكلما ازداد رفعة عند السلطان وزاد جاهه ، كثر حاسدوه وعظم مناوئوه ، ولكن الخصومات الشخصية التى حدثت بينه وبين كثير من كبار رجال السلطان ليست بذات شئ أمام خصومته مع جبار من جبابرة الفكر ، وتيار من تيارات العبقرية ظهر فى الفترة التى لمع فيها نجم أبى الهدى ، ذلك هو الحكيم جمال الدين ، فقد ظهر فى المجتمع الإسلامى سياسى كبير ، ومصلح دينى عظيم ، له أثره ، وقد أوردنا فى هذا الكتاب فصلاً خائفاً عنه .

وقد دعاه السلطان لزيارة الأستانة ، وأعد له قصرآ منيفاً ، وأجرى عليه راتباً ضخماً ، وجعله من خواص رجاله ، واستخدمه كأبى الهدى فى توطيد نفوذه وسلطاناه .

(١) أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر .

ولكن أهداف جمال الدين كانت غير أهداف أبي الهدى ، ولم تكن المظاهر المادية ، لتغرى جمال الدين للسعى وراءها ، لقد رغب إليه السلطان في دعوة المسلمين كافة إلى الاعتصام بعروة الخلافة وجمع شتات المسلمين في مختلف بقاع الأرض في حوزة دولة إسلامية واحدة ، أما هو فقاصده غير ذلك ، فهو يدعو إلى النهوض بالأوطان الإسلامية وتحريرها من عبودية السلطان الظالم وعبودية الأجانب المتحكم ، وتوثقت الصلات بين جمال الدين وأبي الهدى . . وسرعان ما توترت ، فقد اعتقد أبو الهدى أنه جاء ليزاحمه على مقامه الخطير لا سيما بعد أن عرض عليه السلطان مشيخة الإسلام ، وهنا انتقلب أبو الهدى على جمال الدين وأخذ يتهمة بالكفر والزندقة والإلحاد ، وأنه جاء ليفسد العقائد ، وقد عثر على رسالة كتبها إلى الشيخ رشيد رضا صاحب المنار جاء فيها :

« إنى أرى جريدتك طالعة بشقاشق المتأفغن جمال الدين المنعقة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زوراً ، وقد ثبت في دوائر الدولة الرسمية أنه (مارندرانى) من أجيال الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

وهكذا أخذ في مناوآته حتى قضى عليه ، ومات الأفغانى في ظروف تعسة (سنتحدث عنها فيما بعد) .

ولكن لم يكدر يتخلص من نفوذ الأفغانى حتى ظهر له خصم جديد - خصم له قوته وسلطانه هو عزت باشا العابد ، أحد كبار دهاقنة العرب في عصره ، هذا الرجل الذى تقرب إلى السلطان فجعله قرينه وكاتبه الثانى فى الماين ، وظل خادمه الأمين نحو ثلاث عشرة سنة ، فضاق به أبو الهدى ، كما ضاق عزت العابد بنفوذ الشيخ ، وأخذ كل واحد يكيد للآخر ، وانقسم عامة

الناس في تركيا إلى حزبين : أحدهما هداى وثانيهما عزى ، وظل العداء والخصومة بينهما مدة طويلة ، ولم يستطع أحدهما أن يزيح الآخر عن مكانه ، إلا أن الغالبية آثرت عزت العابد بالزعامة وساروا تحت رايته، وعملوا برأية حتى كادوا يغلّبون الصيادى ويزيخونه من طريقهم .

وبالرغم من كل ذلك ظل عبد الحميد يعتمد على أبى الهدى فى المهمات ، وقد أثره بحبة واتخذته مستشاره الأمين ، وسلاح أبى الهدى فى مناوأة خصومه قداسة الدين ، وللدن أثره وسحره فى نفوس - السلاطين ، وكان الشيخ يزود مولاه كل يوم بعجيبة من العجائب فأؤنة يبلغه سلام النبى وحينما يقص عليه رؤيا يزعم أنه رآها وينسرها له على ما يلائم هواه ويرضيه ، ثم يدعى لأبيه ولنفسه كرامات لا وجود لها ؛ وكان عبد الحميد يحبا لهذه الأشياء ويظن أنها من أقرب الوسائل لاستدامة ملكه .

وبهذه الوسائل - قويت سيطرة أبى الهدى الصيادى على عبد الحميد ، وتمكنت منهما الأئمة الروحية . حتى أن خصوم الصيادى لما صارحوا السلطان بأن بضاعته ليست إلا نوعا من الخزعبلات قال لهم :

(عجبت لهؤلاء الخونة يحسدون شيخى ، وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه ، يكتب إلى الواحد منهم كتاباً يطلب فيه بكرة مال أو رتبة لا تكاد تذكر ، وهو مع ذلك يتعسف الحيل ، ولا يهتدى إليها سبيلا ، أما أبواهدى فإن سألنى فعن ثقة وظرف ، ولا يتدننى بقدره إلى إلى طلب ما ، يكون مشاعا يمكن أن ينازعه فيه غيره)

وقد جاء فى تاريخ الأستاذ الإمام^(١) أن أباهدى لم يكن يقنع بما بلغه من مقام سام عند السلطان ، بل كان يطمح فى الخلافة ، وسواء صحت

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ص ١١٣ .

الرواية ام لم تصح . فإن من يرجع إلى تاريخ ابن الهدي ، ويقارن بين نشأته الأولى . وبلوغه ما بلغه من المقام العظيم في الدولة لا يستبعد ان تطمح نفسه إلى الخلافة ، ما دامت الخلافة في قریش وهو من المنسوين إلى آل البيت ، وظل نفوذه يمتد في كل بقعة من بقاع الأمبراطورية التركية إلى ان وقع الانقلاب ، فكان مصيره كمصير سيده عبد الحميد . فسبحان من له الدوام !!

٤ — تأثيره وتأثيره

يولد الإنسان حاملاً معه صفات أبوية ، مكتسباً عنهما كثير آ من الصفات . الجسمية وحتى بعض الأمراض المستعصية تصل إلى الجنين من الوالدين — فالإنسان كالحیوان ابن الوراثة ثم تبدأ المؤثرات المحیطة تؤثر فيه منذ طفولته حتى يشب يافعاً وهكذا تعمل كل من الوراثة والبيئة عملها معاً في تكوين الإنسان وإنشائه . ويتأثر نشاطه وسلوكه في المستقبل بهما . والتربية والبيئة ينميان فيه المملكات الموروثة ويساعدانه على اكتساب خلايق جديدة ، فقوى الإنسان الذهنية إذاً موهوبة ومكسوبة . فالوراثة تتحكم في الخلق والخلق وتفرض إرادتها على أجيال الناس فيخضعون لناموسها .

والوراثة الجسمانية هي التي تضرب أبناء الأسرة الواحدة على قالب واحد فيتشابهون سمات وقسمات في القبح والجمال . ووراثة القوى العقلية تسير على غرار واحد هي ووراثة الصفات الجسمانية ، تنتقل من جيل إلى جيل من السلف إلى الخلف في الأسرة الواحدة ، حتى تطبع كل أسرة . بطابع خاص من تلك القوى والصفات ، وربما تنكبت الوراثة في تسلسلها ، الخط الموصول ، فأقلت من تأثيرها جيل أو أكثر بل ربما توارث عدة أجيال . قبل أن تنقل سمات العبقريّة من فرد إلى فرد ، في الأسرة الواحدة .

ذلك عمل الوراثة ، أما عمل البيئة فعمل القين ، الذى يجلو فرند السيف
أو عمل الجوهرى الذى يضقل الدر ويثقبه ، أو عمل الصائغ الذى يصنع من
خسيس المعادن أنماطا بديعة من الدمى والحلى مصقولة لامعة مزخرفة .

وأثر البيئة فى صقل المواهب وإبرازها ، واكتساب الفرد صفات جديدة
وأساليب من الأخلاق والتفكير معينة ، أمر مسلم به حتى لقد تسرب هذا
القانون إلى الأمثال السائرة كقول الغربيين (قل لى من تعاشر أقل لك من
أنت) وحتى ذهب فيلسوف فرنسى إلى القول ، أن قيمة الإنسان من قيمة
البيئة التى يعيش فيها ، وذهب فيلسوف آخر إلى إرجاع كل عمل أدبى إلى
عناصر ثلاثة هى العرق والبيئة والزمن .

وحينما نطبق هذه القاعدة على عبد الله النديم ، لنربط بين تأثير كل من
الوراثة والبيئة على حياته ، وتتبع عملهما فيه فى جميع مراحل حياته منذ
طفولته نجد أن طريق البحث غير معبد ، فنحن لا ندرك تابع أسرته
بوضوح ، ولا حتى تاريخ أقرب جدوده - وليست هناك أدلة واضحة على أن
والده كان يفوق عامة الناس فى شيء سوى أخلاقه وتقواه فقد كان 'فصلاً
فقيراً عادياً فى كل شيء - هاجر من سقط رأسه بالشرقية لاسكندرية
ابتغاء الرزق ، واشتغل عاملاً بدار الصناعة (الترسانة) بالاسكندرية ثم تركه
وافتح مخبزاً صغيراً ، يصنع فيه الخبز ويبيعه ، عاش على هامش الحياة ،
محولة وجفاف ، تقتير وحرمان لا يكاد يتبلغ هو وزوجته وولده بما يتكسب
به . والفقر هو النقر فى كل شيء ، فقر فى الطهوح ، وفقر فى المدارك .
والأسرة الفقيرة آمال أفرادها محدودة ، وحتى لو تأثرت بطموح ما ، فلن
تسعى لتدرك مستوى طبقة أعلى منها .

وكان فقر الأسرة عائقاً عن إتمام دراسة الطالب الصغير ، عبد الله ،

بالأزهر رغم تفوقه في الكتاب فأرسل إلى المسجد الأنور قرب منزله، يدرس فيه المشايخ ما يدرس في الأزهر ولكن سرعان ما ضاق الفتى ذرعا بدروس المسجد وعاف ذهنه تناولها ، فهرب من المسجد بعد أن أمضى فيه بضعة سنوات من عمره .

ويحك يافتي ... أضلك الرأي ... واضطرب بك الفكر ... وخرجت عن الطريق السوي ... كان لوالدك مأرب في تعليمك .. أن تخرج من معهدك إلى الدنيا شيخاً معهما عالماً مفهماً يتقرب الناس إلى الله بتقريب يده ، ويستخيرهم الناس في أمور دينهم ودنياهم ... ولكنك خرجت إلى الدنيا صفر اليدين - لا علم .. ولا مال ولا مهنة ؟!

ولكنه رغم ضيقه بطريقة الدرس بالمسجد وعزوفه عنها ، وهربه منه إلى العالم الغسيح يستكمل منه علمه ، فإنه لن ينسى أستاذه البر الشيخ محمد العشري ، لأنه من الشخصيات ذات الأثر في توجيهه ، أخذت يده في الاتجاه الذي يتفق واستعداده الفطري ومواهبه الأدبية ، لقد اكتشف فيه الميول الفنية نحو نظم الشعر وقول الزجل ، فاصطحبه إلى ندوات الأدباء بالإسكندرية ، وأخذ يناشده الشعر ويكاتبه ، ويبادل الملمح والنكات الأدبية ، وكما قال النديم (وما زال يغمسه في ألوان الفنون حتى انصبغ ، وينشده الجذ والمجون حتى نبغ ، وجرى خلفه في ميدان الفكاهة ، وصار لُفَه في العفة والنباهة) .

وكان هذا الشيخ من الأثيرين بمحبته وإعزازه ، وظل يذكر فضله عليه دائماً ويشير في كتاباته إلى مكانته الكبيرة من نفسه وأثره القوي في حياته ومن ذلك قوله في إحدى رسائله إليه : (ريت فأحسنيت ، وغذيت فأسمنت ، مؤدباً ليثاً ، ولنت فسدت ، وجدت فعودت مهبذاً غيثاً ، وعلمت فأفهمت ، وأشرت فألهمت ، غرض سهمك ، وقد نلت ما أملت فيمن عليه عولت ، غلامك الشهير بالنديم ، من صار في البيان كالنسيم . . . الخ) .

أجذب هذا الطريق عبد الله النديم ، فهرب من حلقات العلم إلى دكا كين
التجار المنعشقين للأدب ، يتطارح معهم الشعر ، ويتبادل معهم نواذر الظرفاء
وللى المقاهى يستمع إلى شاعر الرابطة ، يروى الأساطير الشعرية والقصص
الخرافية ، وينشر لروادها زجله ، وفى الليل يصحب شيخه العشرى إلى مجالس
الأدب فى بيوت الأثرياء يسمع المباريات الأدبية فى سائر أنواع الأدب
من شعر وزجل وخلافه .

وهكذا على هذا المنوال ، أخذت تنضج مواهبه الأدبية شيئاً فشيئاً من
ناحية الإجابة الإنشائية ، ولعلنا ندرك بما تقدم أثر البيئة القوي فى نشأته فلو لم
يأخذ نفسه على سجيته ، لما استطاع أن يكتشف مواهبه الأدبية ويجد من
يعاونه على صقلها . ولكنه وقد أتقن صناعة الأدب وتدرّب على فنونه ،
لا بد له من جو المعانى التى يلبس بها كتابته ، فما الكتابة والشعر بشىء بدون
المعانى الرائعة التى تعبر عنها ، فهى بمثابة الروح والألفاظ كساء لها .

إذا كيف توفرت للنديم الينايع الخالدة من المعانى التى سميت بكتباته ؟
وجعلت منه الكاتب الخالد الذى رسم للشعب أحلامه المقبلة ، وعبر عن
أفراحه جميعاً ، وعرض مشا كل المجتمع عرضاً لم يسبقه فيه كاتب من قبل ؟
كانت نشأته فى صميم الأحياء الشعبية مع رهاقة حسه ، ويقظة نفسه ،
وفقرة وبؤسه أول مدرسة مكنته ، أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب
وأدبه من أمثال وحكايات ووجوه معاملات ، وصفوف تصرفات ، ورسم
ذلك كله فى نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر فى حياته .

وكانت أول حرفة احترفها النديم لكسب رزقه هى حرفة إرسال
البرقيات (تلغرافى) بينها ثم نقل إلى قصر الوالدة (بجاردن سى) . وقد
تأثر النديم بالجو الذى يعيش فيه أصحاب هذا القصر المنيف وألم بكل مافيه

وأدرك مبلغ ما يحيط بالأمراء والحكام من نعيم وما يعيش فيه الفقراء وهم غالبية الشعب من بؤس وإملاق ١١

فحفظ على هذه الطبقة من المترفين ، وحقد عليها لا سيما أن ما تتمتع به من ضروب الترف والاستمتاع إنما على حساب هذا الشعب ومن امتصاص دمه ثم أصبح النائر الأول على بيت محمد على ؟

وقد اصطدم أثناء عمله فيه ، بخادم كبير ذى نفوذ عظيم فى البلاد وهو خليل أغا أراد أن يفرض عليه بطشة وسلطانه ، ولكن النديم ثار لحرسته وكرامته لأول مرة فى حياته وأبى الأذعان لطغيان هذا الرجل فطرد من القصر - وهذا ما أحفظه أكثر ، لأنه إذا كان هذا مدى ظلم الخدم والأغوات فكى بالآخرى يكون ظلم الأمراء . . .

وأثناء عمله بالقاهرة ، اتصل بمجالس الأدب بها وبصفة خاصة بمجلس البارودى كما ذكرنا آنفا ، وقد استمد من هذا المجلس أحسن توجيهاته فى الأدب والشعر ويعد النديم من تلاميذ مدرسة محمود سامى البارودى الأولى فى الشعر .

ثم أخذ يطوف بالقرى والأقاليم ، ويستزيره الأعيان والأغنياء رغبة فى تعليم أولادهم حيناً ، ورغبة فى أدبه وسمره حيناً آخر ، وتوفر له فى هذه الجولات أن يلم بالمأما كافياً بأحوال الريف المصرى ، وأساليب وعادات سكانه فى ظروف حياتهم المختلفة ، وقد وقف على ما يعانيه الفلاحون من ظلم واستعباد ، فى المزارع الواسعة التى يملكها الحكام والأمراء . وكيف يسامون فيها سوم الخسف والهوان .

وكانت هذه الفترة من حياته ذات أثر بالغ على كتاباته وأدبه فيما بعد ، فقد سجل تلك المشاهد بدقة وأمانة ، ووجه دعوته للإصلاح على أساسها .

ثم حط رحاله يوماً في طنطا أثناء المولد الأحمدي سنة ١٢٩٤ هـ ثم كان من أمر مساجلته بعض الرجالين ، ووصول أمره إلى شاهين باشا . مفتش الوجه البحري واستدعائه له وإعجابه بأدبه وتنظيمه حفلة أدبية رائعة فيها ساجل المترجم كبار الأدب ، وانتصر عليهم فنال من هذا الحادث شهرة - طبقت الآفاق - في الزجل والأدب .

ثم عاد أخيراً إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩ م ، وهو أكثر خبرة بالدنيا فيما لقي من عظماء ووجهاء وأدباء وفيما رأى وسمع وعمل في القصر العالي أيام كان موظفاً في (مكتب البرق فيه) وفي التجارة أيام تاجر وأفلس وبأخلاق الفلاحين . . . متأثراً بهذه الحوادث والخبرات المكتسبة من هذه البيئات المتعددة وقد قال عن نفسه :

أخذت عن العلماء وجالست الأدباء وخالطت الأمراء وداخلت الحكام وعاشرت أعيان البلاد وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ما هم فيه من جهالة ومهم يتألمون وماذا يرجون خالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين والممت بما انطبع في صدورهم عن أشعة الغربيين ، ورأيت أفكارهم عالية وسافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم واختلطت بكابر التجار وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والأدب وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة واستخدمت في الحكومة المصرية وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة - واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كسائي نحول الشيخوخة في زمن بضاعة الصبا . وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورني تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين) .

ولابد لنا في سبيل تحرى المؤثرات التي تأثرت بها كتابته وأدبه أن نشرح نوع الثقافة التي أمانته على مهمته وإن كانت هذه الثقافة ليست ثمرة مدرسة أو جامعة ولكن ثمرة الحياة التي كان يحياها هذا المخامر الحر .

حدثنا أحمد سمير في ترجمة حياة النديم قال :

« وله - أى النديم - من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات منها ديوان شعر يشتمل على نحو ثلاثة آلاف بيت وروايتاه الوطن ، والعرب ، ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدي جامعي السلافة منها إلا إلى أربعة عشرة رسالة بعد السعي الكثير ومكابدة العناء ، (وكان يكون) وهو الذي طبع بعضه في الاستاذ) وواحد وعشرون كتاباً في فنون مختلفة قطع لا تجلها أيام حرب الاختفاء ، رقاب الفراغ بسيوف الأقلام ، منها ديوان شعر يحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت وكتاب النحلة في الرحلة - الاحتفاء في الاختفاء - والشرك في المشترك وكتاب المترادفات - وآخر في اللغة سماه موحد الفصول وجامع الأصول - والفرائد في العقائد ، اللآلئ والدرر في فوائج السور - البديع في مدح الشفييع - أمثال العرب ... الخ .

ثم قال أحمد سمير :

(ولضياح أغلب مؤلفاته بواعث شتى منها ، أنه كان إذا سود شيئاً جاء إليه منى يستعيره منه ثم لا يرده . ومنها احتراق بيته الذي كان يسكن فيه في الدقيلية في حادثة ، واحتراق ما كان فيه من كتبه - وسرقة كتبه وبعض متاع بيته أثناء مقامه بالمنصورة للاتجار - ومنها أن والده هاجر من الاسكندرية إلى القاهرة فيمن هاجر يوم الحرب الأخيرة (الثورة العراقية) فأحضر معه كتبه جميعها ، وملاً بها وبقايا أمتعته عربة نقل من عربات للسكك الحديدية ، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات وازدحم المسافرون من المهاجرين

وغيرهم ازدحاما هائلا لم يسع رجال المحطة إلا أن رموا جميع ما بتلك العربية في النيل ليركب الناس فيها) .

ونحن إن لم نطلع على هذه الكتب التي ألفها النديم فإننا نستطيع أن نقول أن أهم موضوعاتها الشعر والتمثيل والأدب واللغة والفقه والتصوف والبديع والظاهر أنها لم تكن تعدو ذلك فتقافته إذا ثقافة لغوية أدبية دينية في أكثرها .

وحبذا لو تعددت ثقافة هذا الرجل وكان ملبا بلغات أجنبية ، متعلما على الطريقة المنظمة ، لكان لنا من بعده تراث ضخم ، نفاخر به الدنيا ونباهي به أدب العالمين ١١

وكان يطالع أثناء استخفائه تفسير القرآن لأبي السعود وقاموس الفيروز آبادي — ود الوافي ، في المسألة الشرقية لآمين شمیل وجغرافية ملطبرون الذي ترجمه الشيخ رفاعة .

ومن أعظم المؤثرات على شخصيته كموجه شعبي عظيم ، وبوصفه خطيب مصر الاوحد وكاتبها الاول في عصر الثورة العرابية ، اتصاله بالزعيم العظيم وفيلسوف الشرق السيد جمال الدين الافغانى - فقد اتصل به في القاهرة وفي الإسكندرية وتلقى عنه في مدرسته الغير نظامية ، وفي اجتماعاته ، جميع مبادئه السياسية والاجتماعية وبعد النديم من أوفى تلاميذ الافغانى له ولمبادئه أن لم يكن أنبجهم ، وقد أخذ الافغانى على تلميذه العظيم الشيخ محمد عبده (١)

(١) كان يرسل خطابات له لأستاذه الافغانى غفلا من التوقيع خوفا وجبناً كما أنه اتخذ سياسة مهادنة الانجليز وصدقتهم بدلا من محاربتهم وهذا مخالف لمبادئ الافغانى وكان لذلك خصما لمصطفى كامل .

تردده في تنفيذ مبادئه وجنبه ، وعلى محمود سامي البارودي باشا^(١) خيانتته له
أما النديم فقد أخلص للأفغانى ولمبادئه حتى النفس الأخير . وكان سميره
الآثير في المنفى ، وحينما زار الخديو عباس تركيا اجتمع بالإثنين في متنزه
(الكاغدخانة) باسطنبول وكان الأفغانى أول من شيع النديم إلى مقره
الأخير حين وفاته .

لذلك نرى لزاما علينا أن نكتب فصلا عن تاريخ ذلك الزعيم الجليل
وبصفة خاصة عن نشاطه في الفترة التي قضاها في ربوع وادى النيل ينشر
تعاليمه ويعلم حوارية ومريديه لأن النهضة الوطنية في مصر مدينة له .

(١) كان نفي الأفغانى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامي البارودي ناظر
الوقوف في ذلك الحين واشترك في هذا القرار .

جمال الدين الأفغانى أستاذہ الأول

فى اليوم التاسع من شهر مارس ١٨٩٧ قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الناصر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغانى ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ومسح عن عيون الشرقيين ما فترها من همد الكرى .

وجلا عن قلوب المسلمين ما غشاها من صدا الجهل فاطمان الاستبداد وأمن الاستعمار وظن الذين ينقضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أيادهم ليملاؤوا كروشهم ، إن الصوت قد خفت ، وأن المشعل قد انطفأ ، ولكنهم نسوا أن الرسل يبلغون والله يشهد وأن المصلحين يبنون والدهر ينيب وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثت فى يومها الموعود كما تنفجر المكظوم فيدوى ، ويحلو لك الليل فيصبح ، وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شها العراييون ثم المهديون ثم السعديون ثم الفهلويون إلا إقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الأفغانى وتنقل بها فى محالك الشرق يحرق ويضىء ، وينضج ويحمى ويقبس ويشعل وساعده مرفوعة لا تسكل ، وعزيمته ماضية لا تسكل .

لقد ظل الشرق قروناً عديدة ، رازحاً تحت نير الجود الفكرى والتأخر العلمى والاستعباد السياسى وبقي فى سبات عميق إلى أن قىض له الحكيم الأفغانى جمال الدين فنفس فيه روح اليقظة والحياة وأهاب بالنفوس أن تنهض ، وبالعقول أن تستيقظ وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

ولد الأفغانى سنة ١٨٣٨ فى أسعد آباد من بيت طويل النجاد ، رفيع العمد ، يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين ، سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم

الأفغانية ، كما درج في بيئته على روح الإعتزاز بطباع البداوة من حرية وحمية ، وأريحية وأنفه ، وقد درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل على منهاج محيط شامل وحذق في مراحل حياته ، ومواطن رحلاته ، اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية وألم بالإنجليزية والروسية فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث وقد طوف ماشاء الله أن يطوف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركيا وانجلترا وفرنسا وروسيا فإزداد بصرا بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ومن بلاده أفغانستان التي تقع بين الهند وإيران ما أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المدل المدل ، تتوالب عليها قوى الإنجليز والروس ، ظاهره وباطنه ، فهاله منذ شب ، عدوان الأجنبي على استقلال أمته وجيرته . وكل ما ذكرنا من كرم المحتد وشرف المولد ، وبراعة البيئة وعمق الثقافة وحذق اللغات وإدمان الرحلة ومعاناة الاستبداد ومكابدة الاستعمار لم يخلق وحده الرجل المصلح في جمال الدين . وإنما كان مساعدا لسر العبقرية الذي أكنه الله فيه ، على أن يظهر مهياً الأسباب مستكمل الوسائل .

كان رضى الله عنه ، متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه حر ، ندى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى ، أبى الضيم لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل ، ولم يبتغ من وراء هذه الصفات كما قال - إلا سكينه القلب . وكان يحمد الله على أن أتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول .

ومن نماذج هذه الشبائل وتلك الوسائل فيه ، اتسعت حوله الأرض وامتد أمامه الأفق وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله والشرق الإنسانى كله . فجعل هدفه لإنهاضها بالوحدة

— ١٠٧ —

الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر وبالحكومة الدستورية لتقمع شره المستبد .
وقد آمن بهذه الدعوى لإيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة
والنفي سياحة والقتل شهادة .

تولى الوزارة وهو في ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم . فجمع نفسه
على الإستقلال وأدار أمره على الشورى فأوجس الإنجليز خيفة من هذه
الزعة فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة ومزق الكلمة وطرد الأمير
وخرج السيد إلى الهند يبتغي السكينة عند تاجر صديق فاستقبله الإنجليز على
الحدود وأنزلوه بالإكرام ضيفاً على الحكومة فسألهم الإقامة شهرين ولكنهم
حين رأوا إقبال الناس عليه وإصغاهم الشديد له قصروا هذه المدة وأمروه
بالخروج وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال للزعماء الهنود
وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل . لو أن ملايينكم مسخت ذباباً لأخرجت
الإنجليز بطنينها من الهند ولو انقلبت سلاحف ، وغاضت البحر إلى الجزر
البريطانية ، لجذبتها إلى القاع » .

وفي الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان
الدولة محل الكرامة ثم عين عضواً في مجلس المعارف . فرأى في التعليم رايًا
وخطب في الصناعة خطبة أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وأخوان
الضلال من شيوخ الدين . وتولى قيادة الأرجاف شيخ الإسلام لحاجة في
نفسه . فافتدى على الرجل بالباطيل وبث حواليه الأرصاد فلم يجد الأفغانى
بدا من النزوح إلى القاهرة .

الحالة في عهده :

أسرفت حكومة اسماعيل في القروض ، وبدأت عواقب هذا الإسراف

تظهر للعيان رغم ما بذلته الحكومة لإخفائها بمختلف الوسائل ، وأخذت النفوس تتطلع إلى نظام الحكم بعد ، إذ أحست مرارة الاستبداد وهاتها فداحة القروض التي كبلت البلاد بقيود تدخل الدول .

ويمكننا أن نحدد أواخر سنة ١٨٧٥ وأوائل سنة ١٨٧٦ كبداً للتدخل الأوربي إذ حدث من مظاهره وقتئذ ، شراء إنجلترا أسهم مصر في القناة ثم قدوم بعثة المتر « كيف ، الإنجليزية لفحص مالية مصر ثم توقف الحكومة عن أداء أقساط ديونها وما أعقب ذلك من إنشاء صندوق الدين في مايو سنة ١٨٧٦

فهذا التدخل كان من الأسباب الجوهرية التي حفزت النفوس إلى التبرم بنظام الحكم والتخلص من مساوئه لأن سياسة الحكومة هي التي أفضت إلى تدخل الدول في شئون البلاد ، وامتهانها كرامتها واستقلالها .

ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية ووجدت مبادئ حكيم الشرق وتعاليمه سيلا إلى النفوس فكانت من العوامل الهامة في ظهور هذه النهضة التي شغلت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل وكانت من أعظم أدوار الحركة القومية .

أثره العلمي والأدبي :

أقام المترجم في مصر وأخذ يثبت تعاليمه في نفوس تلاميذه ، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان ، وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجود والأوهام ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة في مصر خطوات واسعة ، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والاعيان وغيرهم .

وكان للأفغانى الأثر البالغ في نهضة العلوم والآداب في مصر ولا يفوتنا

القول بأن البيئته التي نهض بها كانت مستعدة للرقى صالحة لغرس بذور هذه النهضة وظهور ثمارها ، ولولا هذا الاستعداد لقضى على هذه الدعوة في مهدها ، ولا أخفق في مصر كما أخفق في الآستانة - وهذا يبين لنا جانبا من مكانة مصر وسبقها الاقطار الشرقية في التقدم العلمى والفكرى والسياسى .

ويزيد هذه الحقيقة وضوحا ، أنك إذا استعرضت حياة جمال الدين الافغانى العامة وما تركه من الاثر فى مختلف الاقطار الشرقية التى بث فيها دعوته ، وجدت أثره فى مصر أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الاخرى .

ولقد جاء المترجم مصر يحمل بين جنبيه روحا كبيرة ونفسا قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية ، أنبتتها الوراثة والتربية الاولى ، وهذبها الحكمة والمعرفة ومحصنها الحياة الحرة التى نحاض غمارها فى بلاد الافغان ، والتجارب التى مارسها والشدائد التى عاناها .

جاء وفيه من الشمم والإيثار ما صدفه أن يطأطئ الرأس أو يقيم على الضيم ، وفيه من الثبات ما جعله يتغلب على العقبات التى اعترضته فى أدوار حياته .

فهذه الاخلاق التى جاء بها جمال الدين كانت بلا مراء أقوى مما عرف عن المجتمع المصرى فى ذلك العهد ، من خفض الجناح ، والصبر على الضيم ، والخضوع للحكام وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبى على النفوس وما تؤثر فيها من طريق القدوة . فأخذ السيد يبث فى النفوس روح العزة والشهامة ، ويحارب روح الذل والاستكانة ، فكان بنفسيته ودروسه ، وأحاديثه ومناهجه فى الحياة مدرسة أخلاقية رفعت من مستوى النفوس فى مصر ، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحويل الذى بدا على الأمة وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة إلى التطلع إلى الحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول فى شئون البلاد .

طريقته في نشر دعوته

نشاطه التعليمي :

كان نشاطه التعليمي ذا شعبتين :

(أ) دروس عليية منظمة يلقيا في بيته في « خان الخليل » على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه، أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ إبراهيم اللقاني والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوى يشرح لهم فيها كتب المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة، ثم يتخذها الأفغانى تكأه يستند عليها في شرح أفكاره وآرائه والتبسط في مناحى الفكر .

(ب) دروس غير منظمة : —

١ — كان يلقيا على زواره في بيته .

أو ٢ — يلقيا على عظماء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم .

أو ٣ — يلقيا على خاصة المفكرين والمثقفين عند تملقهم حوله في (قهوة متاتيا) بميدان العتبة الخضراء وجمهور الناس عند اجتماعهم به في المناسبات .

وفي هذه المدرسة تلقى دروسه لفيف من المفكرين الذين أصبحوا قادة الرأى فيما بعد أمثال محمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وأخيه إبراهيم المويلحى ومن الشباب أمثال محمد عبده وعبد الله النديم وسعد زغلول وإبراهيم اللقاني وعلى مظهر وسليم نقاش وأديب إسحاق وغيرهم .

المحافل الماسونية :

ولقد أفاد دعوته اشتراكه في المحافل الماسونية التى كانت تجمع النخبة

من المفكرين والناهضين المصريين وقد اشترك أولاً في المحفل الماسونى الاسكتلندى آملاً في أن يثبت عن طريقه آراءه ولكنه أخفق فاستقال ، وأنشأ محفلاً ماسونياً آخر تابعاً للشرق الفرنسى وسرعان ما بلغ أعضاؤه ، أكثر من ثلثمائة عضو من خيرة النابهين ، وقد كان له مطلق الحرية في تنظيمه فنظم نشاطه لعدة شعب ، وجعل لكل وزارة من الوزارات شعبة تدرس شئونها وتقترح الآراء الصائبة ، ثم تتصل كل شعبة بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح وكان ذلك سنة ١٨٧٨ ، وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله ، ثم ها هو ذا يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفله .

آثار هذه الدروس :

١ - شجع بعض الكتاب من تلاميذه على إنشاء الجرائد ، وكان يكتب فيها ويستكتب من يتوسم فيه المقدرة ، فأنشأ أديب اسحق جريدة « مصر » ثم جريدة « التجارة » بالإسكندرية وقد استكتب لها تين الصحيفتين الشيخ محمد عبده و ابراهيم اللقاني .

٢ - وجه الكتاب من أنصار مبادئه للكتابة في الوقائع المصرية وأمثالها بإرشاده وتوجيهه فربى بذلك طائفة من الكتاب تحسن الكتابة وتحسن اختيار المواضيع التي تمس حياة الأمة في صميمها ، وتنبذ السجع المملول وتحرر من قيود الصناعة اللفظية .

٣ - تكونت من دروسه الغير نظامية مدرسة تجيد السمر والحديث وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد وعلاج كل الموضوعات الوطنية والاجتماعية بأسلوب واضح وتفكير منطقي سليم أمثال محمد عبده وسعد زغلول واهلباوى وعبد الله النديم .

قال الشيخ محمد عبده في وصف حال مصر قبل مجيء « جمال الدين » ،

« إن أهالي مصر قبل ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى أو من يستنيبه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكلان إلى أمانته وعدله ، أو خيائته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يديه في إدارة بلاده ، أو لإرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيها صلاحاً لأمته : . ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا ، وتعلم فيها في عهد محمد علي لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن اسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ هـ وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة غير التي يوجهه إليها الحاكم ، لما أمكنه ذلك فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن أو إزهاقاً للروح أو تجريدًا من المسال ، .

فكان الأدب ظلًا لهذا الموقف ، وصورة صادقة لهذا المنظر — فأدباء مصر أمثال السيد علي أبي النصر والشيخ علي الليثي وعبد الله فكري باشا تتصفح آثارهم فإذا ترى — غزلا في حبيب أو رسالة إلى صديق أو مدحا لأمير أو استعطافا له أو وصف سفينة أو شكر آ على هدية . أما مصر وحالة شعبها وبؤس قوامها وظلم حكامها وحقوق الناس وواجبات الحكومة فلم نعتز منها على شيء . فكان من آثار مدرسة الأفغانى تحول مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال ، وتسخيره في خدمة الشعب والمطالبة بحقوقه ورفع الظلم عنه ومهاجمة من يعتدى عليه كائنًا من كان ، وكان يبعث فيهم الجرأة ،

ويحرضهم أن يخرجوا من الظلماء إلى النور ولا يخشوا بأس الحاكم ، وأن يلجوا في طاب حقوقهم المخصوصة وسيادتهم المسلوية تخرج على الناس بأدب جديد ينشد الحرية ويخلع العبودية ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم ويجعل من الأدب مشرفاً على الأمراء لا سائلاً يمد يده للأخياء .

قال سليم بك عنحورى : —

« كان من ديدن ، جمال الدين ، أن يقطع بياض نهاره في داره حتى إذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مقهى قرب ازلاكية وجلس في صدر هيئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ، ينتظم في سمطها اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيمائى والجغرافى والمهندس والطبيعى فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه وبسط أعوص الاحاجى لديه فيحل عقد اشكالها فرداً فرداً »

ويقول في موضع آخر « أنه في خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً لانه تدخل في السياسة وأخذ يقرب العوام ويقول لهم في أثناء كلامه : —
لأنكم معشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وريدتم في حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك والرعاة حتى اليوم ، وأنتم محتملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطاة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الخيف والجور وتنزل بكم الحسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون . فلو كان في عروقكم دم فيه كرات حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيت بهذا الذل وهذه المسكنة ، تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان ثم الفرس ثم العرب ثم الأمراء والمماليك وكلهم يشق جلودكم بمبضع تهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في القلاة لا حس لكم ولا صوت »

نفيه من مصر

ولقد كان الخديو توفيق من أصدقائه وأنصاره ، واجتمع به مراراً في المحفل الماسوني وعاهده على العمل بتصانحه وتوجيهاته ، التي كان منها تدعيم النظام النيابي في البلاد ثم إقصاء حاشية والده الخديو اسماعيل وقال له فيما قال : إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى ، ولكنه لما تولى الحكم تحول ضده بما سعى إليه الساعون ، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفي السيد جمال الدين الأفغانى ، وجاء في حيثيات قراره : لانه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدنيا والدين .

وقبض عليه وعلى خادمه الاُمين أبى تراب في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وأودعا باخرة سارت بهما إلى بمباى ، وكان هذا آخر العهد بالاستاذ في مصر ، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها في المجتمع المصرى وبقيت النفوس نائرة تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم وإقامته على دعائم الحرية والشورى ، فجبال الدين من الوجهة الروحية والفكرية هو أبو الثورة العربية وكثير من أقطابها من تلاميذه ومريديه ويقول سليم بك عنحور في هذا الصدد : وفى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً وسما مقامه لانه تدخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل محمود باشا سامى البارودى الذى نفي أخيراً مع الزعيم أحمد عرابى إلى جزيرة سيلان ، وعبد السلام بك المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة وأخيه ابراهيم المويلحى كاتب الضبطية وكثير سواد الذين يخدمون أفكاره ويعلون بين الناس مناره من أرباب الاقلام ، مثل الشيخ محمد عبده و ابراهيم اللقانى وعلى بك مظهر والشاعر الزرقانى وأبى الوفاء القونى وسليم النقاش وأديب اسحق وعبد الله النديم فى الاسكندرية .

وبعد أن أقام بالهند حتى انقضاء الثورة العراقية سافر لأوروبا وانتقلت الشعلة إلى باريس وسطعت في العروة الوثقى وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط . حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة .

وكانت له بحوث قيمة مع الفيلسوف ارنست رينان وجهاد سياسى فى إيران سنة ١٨٨٩ فقد استقدمه الشاه واستوزره فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه ، واستأذنه قيصر روسيا واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه ، واستدعاه خاقان الترك واستشاره فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد بين عينيه ، ولكنه أطف الجواب للحكيم الشجاع وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين ، حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدر . . .

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضياً فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى ، كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود . . طيب الله ذكرى هذا الإمام العظيم . . .

(٣) صورته الجسدية والنفسية

كان متوسط القامة نحيل الجسم حنطى اللون ضعيف ، البدن على وجهه تبدو علامت التعب والكد ، وكان وجهه إلى الدمامة أقرب وقد رسمت الآلام والأشجان - خطوطها على صفحته ، وربما كان لضعف جسمه وكثرة عاله ، موت أطفاله جميعاً فى طفولتهم ، فقد رزق قبل الاستخفاء بمحمد وعثمان

ولياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة كما رزق أيام الاستخفاء بمخضه ورثا وكلمهم لم يعيش طويلا ومع هذا فهو على مرضه - فقد بذ أقوياء الجسم في نشاطه الدائب وشدة إقباله على أى عمل يوكل إليه لا يعتريه كلال ولا يصيبه ملل ، يود أن يخلد اسمه بالعمل بعد أن حرم تخليد اسمه بالولد .

ومع أنه لم يكن وسيم المظهر فإن طلاقة لسانه وخفة روحه وسرعة بديته قد غطى على قبح منظره فأحبه الناس وأصبح نديم الملوك والعظماء .
كان في حياة النديم شيء من التهريج ، فليس هو جاد في كل أمر بل اتسمت بعض تصرفاته بالبساطة حتى أنه بعد ما كان يرتدى في أول أمره الثياب الأفرنجية غداً بعد اختفائه ، يظهر مرتدياً الجبة والقفطان معتماً بعمامة خضراء ، مدعياً أنه شريف ادريسي ينتسب إلى الحسن بن علي ولم تكن دعواه الأخيرة على جانب كبير من الصحة . وما دفعه إلى ذلك سوى معرفته أخلاق الناس وطباعهم وتمجيدهم ذوى الأنساب العريقة والثروات العريضة وقد كان عاطلاً من هذا وذاك .

كان من دعائم شهرته قوة لسنه وذكائه . قال عنه المرحوم أحمد تيمور باشا (كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء لياس وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا) .

وقال عنه المرحوم جورجى زيدان بك :

(أما أخلاقه فكان باراً بالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض شيئاً وطالب به ، ولا رد يوماً سائلاً ولا خضع لعظيم قط وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأواسطهم وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ثائراً) .

وقال عنه الزعيم العظيم جمال الدين الأفغانى :-

(لأنه ما رأى مثل النديم طوال حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة
وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكماً يازاء معانيها إذا
خاطب أو كتب)

وكان كريماً بالناس من كافة الطبقات برأ بالفقراء لا يرضن عليهم بماله
أو جهده ، وفيأ شهماً إذا أقرض أحداً لا يطالبه بقرضه ، غير مقتز ، فكلما
أتاه من المال أنفق على الناس وكان طاهر القلب عف الضمير وقف قلبه
ولسانه للحث على الأخلاق والفضائل الوطنية ونشر على الناس عن الرزائل
المنتفشية فيهم بكل جراءة وصراحة .

وقد اتسع صدره للضعفاء والمظلومين من أبناء الوطن فكلأهم بعنايته
واخفض لهم جناحه وأوسع لهم مجال عطفه وحده ولسكنه تميز غضباً
ومقتاً من الظالمين والعلغاة ، فإذا غضب على أحدهم فهو يندفع لمساجلته شاهرأ
أسنان قلبه موجهاً ، كل قوته نحوه ، مشهراً به ناشراً صفحات ظلمه على الملأ
فى غير ما خوف ولا تردد .

كان لطيف المحاضر فصيح الكلام فإذا تكلم أنصتت إليه الآذان ،
وشربت حديثه العذب ، كل الطباع اصطنع كل أساليب الأحاديث فى
عهده ومرن عليها وأتقنها ، فلو تحدث مع العامة ومحدودى الثقافة استطاع
أن يؤثر فيهم ويرشدهم ويوجههم ، وإذا تحدث إلى كبار الناس من الساسة
وزعماء الرأى أرغهم على الإعجاب به ، بما أوتيته من ذخائر المعانى وناصع
البراهين وقوة الأدلة وكذلك أتقن الحديث بجميع لهجات اللغة العربية
فى أجزاء القطر ، وفى بلاد العروبة جمعاء وقد أعانه ذلك كثيراً فى
وقت استخفائه .

تقلب فى حياته على صور مختلفة وتردد ذكره بين الناس - أنباء

استخفائه - محوطا بهالات من الأسرار - فهو في أول حياته شخص فقير مغمور ، يختلط بالسوقة وغمار الناس ثم بعدها يظهر كأديب ملحوظ ، ذا قدرة في صناعة اللسان ، ثم يوما يشتغل كعلم ترمقه الأنظار بالتجلة والاعتبار ثم هو بعد ذلك صحن مشهور وخطيب عظيم وموجه للرأى العام ثم فجأة يختفى فإذا هو أسطورة من الأساطير تختلف بأسبابه الظنون وتختلط عن شخصيته الأوهام بالحقائق ؟؟؟

وقد كان محبوبا من الشعب ، كل من ذاق حديثه استعذب أن يدوم استماعه ر ولو طال الوقت ، لا تفارقه بسمته العذبة ولا شعاعه عينيه المتألقين - ينساب حديثه حلوا هادئا كالجدول الرقاق يختال بين الزروع والأزهار ذا صوت جميل الوقع حسن الجرس .

وإذا ما اعتلا منصة الخطابة ووقف بين الجماهير فان لصوته هديرا كال موج وقصفا كالرعد لا سيما إذا ثار وزجر وأكثر ما تكون ثورته على أعداء الشعب من الحكام والظالمين وعلى فوضى الجهل والمساوىء الاجتماعية - ثم يختلف صوته في الخطابة كلما تغيرت معانيه فهو إذا هدا فان صوته كعزيف الريح الرخاء حينما تهب هبوا خفيفا فتتحرك الغصون والأشجار أو هو كاهن هادىء قوى الرنين شديد الحنين ، كان خطيب مصر فى أعنف مرحلة من مراحل تاريخها الطويل ، مرحلة الثورة على الاستعباد والظلم فكان لخطابته أعظم الاثر فى تنبيه الشعب .

لم تفارقه حلاوة حديثه فى كل ظروف حياته ، حتى أثناء هروبه حين كان مشردا هاتما يطوف الفيا فى والقرى عابرا بالدساكر والمزارع فكان الناس يندهشون من حديثه الذى يشبه حديث النديم وهم يعتقدون أنه شخص آخر ثم يقولون « لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » سبحانك اللهم على

قدرتك لقد مات النديم وذهب إلى رحمة الله ولكن هذا الشخص يشبهه في كل شيء .

وفي عهد الثورة العراقية انقلبت مصر مسرحاً للخطباء في كل مجتمع وناد ، حتى في المساجد ولم يبق مجلس للسمر أو الاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنيين بعد إقصائهم عنها ، حتى لقد اشتهر أن محمد عثمان المغني المشهور إذا سئل - في أي فرح تغنى الليلة - أجاب : في الفرح الفلاني مع عبد الله نديم ، فكان النديم جلوة المجتمعات وبهجة المنتديات كأنما لم يكتف الناس لأطراهم في أفراحهم بالموسيقى والمغني والدفاف ، والزمار ولكن كان في خطب النديم وسلاسة عباراتها وروعة معانيها وفناذ تأثيرها في الهاب شعور السامعين ، أبلغ غذاء روحى تسمو به النفوس إلى ذرى الإحساس الوطني الرفيع .

ونحن إذا شئنا أن نستكمل الصورة النفسية لذلك العبقري ، قلنا أن الرجل كان رقيق القلب ، صاحب نفس متألمة معذبة ، فرقة قلبه تتمثل في إنسانيته وتسيل على شباة قلبه ، فإذا قرأت كتاباته في هذه الألوان مال قلبك إليه وأحببته وانعقدت بين قلبك وقلبه مودة أو اصرها من نسج السماء .

اقرأ كتاباته عن المعذبين سواء في معسكرات التسخير في مزارع الحديد والامراء أو عن المظلومين بأى نوع من الظلم أو المحرومين من الحرية الجميلة حرية الأخلاق والفضائل ، الذين يعيشون كما تعيش السوائم بلا حس ولا فكر أو الذين يرتعون في نعيم الجهالة وغياهب الوحامة وبؤر الإدمان والمخدرات ، تحس أن الرجل يكتب بقلبه ومن قطع نفسه ومن زفرات صدره ، وأن معانيه تفيض أسى ولوعة وحسرة .

قال عنه الأستاذ أحمد أمين : طالما غذى الناس بقلبه . وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال السياسة ، ونازل

خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، وعلى أى حال كان ، حتى هدأه الموت الذى يهدى كل نائر ، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيما ، وكانت جريدة « الأساذ » هى الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والنعمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والاسلوب بحكم الزمن والاحداث والظروف .

ويقول العقاد عنه : كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعاً ، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الاول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكأنما يرتجل الخطابة لسهولة منحاه ، وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، ألا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة ، وكان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات فى تاريخ الادب المصرى الحديث .

ومن أقوال أحمد عرابى عنه حينما كان مع الجيش يوم ثورة عابدين ، يشد أزر الرجال ويثبت قلوبهم :

« فإل صديق الأعز الهمام ، صاحب العزة والعزم القوى السيد عبد الله نديم بن الصفوف ينادى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنهى إلى أمر الله) ، فكان معى ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيف والارتجاف ، وأخذ يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه فى تلك الساعة (١)

الفصل الثالث

آثار النديم الثقافية

- ١ (أثره في التعليم .
- ٢ (المسرح المدرسى .
- ٣ (إصلاح الأزهر .
- ٤ (سعيه في سبيل اللغة العربية ؟
- ٥ (دعوته إلى إنشاء المجمع اللغوى .

اثره في التعليم

الجمعية الخيرية الإسلامية (الأولى) تأسست سنة ١٨٧٨

ثم اتجهت هذه الجمعية السياسية الأولى إلى تغيير ظروفها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، لها أغراض عملية ظاهرة ، فتسمت باسم الجمعية الخيرية الإسلامية وآلت على نفسها متابعة أهدافها الأولى من السعى في سبيل التحرر من نير الظلم والاستبداد ومقاومة استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية ثم عولت على تنفيذ برنامج لإنشائي قوى ، فاستحدثت غرضاً جديداً لها وهو فتح المدارس لتعليم أبناء الشعب وتهذيب أخلاقهم فكانت بذلك أول جمعية خيرية تنشأ لغرض فتح المدارس الحرة وإرساء قواعد التعليم الحر في البلاد، وكانت توالى نشاطها السياسى ، فكانت دارها بالمساء بمثابة ندوة كبيرة للخطابة السياسية والعلمية ، وقد اختارت الجمعية عبد الله النديم ليكون مديراً لهذه المدرسة ، وقد شجعت الحكومة هذه الجمعية الناشئة في غرضها العظيم فصاغت على قانون تأسيسها ، وأخضعت المدرسة لإشرافها وتفتيشها ، وكان من أعضاء هذه الجمعية العاملين : حسن منصور والدكتور حسن سرى ومحمد شكرى معاون ضبطية اسكندرية والحاج أمين الكيال، الشيخ محي الدين البنهاى ومحمود واصف والشيخ على ضيف وحسن المصرى وعبد المجيد عمر شويطر ورستم بك العلايلى وأحمد نبيه ومحمد باشا الناضورى ومحمد بك العدل وعبد القادر الغريانى بك — وكانت تشرف على المدرسة لجنة من أعيان الإسكندرية تحت رعاية الخديو توفيق ورئاسة محافظ الاسكندرية (وذلك من مذكرات المرحوم حفى بك ناصف) وقد حصل شقاق فى هذه اللجنة فاستقال المحافظ من إدارتها وتولاها آخر . ومكثت المدرسة تؤدى رسالتها .

نبذة عن التعليم في عهد إسماعيل :

لا بد أن نشير هنا إلى أسلوب التعليم في عهد إسماعيل ، حتى نستطيع أن ندرك أهداف السياسة الجديدة التي اختطها النسييم لمدرسته وندرك كذلك مميزاتا .

كان عدد المدارس التابعة لوزارة المعارف في عهد إسماعيل — ١٢ مدرسة ما بين عالية وثانوية وابتدائية - فقد جاء في خطبة العرش التي ألقاها الخديو إسماعيل في مجلس شورى النواب في ٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ أن المدارس التابعة للحكومة في جميع القطر هي :

بالقاهرة - مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية والمهندسخانة والأبنية والإدارة والالسن (الحقوق) والمساحة والمحاسبة والعمليات (الفنون والصنائع ومدرسة الرسم) .

وبالاسكندرية - المدرسة الابتدائية والمدرسة التجهيزية والمدرسة البحرية .
وبالاقليم — مدرسة طنطا ومدرسة أسيوط .

نظام التعليم بمدارس الحكومة :

كان التعليم في مدارس الحكومة في مبدأ الأمر داخليا كله على نفقتها ، مع المأكل والملبس - وكانت مواد الدراسة - التركية والفرنسية والانجليزية والالمانية والعربي ثم المواد العلمية الاخرى مثل الحساب والجغرافية والتاريخ والهندسة والرسم والخط العربي والخط الافرنكي ... الخ وكان أولو الأمر يهتمون بتعليم اللغة التركية بجانب تعليم اللغة العربية - وكان الإشراف العام على الطلبة من حيث دخولهم واتقائهم داخل المدرسة وخارجها ذا صبغة عسكرية فكان ضباط المدارس يطبقون عليهم بما هو أشبه بالنظام العسكري كما كان هناك بعض البروجية من السودانيين ، للمساعدة في تنظيم الخطوط على إيقاع البروجي أثناء السير

وفهم من هذا أن النظام الذى كان يطبق على الطلبة كان أبعد ما يكون ، عن المنهج القويم للتعليم الصحيح والتربية ، بل هو نظام جاف قاتم ، لا يكون مواطنين صالحين قد تشبعوا بحب وطنهم وتهذبوا بالآداب القويمة المبينة على الحب لاعلى الرهبة - وقد زاد الطين بلة ، ما فرض من أساليب للعقاب ، فى غاية القسوة والعسف ، فكان المتبع أما إعطاءهم الخبز دون إدام ، أو الجثو على الركبتين أو استعمال سوط (الزخمة) من الجلد لضرب الطلبة على أرجلهم بواسطة (الفلقة) لشد أرجلهم بها ، وكذلك الحبس فى الزاوية بالمدرسة وهى حجرة بها منفذ بسيط .

ثم أنشئت بعد ذلك الأقسام الخارجية بالمدارس ، وفرضت المصروفات فى أول الأمر على بعض التلاميذ دون نظام معين بل كانت بحسب مقدرة ولى أمر الطالب المالية ، وبدىء بتنفيذ ذلك النظام فى مدرسة المبتديان والمدرسة التجريبية :

* * *

بعد أن استرجعنا من الماضى صورة الجو المدرسى فى ذلك العهد ، سنرى ماذا فعل ذلك المعلم الجديد ؛ الذى لم تخرجه جامعة ولم يتعلم فى أى مدرسة نظامية فى حياته . ذلك المعلم الفريد فى تاريخ مصر بل فى التاريخ بأسره ، لأن النظام الذى أقامه فى التعليم منذ حوالى قرن ، يتفق مع أحدث مبادئ التربية الحديثة المعمول بها فى أحدث المدارس فى العالم .

١ - تولى عبد الله النديم إدارة المدرسة فغير النمط الجاف الذى كانت عليه المدارس الحكومية إذ ذاك - وأضاف إلى تعليم مبادئ العلوم ، المواد التى تنبت فى النشء روح الوطنية والشعور القومى من تربية وأخلاق ودين وتاريخ .

٢ - كان يقوم هو بتعليم الإنشاء العربى والآداب .

٣ - استحدثت في هذه المدرسة مادتي التمثيل والخطابة علماً وعملاً .

٤ - كان يعلم كثيراً من أبناء الفقراء والأيتام بدون مصاريف .

٥ - كان يعنى بتشجيع الطلبة وشحن ملكاتهم وتحميسهم في دراستهم بإثابتهم بالجوائز ، وكثيراً ما كان يشتريها لهم من جيبه الخاص لشدة اهتمامه وحرصه على منفعتهم .

ولقد بلغت المدرسة شهرة بعيدة ، وكانت أول مدرسة لها برنامج على وطني وكانت أول مدرسة تعلم الخطابة تعليماً على أسس دقيقة ، وتربى في الطلبة روح الاعتداد بالذات والثقة بالنفس ، وتساعد على تكوين المواطن الصالح ، الذى يحب لغته ويتقنها ؛ وكان مراد النديم من تدريب الناشئة ، على أساليب الخطابة ، والجدل ، لبث روح النخوة ، والغيرة في أفكارهم ، وليتمكنوا إذا بلغوا مبلغ الرجال ، من أداء مقاصدهم ، بلا حياء ولا خجل ، ولتقوى في نفوسهم الثقة ، فيكافؤوا في حياتهم بعزيمة قوية وإرادة ذات مضاء ، لا يرهبون أحداً ، مهما كان شأنه .

وكانت الأمة في أشد الحاجة إلى ذلك الأسلوب الجديد من التعليم لسبب ما قضى به الحكام على أذهانها ، من الجبن والخول ، والضعف والاستكانة ، وقصور الناس عن التعبير الصادق الصريح عن آرائهم ، ضعفاً ورهبة ، حتى قال أحد الكتّاب عن ذلك العصر (أن أعظم عظيم كان لا يقدر أن يحدث نفسه في سريره نومه بشيء من دواعي الإصلاح ، خوفاً من الطيف ، أن ينم عليه كأنما كل مصرى كان هذا المقصد) كما يقول أبو الطيب - (إذا رأى غير شيء ، ظننه رجلاً) .

والتربية الحديثة تعمل على إزالة الخوف من التليذ الصغير منذ طفولته منعاً من تكوين العقد النفسية في هذا الطور من حياته العقلية ، لأنها إذا تكونت جعلت سماء حياته في المستقبل ملبدة بالمتاعب والأمراض النفسية

ووقفت حائلا بينه وبين ما يرجوه من تقدم فكرى وعلمى ، وأوقفت سير ملكاته وأخذت مواهبه ووقفت عقبة كأداء أمام طموحه وتحقيق مستقبله .

ولقد رأينا كيف كانت تسلك المدارس الحكومية مع طلبتها في إخضاعهم لنظم قاسية جافة ، وقتل روح الكرامة والعزة فيهم وجعلهم آلات صماء بلا حس ولا تفكير :

وكان المدرس في المدرسة ، بأساليبه في معاملة الطلبة ، أبعد ما يكون عن المربي الصالح ، الأمين على ما وكل إليه ، الذى يعمل على تهيئة الجو الصالح لتليذه وتعليمه الأخلاق ، والمثل العالية بالتعويد ، والقدوة والتزغيث ، لا بالقوة والعسف والتهديد .

فكان النديم بذلك من رواد التعليم في مصر ، لأنه مهد للأسلوب التربوى الصحيح ، وحق لرجال التربية في مصر أن يكرموا ذكرى هذا الزعيم الذى علم أبناء مصر على أحدث نمط تعمل على أساسه المدارس الآن في العالم أجمع

وكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات ليخطب فيها . ويقتدى به تلاميذه فيخطبوا أيضاً إما من إنشائهم الخاص ، أو من تحضير النديم ، أو أرتجالاً وذلك بعد تمرينه لإياهم ، وإرشادهم ، فأسس بذلك نخبة من الطلبة يحسنون التحرير ويحسنون القول .

وقد عزل الخديو إسماعيل أثناء عمل النديم بالمدرسة ؛ وحل محله الخديو توفيق فأنصل النديم به ، واستزاره المدرسة فزارها ، واغتتم فرصة زيارته وطلب منه تشجيعاً آخر وهى زيارة ولي العهد وشقيقه للمدرسة ، فزار المدرسة . وأعد حفلة متميزة بمناسبة قدومهما ، فوقفوا بين أيديهما وألقوا ثمانية وعشرين مقالا مختصراً ، نظماً ونثراً أغلبها من إنشاء المترجم . وكان أيضاً يعد حفلات عامة ، في بهرة المدرسة . يحضرها كبار

القوم وسراهم ، فيسمعون المطرب والمغرب من تلاميذه ؛ وهكذا تكون جيلا من الرجال ، يستطيع أن يعبر عن رأيه بصراحة غير هيب - وكان من تلاميذه (مصطفى باشا ماهر) .

جمعية التمثيل المدرسى :

تعد هذه الجمعية أقدم جمعية في مصر ، أنشأها النديم في مدرسته لتدريس التمثيل علماً وعملاً ، من درس الروايات . وطرق الإلقاء والفنون المختلفة المتصلة بالتمثيل ، وكانت هذه الجمعية تعليمية مدرسية وجاءت بعدها جمعيات مختلفة للهواة ، مثل جمعية البر الأدبي أنشئت بالإسكندرية ، وشركة التمثيل الأدبي ، وجمعية المعارف الأدبية سنة ١٩٠٠ وجمعية أنصار التمثيل والسينما وهي آخر وأهم جمعية أنشئت في القاهرة سنة ١٩١٤ وما زالت حتى الآن .

وهكذا يحل النديم في ميدان آخر وهو المسرح المدرسى في عصر كانت البلاد حديثة العهد بالتمثيل ، فعلم الطلبة أصوله وكان أول أستاذ له ، وحق لتاريخ المسرح المصرى أن يخلد في سطورهِ الخالدة اسم أول مدرس أدخل مادة التمثيل في الدراسة واستعمل المسرح ، في الأغراض الوطنية والأدبية فمثل النديم مع طلبته روايتين أدبيتين وهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » في (تياترو زينيليا) حضرها الخديو توفيق ، وكانت الروايتان من تأليفه وإخراجِهِ وتمثيله - فبلغ بهما إلى ذروة الشهرة ومنح الخديو توفيق الجمعية مائة جنيهًا تبرعا وتقديراً لها .

وهواية التمثيل تعتبر هواية نافعة كل النفع للطلبة ، وتعمل وزارة التربية والتعليم الآن على نشرها بمدارسها - فهي عدا أنها تصقل المواهب ، وتعود على الشجاعة والتعبير الصحيح السليم وتزيد الطلبة خبرة بعلوم مختلفة لها صلة بالتمثيل ، فهي تشبع الطموح وتسمو بالغرائز الطبيعية وتحل كثيراً من المشا كل النفسية كالانطواء والتردد والخجل .

يتضح مما سبق أن النديم كان رائداً من رواد التربية الحديثة فقد ألهمته عبقريته وذكاءه ، أن يستحدث هذه الأبواب الجديدة في مدرسته مما جعل نظام تعليمه يسبق الجيل الذي ظهر فيه .

وقد ذكر في مقالة له في مجلة التنكيت أن حوالى نصف طلبة مدرسته ، البالغ عددهم ٤٨٠ طالباً ، كان ييلقى العلم بدون مصروفات ، لأنهم ما بين فقير لا يقوى على الدفع ، أو يتيم لا يجد من يعاونه .

وقد رتب له إدارة الجمعية مرتباً عن إدارة المدرسة مبلع ٢٠ جنيهاً شهرياً فلم يقبل منها إلا ستة جنيهاً وبعد ذلك زيد المرتب إلى عشرة جنيهاً ثم لما مثل رواية الوطن وطالع التوفيق ، وحضرها الحديو توفيق ، كان قد أنفق على إعطائه ربع إيراد الحفلة لأنهما من مجهوده الشخصى ولكنه لم يأخذ شيئاً .

إصلاح الأزهر

الأزهر مشكاة النور للعالم الإسلامى اجمع ، تشع منه أنوار الهداية والعلم لجميع الشعوب الإسلامية ، هو الجامعة العريقة الأثيلة ، ما لها قد تراكمت عليها غيوم الإهمال ورائت عليها أسباب الخنول والرتابة إنه يغذى أقطار العروبة جمعاء بالرواد والعلماء والمرشدين ، فلماذا لا تصلح أساليبه ، وتنقح طرق التعليم فيه ، بما يتناسب ومقتضيات الظروف والأحوال ، لأن جامعات الغرب وهى أحدث منه عهداً : وأقل منه مجداً ، كانت فى ذلك الوقت ، قد فرغت من أمر نظمها وطرق التدريس فيها ، لأنها بلغت الغاية فى هذا المضمار .

كان ذلك حال الأزهر فى عهد النديم بعد عودته من منفاه ، ومصادقنا على حالته ما ألقاه مندوب مصر فى المؤتمر الثالث عشر من مؤتمرات علماء اللغات الشرقية المنعقد بمدينة همبورج فى ١/٩/١٩٠٢ عن حاح التعليم بالأزهر .

« إن الغاية التي يرمى إليها الأزهري ، هي تخريج قوم عالمين بالأحكام الشرعية والعلوم العربية محافظين على التعاليم الدينية ، والآداب والنصائح العربية قادرين على نشر تلك الأحكام والآداب ، ذوي سلطان على قلوب العامة والتأثير في نفوسهم حتى يسلكوا بهم المحجة الواضحة الموصلة إلى أغراض الشرع الإسلامية الحققة .

وهي فائدة عظيمة لو أتيحت من بابها ، واتخذت لها وسائلها . ولكن حصل انحراف في السير ، لخلو التعليم من كثير من الوسائل الموصلة إلى ذلك الغرض الأساسي ، والمقصد الأقصى إذ العناية بعلوم اللسان العربي ، قاصرة على معرفة القواعد والمناقشات في الالفاظ والتوسع الزائد في ذلك وهو ما يضل الطالب ، ويحيد به عن الجادة الموصلة إلى الغاية . لذلك كانت هذه الطريقة عقيمة . لا يترتب عليها تقوية الملمكة في تلك العلوم ولا البراعة في الأساليب وفصاحة التراكيب ، خصوصاً مع إهمالهم معرفة مفردات اللغة ، ضبطاً ووصفاً وخطب العرب وأشعارها ، ولذا ترى دراسة اللغة العربية مع استغراقها زمناً كبيراً ما بين تعلم وتعليم لا تمكن الكثير من الوقوف على أسرارها ، واستخراج ما فيها من كنوز الدقائق .

وكذلك تدريس العلوم الشرعية لم تراعى فيه ثمرة تلك العلوم من حفظ أحكامها ، ومعرفة رايها ، ووجهة العدالة فيها وما يترتب على العمل بتلك الأحكام من انتظام عقد أفراد الأمة ، وإصلاح شأنها ، وتهذيب نفوس أبنائها . وتقويم أودهم في معاشهم ، وتوثيق الارتباط بين الأفراد ، وإيقاف كل ، على ما يجب عليه بالنسبة لنفسه وعائلته وجيرانه وبلده الخ .

ولو روعي تحسين طرق التعليم ، وتعهدت أذهان الطلبة ، بالعلوم الرياضية ، والطبيعية والاجتماعية ، من جغرافية وتاريخ واقتصاد لتخرج من الأزهري مصافح الخطباء وفرسان البلاغة وأساطين الحكماء ، يستولون على الأفتدة

بذلاقة ألسنتهم ويمسكون العقول ببراعة أساليبهم ويحولون القلوب بتعبيرهم
ويقندرون بما لهم من المعارف الواسعة بالعقائد والأحكام الدينية وارتباطها
بالحوادث الزمانية والانقلابات العصرية على توحيد مقاصد العالم الاسلامى
وتبصيره فى معاملته مع الأمم .

لقد تألم النديم حين رأى أساليب التعليم بالأزهر دون مكاتته وجلال
رسالته ينقصها النهج السوى والنظام السديد . فانتضى قلبه وعرض نواحي
النقص فى النظام القائم بالأزهر فى عهده ، واقترح الحلول الضرورية ، فكانت
بمشابة القبس الذى اهتدى به من جاء بعده من مصلحي الأزهر ، وأخذوا بها
وارتقى نظام التعليم بالأزهر ، وأصبح جديراً بتحقيق رسالته العظيمة .

فقد نشر فى عدد الأستاذ الصادر فى ١٤/٢/١٨٩٣ بحثاً قيماً يحتوى على
أربعة وعشرين اقتراحاً للإصلاح مقسمة إلى قسمين - قسم للإصلاحات
الداخلية وقسم للإصلاحات الخارجية .

الإصلاح الداخلى : وقد اقترح فيه :

- ١ - إدخال العلوم العصرية كالرياضيات والآلات (الميكانيكا والطبيعة)
والهندسة والحساب والجغرافية والهيئة والحقوق والتاريخ واللغة العربية .
- ٢ - الكشف الطبى على الطلبة قبل الدخول ومراعاة الحالة الصحية لهم
أثناء الدراسة .

٣ - ادخال علم الأخلاق ومبادئ الصحة الشخصية .

- ٤ - رعاية قواعد آداب المحاضرة أثناء تلقى الدروس - وكان الملاحظ
أثناء إلقاء الدروس فى عهده (أن يرى أكثرهم نائماً على وجهه فى الدرس
ويبقى كذلك ساعات ويستمر اليوم بعد الآخر حتى تنصب المواد فى عينه
فتضعف أو يذهب نورها فضلاً عن خروج هيئة قعوده عن حد الأدب) .
(من أقوال النديم) .

— ١٣١ —

٥ - الاهتمام بمواظبة الطلبة على تلقي دروسهم يومياً ، وغدم قبول الأعدار الواهية عن التأخير وتنظيم الامتحانات السنوية بحيث تكون نسبة الحضور وانتظام الطالب في الدراسة أثناء العام شرطاً أساسياً لقبوله في الامتحان (والطريقة القديمة كانت انقطاع الطالب عن الدراسة فترات طويلة - يحضر كما يحلو له ، ويتغيب إن أراد ، وفي نهاية الأمر يقدم عند الامتحان رسالة في المبادئ التي تناول المطالعة فيها) .

٦ - العناية بالمناهج التطبيقية وتحسين قدرات الطلبة عملياً ، لأن معظم الطلبة كان إذ ذاك لا يحسنون الإملاء والخط ولا يقدرون على إنشاء رسالة أو تنسيق مقالة في غرض مخصوص - وكما يقول النديم (عالم غير عامل) كمن يعرف علم العروض ولا يستطيع نظم بيت لعدم محاولته ذلك -

٧ - توسيع مدارك الطلبة باتصالهم بالعالم الخارجي ، عن طريق قراءة الجرائد السيارة ، والمجلات السياسية أو العلمية الخ لأن منهم من سيكون قاضياً أو مفتياً وهذان هما أرقى وظائف السياسة القضائية آنذاك .

الإصلاح الخارجي : وقد جاء فيه :

أولاً : أن تعتبر الدراسة في الأزهر في مستوى الدراسات العالية مدتها أربع سنوات ، تسبقها دراسة في معاهد أزهريّة إعدادية مدتها ست سنوات .
ثانياً : تخصيص العلماء لتدريس علوم معيشتة ، حتى يتقنها كل منهم ويلبغ في تدريسها .

ثالثاً : تنظيم المناهج الدراسية وتوزيعها على سنوات الدراسة ، ويمتحن الطلبة في نهاية كل عام دراسي .

وهكذا كان النديم أسبق الكتاب في الدعوة لإصلاح الجامعة الإسلامية الأولى في العالم وقد نجحت دعوته أيما نجاح ، وتحققت أمنيته في الإصلاح

وأصبح الأزهر لامعهداً عالياً فحسب بل جامعة كبيرة تضم العديد من الكليات العلمية والدينية والفنية .

آراء النديم في إصلاح التعليم العام بالحكومة :

١ — دعا النديم إلى تعميم التعليم الابتدائي واعتباره إلزامياً وبالمجان على أن تشمل مناهجه : تدريس اللغة العربية والدين والتربية الوطنية بصفة أساسية وتأتي مواد التعليم الأخرى بعد ذلك (من مقالته في ٣٠/٧/١٨٨١) .

٢ — الطلبة المتفوقون في المرحلة الابتدائية ، يتعلمون على نفقة الحكومة في المرحلتين الثانوية والعالية .

٣ — أفسح صفحات مجلة « الأستاذ » لنشر البحوث التربوية لكبار رجال التعليم في عهده (أمثال علي باشا مبارك) والنظم الخاصة بالتعليم في الخارج ، لتأخذ البلاد بما يتناسب ، منها .

سعيه في سبيل اللغة العربية

لم ينثن النديم لحظة عن الذب عن لغة الضاد ، والدعوة لاستعمالها وإيثارها في المعاملات عن غيرها ، وقد هاله أن رأى للشعب لايهتم بلغته ، والطبقة المثقفة تتفاخر باستعمال اللغات الأجنبية في أحاديثها ، مفضلة التفاهم بها عن لغتها القومية . وكان ذلك من آثار موجة التقليد الجارفة التي أصابت البلاد وادس شيء أفعال في تحطيم الروح الوطني من احتقار لغة الوطن وعدم إجادتها علماً وعملاً ، وعدم تفضيلها عن أى لغة في الاستعمال . والذين يسافرون إلى أى وطن عربى ، يرى تمسك الجميع بلغة البلاد الوطنية وتفضيلها عما عداها ، فيضطر الأجنبي لتعلمها حتى يستطيع المعيشة وقضاء أموره .

فكتب النديم في مجلة التنكيك مقالا بعنوان (إضاعة اللغة تسليم للذات) وهى تعد من ورائع مقالاته فى جودة السبك وقوة الإثناء .

دأبها الناطق بالضاد - بم تستبدل لغتك وما لها من مثل، وإلى من تتركها
وأنت لها كفيف . . . وما الذى استحسنته فى غيرها واستقبحت مقابله
منها . . . وأى شىء طلبته منها ولم تجد له إسما . . .

لبيك أيها الأخ الشقيق - وإن لم تحمل فى بطن واحدة - اللغة سر الحياة
والحد الفارق بين الإنسان والبهيم - بها يترجم اللسان خواطر القلب ويجلو
بها بنات الأفكار وبها يعيش المرء وإن كان ذميم المنظر . . . وهى التى
جذبت قلب أمك واستعطفت جانب أبيك وتملكت فكر أخيك واستمالت
صاحبك والفت جارك بها . . . ففى أنت إن كنت لا تدري من أنت ،
وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن أما كونها أنت فقد قدمت لك
من عرفتهم بها ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيداً غريباً فى الوجود . . .
لا ترى من يقول لك من أنت أما كونها وطنك فإنه إنما يعمر
ويسمى وطننا رجال يتعاونون على أحيائه . وأظهاره فى الوجود محلاً للسكن
وداراً للإقامة وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدى لشيء ولا تقوى على
أى أمر كان

أسمعك تقول - إذا فقدت لغتى اعتضت عنها بأخرى .

أجل - إنك اعتضت عنها - ولكن بما أضاع منك الوطن والمعتقدات
الدينية فإنك لا تخاطب بها إلا أجنياً من البلاد ، مغيراً فى الجنسية . . .
إلى أن قال - فإننى لا أحرم عليك غير لغتك لضرورة تقضيها ، ونازلة تدفعها
ومشكل تحله ، وإنما أردت تذكيرك بأن لغتك كان منطوقاً بها ، من غير تعلم ،
محفوظة فى غير كتاب ، وبمخالطة الدخيل فسد بعضها ، وخيف عليها الضياع ،
فدونت فى بطون الأوراق ، ولقيت قوتها فى اللفظ والكتابة . .

وقد دعا الأمة إلى الاكتثار من الجمعيات لإنشاء المدارس الوطنية التى
تجعل من أهم أسسها اتقان تعليم اللغة العربية ، والوطنية والأخلاق للنشء

وصرف ثلث وقتهم في المدرسة لتلقيها إلى أن قال وإذا تمت هذه المبادئ رأيت بلادك نشأة جديدة ، وخلقا بديعا وعلمت بما تراه ، من جمع الكلمة ، وسر وحدة التعليم ، وانتظام الهيئة الاجتماعية ، إن اضاعة اللغة تسلم للذات .

وقد أعاد الحديث بهذه النعمة مرة أخرى في صحيفة الأستاذ فدعا إلى العناية بأمر اللغة العربية باعتبارها لغة البلاد القومية ، واحترام هذه اللغة بالنسبة لمواد الدراسة الأخرى إذ أن الملاحظ آنذاك أن الاهتمام الذي توليه وزاوة المعارف للغة العربية أقل مما توليه للغات الأجنبية الأخرى - وقد هاله غمط حق مدرسي اللغة العربية وعدم معاملتهم أسوة بزملائهم مدرسي المواد الأخرى ، فنشر في مجلة الأستاذ العدد ٢٥ بتاريخ ١٨٩٣/٢/٧ مقالا بعنوان (المساواة بين البنين) وجه فيه الحديث لوزارة المعارف ومثلها بالآب الكبير بالنسبة لجميع المدرسين ، وتفرض عليها هذه الآبوة أن تعامل الجميع بالعدل والمساواة وألا تفرق بين الأبناء حتى لا توغر صدور البعض وتبذر في النفوس بذور الحقد والشقاق .

ثم دعا إلى مجازاة المدارس الأجنبية في مصر في اهتمامها ، بتدريس اللغة والدين والتربية الوطنية والتاريخ أولا ثم بعد ذلك باقي المواد . ورغم أن هذه المدارس تعلم في غير وطنها ولكنها لا تنسى أشرب طلبتها في سن طفولتهم معاني الوطنية والقومية بإيثارها تعليم لغتها الأصلية على لغة البلاد وتدریس دينها وتاريخ ملوكها فتثبت في ذهن الطفل ، في أول أطوار حياته الحب والإعزاز لوطنه ودينه وتاريخ بلاده ، فيظل متأثراً بهذه الثقافة طول مراحل حياته بعد ذلك - ثم ذكر أن هذه التربية هي التي رفعت بمالك أوروبا إلى أوج السعادة والرق - وعجب النديم كيف أن العلماء في الشرق يعيدون كل البعد عن الاشتغال بالسياسة وكيف أنهم قصرُوا أنفسهم على العاوم الدينية إلى أن قال :

فإذا عرض عليهم أمر سياسى أحجموا عن الخوض فيه لجهل طرقة، وإن تكلموا فيه بالجرأة، كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله، ولذا أهملهم الامراء فى المجامع السياسية وأخذوا بآراء من هم دونهم فى التربية والتعليم (مقال تربية الأبناء) بمجلة الأستاذ .

مجمع اللغة العربية

دعا فى مجلة الأستاذ العدد الصادر فى ٢١ / ٢ / ١٨٩٣ إلى إنشاء مجمع للحفاظ على اللغة العربية والقضاء على القوضى الناشئة من دخول ألفاظ ومصطلحات أجنبية بها .

وبذلك كان النديم أسبق المفكرين إلى تنظيم وحفظ اللغة سليمة لفظاً ومعنى ، والدعوى لإنشائه ، وإن إنشاء المجمع الحالى سنة ١٩٣٤ بنظامه وأهدافه الحالية بعد تحقيقاً لدعوته التى دعا إليها قبل ذلك التاريخ بأربعين سنة مما يؤيد رأى بأن النديم التمس لبلاده ووطنه كل أسباب الرقى الثقافى والقومى واهتم بكل ما يمس هذه الامور من صيانة اللغة وحفظها وتعريب الالفاظ الاجنبية المختلطة بها مما يعد من أقدس الاعمال الوطنية لأن اللغة تمثل الوطن .

كانت اللغات الأجنبية حديثة الوفود إلى البلاد منذ عهد محمد على ، وقدوم البعثات الأجنبية ، وإقامتها بمصر ومهاجرة الكثيرين من الاجانب اليها ، مما أدى إلى تأثيرهم بلغات تخاطبهم فى اللغة العربية ودخول كثير من الالفاظ الأجنبية فيها ثم انتشار المخترعات الحديثة بالبلاد ، بأسمائها التى وضعت لها بلغاتها الأصلية ثم تباهى المتعلمين من المصريين بالتحدث باللغات الأجنبية أو باستعمال بعض المصطلحات والالفاظ الأجنبية فى اللغة العربية كل هذا أدى إلى ابتلاء اللغة العربية بكثير من الالفاظ والعبارات الدخيلة واختلاط الأمر على الكثير من الناشئة :

١ — أولاً لأن أسماء المخترعات الحديثة تستعمل ، وتكتب كما هي بلغاتها الأصلية ، وترسم بالحروف العربية ، وتختلف وتتعدد طرائق كتابتها ونطقها وهذه تحتاج إلى تغيير جوهري بمعرفة حقيقة الاسم الاجنبي ، ومعرفة مدلوله وما يتصل به من معنى ، ثم اشتقاق كلمة عربية تؤدي المعنى المقصود ، وهذا أمر يحتاج إلى خبرة جماعة من العلماء الواقفين .

٢ — كثير من الكلمات العربية قد تغير تركيبها وتغير معناها وأصاها خلل في تكوينها الأصلي والنطق بها ، مما أبعدا كثيراً عن الأصل العربي الصحيح الخ .

لذلك كان من الضروري العمل على أحياء اللغة العربية الصحيحة ، وإعادة استعمال التراكيب العربية السليمة ، واصلاح لغه المكاتبات الحكومية التي كانت آنذاك في أشد انحطاطها ، ويرى النديم أن يحيط المجمع دواوين الحكومة علماً ، بنماذج صحيحة من الخطابات الحكومية ، مدونة بلغة سليمة ، منتقاة الألفاظ ، واضحة التعبير ؛ خالية من السقم وكان من اقتراحات النديم تقسيم المجمع - فيكون عاماً فيما يتعلق بالفنون العربية ثم يقسم الأعضاء حسب قواهم العلمية فيكون :

- ١ - قسم منهم خاص بالمواد اللغوية .
- ٢ - قسم يختص بالآليات كالنحو والصرف والبيان والبديع والمنطق .
- ٣ - قسم يختص بالتاريخ وتقويم البلدان .
- ٤ - قسم يختص بالترجمة .
- ٥ - قسم يختص بالرياضيات .

وتظهر فائدة هذا التقسيم عندما تقرر الحكومة اعتماده ، وتحيل إليه النظر في المؤلفات الجديدة التي من هذا القبيل ، ليقرر منها الموافق لنشره ويمنع ما يضر الاخلاق والدين والسياسة وربما اتسع نطاقه فأحيل عليه : اتهام الناس في فنون مختلفة ، لاعطائهم الشهادات العلمية .

الباب الثالث

أثر النديم في الصحافة

- (١) أشهر الصحف في عهد النديم .
- (٢) أساليب النديم في الكتابة .
- (٣) النديم الصحفي .
- (٤) المدارس الصحفية في عهده .
- (٥) صحف النديم .
- (٦) نماذج من كتابته في جريدة التنكيث والتبكيث .
- (٧) نماذج من كتابته في جريدة الطائف .
- (٨) مقالات النديم عن الخديو إسماعيل .
- (٩) نماذج من كتابته بمجلة الأستاذ .

(٢) أثر النديم في الصحافة

أشهر الصحف في عهد النديم :

١ — لم تظهر في مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى «الوقائع المصرية» ، التي أنشأها محمد علي وكانت الحكومة تتولى إصدارها ، ولم تظهر غيرها من الصحف العربية ثم نشطت الحياة العلمية في عهد إسماعيل فكان من مظاهرها تأسيس الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية وقد نهض بالصحافة في ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين وطائفة من الأدباء السوريين ، واستمرت الوقائع المصرية تصدر في عهد إسماعيل بانتظام وارتقى أساؤها الإنشائي ، وكانت تأتي بأخبار الحكومة ، والأخبار الخاصة الخارجية وتُنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وتسهب في وصف الحفلات العامة والحفلات العلمية ثم حفلات سباق الخيل ، وتعد الوقائع سجلاً يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية في عصر إسماعيل .

الصحف العلمية والأدبية والحزبية

٢ — «اليعسوب» ظهرت سنة ١٨٦٥ وهى مجلة شهرية أنشأها الدكتور محمد علي باشا البقلي وإبراهيم الدسوقي .

٣ — مجلة «روض المدارس» ظهرت سنة ١٨٧٠ وأنشأها علي باشا مبارك وزير المعارف وكانت أغراضها إحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، ترأسها العلامة رفاعه بك رافع الطهطاوى وتولى تحريرها علي بك فهمي رفاعه مدرس الإنشاء بمدرسة الألسن وصفوة من أعلام الأدب آنذاك وكانت توزع مجاناً على طلبة المدارس ونجحت في نشر العلم وتعويد الطلبة على البحث .

- ٤ و ٥ - « جريدة أركان حرب الجيش المصرى والجريدة العسكرية المصرية » ، ظهرا فى ١٠ / ٧ / ١٨٧٣ .
- ٦ - « الوطن » ، ظهرت سنه ١٨٧٧ أنشأها ميخائيل عبد السيد وهى مجلة سياسية وطنية .
- ٧ - جريدة مصر ظهرت سنة ١٨٧٧ .
- ٨ - التجارة بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ وهما من الجرائد السياسية وكتب فيها النديم فى أول أمره .
- ٩ - جريدة الاهرام - ظهرت سنة ١٨٧٥ أنشأها سليم وبشاره تقلا واستمرت حتى الآن .
- ١٠ - « مرآة الشرق » ، ظهرت سنة ١٨٧٩ وأشأها سليم بك عنحورى وتولى تحريرها ابراهيم بك اللقائى يايغاز من السيد جمال الدين الأفغانى .
- ١١ و ١٢ - « مرآة الأحوال » ، ظهرت بلندن سنة ١٨٧٦ و « أبو نضارة » ، ظهرت بمصر سنة ١٨٧٧ أنشأها يعقوب صنوع كاتب مصرى لإسرائيلى ، وهى جريدة سياسية تكتب بأسلوب فكاهى ، وهى أول جريدة سياسية هزلية ، تصدر بمصر وقد انتقدت لإسماعيل فنفا صاحبها من مصر ، فرحل إلى باريس ، واستأنف إصدار جريدته ، بأسماء أخرى مستمراً فى التعريض الشديد به .

اساليب النديم فى الكتابه

- ١ - أسلوبه الأدبى : مارس النديم الكتابة قبل ممارسة الصحافة ، فكان يميل فى أول أمره إلى البديع ، ويتهافت تهافتاً قوياً على السجع ، مظهراً تفوقاً بالغاً فيه ، وقد بدأ النديم يكتب بهذه الطريقة منذ السادسة عشر من عمره وقد حظى الكتاب الذين أرخوا لحياته بطائفة من الرسائل

الأدبية المنمقة ، التي أكتبها في صباه . قاربت العشرين رسالة ، ومن هذه الرسائل ، التنوير المسحور في المغامرة بين السفينة والوابور - وطالع الكرامة بحسن السلامة - درر النخلة وغرر الرحلة - حفظ الودائع لدرر البدائع - تنبيه اللبيب وتسلية الحبيب - الساق على الساق في مكابدة العشاق - رياض الرسائل وضمائم الرسائل - ويدل عنوان هذه الرسائل على شدة كلفه بالسجع .

وكانت هذه الرسائل تدريباً عملياً للفتى الناشئ في فجر حياته الأدبية ، وترويضاً لقلبه على التنسيق في التحرير وقد كان في هذه الفترة متأثراً بطريقة الكتابة في ذلك العصر مقلداً أعلامه - كذلك كان متأثراً بأسلوب المقامات ومحاماتها التي كانت ألع شيء في الأدب المصري في القرن الثامن عشر وقد وحاها كل أديب في العصر الذي تلاه .

ومن رسائله التي افتن في تسطيرها وأبدع في تطريزها ووشاها بالسجع والبديع رسالة أدبية نشرها في الأستاذ بتاريخ ٢٢ / ١١ / ١٨٩٢ وهي من قطعه الأدبية الرائعة ، التي كتبها أثناء وجوده مخفياً ، وقد ضاقت به الحال وشعر بالعبث فكاتب لأحد الأغنياء يطلب فيها مديداً للمعاونة له .

دكتاني أعزك الله ، والعنبر الأشهب طرسه ، والمسك العربي نفسه ، والنضار الخالص قلبه ، واللؤلؤ الرطب كله ، ومنثور النجوم منظوم حرفه وهالة البدر وقاية ظرفه . والبيان براعة استهلاله ، والمعاني تحوطه وفي خلاله ، والبديع سائح في أقاليمه ، والأدب بعض تعاليمه - ثغره بسام بجميل السلام ، فما جملة بهذه الصفات ، إلا التحيات المباركات ، بعثته سفير وداد لا فارس جلاد ، فإذا صافح منك اليمين ، وحلف على إخلاصه اليمين .

دعه يبدى تحتته من شوق حافظ العهد ليس يرف نكشا
لا يبالى إذا حفظت ولده سالم الدهر أو تزايد خبشا

غير دان من النفاق بطيح أخذ الجد في التعامل إرثنا
يحفظ السر والإخاء وحاشا أن يداني لدى التحالف حثنا

فما خرج هذا الكتاب من كنزه المطلسم ، وفر من الثغر حين تبسم ،
إلا وهو يعلم كيف يسير ، وإلى أين يصير ، وطالما طالبتني الطبيعة ، لشكر
الصنعة ، وأنا أحيل على ائتلاف الروحين ، وتجاذب القلبين ، حتى شاب
رأس التسويف ، من ترادف أفعال التفويف ، ورأيته جعل المجرة لثامه ،
وكور البدر عمامة ، فعلت أن لسان الشوق ، بقول شب عمرو عن الطوق
فكتبت والقلب بين داعية الحب ، وجاذبية المعروف ، والعلم جائل من
سحاب الفكر وروض الحروف ، مخاطباً من لا أسمية على لسانه القلم ، لكونه
المفرد والعلم ، أخى نسباً ونعم الأخاء ، وصديقي في الشدة والرخاء جوهره
عقد الإشراف النفيس ، وعنوان تاريخ بني مصباح وأدريس .

وبعد فهذا شرح حالة غائب عليه من اللطف الخفي ستور
تدور به الأهوال حول مدارها فيصير والقلب الرضى صبور
عسى فرج يأتى به الله أنه على فرجى دون الأنام قدير

ولا أقول نحن وأتم ، ولا كنا وكنتم ، فما هذه العوارض إلا رسوم
وما منا إلا له مقام معلوم ، وما اختار الله تعالى للمصائب ، إلا الرجال ،
ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال ، والشدة إن صوتت بجلجلها ، وحلت
بكلكلها ، فإذا عسى أن يكون مما تتخيله الظنون ، أليس الأمر يرجع إلى
موت أو حياة ، وهذا لا يملكها إلا الله . وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل
خلق المسببات والأسباب ، ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم
إلا في كتاب - ولست متأثراً من بعد الإخوان عني ، لخوفهم من الدنومنى ، فإن
هذه عادة الناس في كل جيل ، لا يحفظ الإخاء في الشدة ، إلا القليل ، وقد

وجدت من رجال الهمم من يحفظون العهود والنعم ، ويقابلون الشدائد
بالعزائم ولا ترجف قلوبهم بالعظائم فإنها تمتلئة بالإيمان ، سليمة من الخفقات
ثابتة ثبات رضوى ، حافظة للسر والنجوى ورأيت منهم كراما يخجل الكرماء
ويقتل البخلاء ويهز الشعراء ، ويذهل النظراء ومروءة بينها وبين غيرهم
سد ذى القرنين ، وبعد ما بين المشرقين نزلت بهم وأنا مطلوب متعفف ،
خائف اترق ، فأحلوني محل الأهل والأحباب ، وأسكنوني فيما تغلق
دونه الأبواب ، وصبروا عند توالى الأكدار ، وثبتوا والعيون حول الدار

هم الأهل إلا أنهم أخلفوا الذى	ولدت من الأصلين معه من الأهل
فلا غائب إلا عدو مروءة	ولا حاضر إلا صفا مورد نهل
خلاتهم عز وحسن طباعهم	تألف فيها ما يحب من السهل
فكلهم فى طلعة الدهر غرة	تضىء من الشبان للشيوخ والسهل
وكل الذى تلقاه يأبى مروءة	من الناس فى كل البقاع أبو جهل

إلى أن قال :

فإسان الشكر لا يحد من الكلام ما يؤدى به واجب هذا المقام ، فقد
عظم الطول فأعجز عن القول ، وإن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة
رائقة صافية . بستانى قاعى ، وفكرى فى ساعى — لا أحيله فيما يأتى به
الليل ، إذ كنت فى النهار ، ولا أشغل ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا
أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة فاعتقادت أن الذوات مسيره ، والعمر
سأج فى الأمكنة ، والأزمنة ، المقدره . ولكل شدة مدة ، متى انتهت جفت
الأحوال ، وحسنت الحال — فترانى فكرى كلىمى ، وقلبى ندىمى ، استودعه
ما فى الصدور ، فيحفظه فى السطور — ثم يرد على كتاباً ، لم يجمع إلا صواباً
فأعود إليه بالنظر لترويح الفكر ، فتارة اشتغل بكتابة فصول فى علم الأصول

وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم به لله المنة — وحينما اشتغل بنظم فرائد في صورة قصائد ، ووقت أكتب رسائل مؤلفة في فنون مختلفة .

فانظر إلى آثار رحمة اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنة والمنة ، أتراني كنت أكتب هذه العلوم في ذلك الوقت المعلوم وقد كنت أشغل من مرصعة اثنين ، وفي حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع وأتعب من مربي عشرة وليس له تابع .

المدارس الصحفية في عهده

المدرسة الصحفية الأولى :

مقدمة :

ظهر النديم الصحفي وهو متأثر بآثار المدرسة الصحفية الأولى التي كان من أعلامها رفاعه رافع الطبطبائى وفارس الشدياق ولا بد لنا أن نعرف شيئاً عن مميزات هذه المدرسة لأنها الخطوة الأولى في تأسيس فن الصحافة في مصر .

امتازت المدرسة الصحفية الأولى بما يأتى :

- ١ — نشر الثقافة — ترجمة المقالات العلمية والأدبية والثقافية المختلفة .
 - ٢ — التمكين للصحافة وإرساء قواعدها وتشبيدها أسسها .
 - ٣ — إنشاء الصحف وإقناع الناس بنوائدها والإقبال عليها .
 - ٤ — محاولة إنشاء المقال الصحفي بالطريقة التي أملاها أسلوب العصر الأدبي في ذلك الحين الذي كان من وحي ماضيهم وحاضرهم في آن واحد .
- ولقد تقيدت هذه المدرسة بقيود الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي اكتنفت رجال هذه المدرسة ، فقد كانت الصحافة في أول أمرها من

وحى الولاة والحكام تولد فى حجورهم وتتغذى بمالههم وهباتهم ، وتعتبر عن أفكارهم وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو ، حتى ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هى الصحافة الشعبية ، وحتى هذه الأخيرة كانت صورة دقيقة من الصحافة الرسمية ، ومن الظروف الاجتماعية والفكرية والجهل الذى خيم على مصر طول الحكم العثمانى ، وجعل فى سماء الفكر فيها سحبا ملبدة تحجب النور عن أهل مصر - حتى أنت الحملة الفرنسية ، وأتى محمد على فبدأت تنفض البلاد تدريجياً من سباتها العميق ثم تتدرج فى السير فى ركب الحضارة الحديثة والعلوم الحديثة ، وهذا ما حدا بالصحافة الاولى أن تكون فى أول أمرها مدرسة تعليمية للشعب المتعطش للمعرفة - فكانت أكثر صون المدرسة الصحفية الاولى ، مليئة بالفصول العلمية والأدبية مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً وما خوزة من الكتب العربية القديمة حيناً - فكانت صفتها عليّة أكثر منها سياسية واجتماعية ذلك من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب . كان رجال تلك المدرسة مقيدون كذلك بقيود الماضى القريب حين كان النثر العربى ، يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع ، التى فتن بها أدباء العربية ، منذ القرن الرابع الهجرى ، غير أن البديع أو الزينة اللفظية لا يحسنان إلا مع ثقافة واسعة ، وذوق فى اللغة رفيع ، وحسن فى الادب رقيق ، ذلك ما حرمت مصر منه فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، ومن ثم ورثت المدرسة الصحفية الاولى لونا باهتاً من ألوان النثر العربى . . . ثم جاء الوقت الذى سئموا فيه السجع ، وزهدوا فى البديع ، وكان ذلك إيذاناً بمجيء المدرسة الصحفية الثانية ، هذه المدرسة التى نعمت بقسط من الحرية فى الموضوع والأسلوب .

المدرسة الصحفية الثانية :

أقطاب هذه المدرسة : أديب إسحق و عبد الله النديم و محمد عبده .
امتازت هذه المدرسة بأنها الخطوة الثانية لتقدم الصحافة الشعبية وتقدم
المقال الصحفي .

امتيازات هذه المدرسة من ناحية الموضوع .

- ١ — غلبها الأسلوب الخطابى وأكثر ما كان ذلك فى كتابات النديم .
 - ٢ — أخذت بعض المقالات شكل الدرس والمحاضرة .
 - ٣ — امتزجت هذه المقالات بلون الجد والصرامة والحزن لما عاصرتة
من عهد حافل بالأحداث الوطنية العصبية وترك المصريين اللهو والضحك ،
للاهتمام بمصيرهم .
 - ٤ — شيوع السخرية المشوبة بالحزن فى مقالات هذه المدرسة مما استدعتة
موضوعات النقد الاجتماعى ونقد أعمال إسماعيل ، ثم شيوع الانفعالات فيها
أكثر من شيوعها فى المدرسة الأولى .
- امتيازاتها من ناحية الأسلوب :

- ١ — تخلصت المدرسة الصحفية الثانية نهائياً من السجع والجناس وغيرها
من الألوان البديعية التى افتن بها تلاميذ المدرسة الأولى ، وكانوا فى فتنهم
يتأثرون بالميراث الأدبى الذى ورثه العصر العثمانى ، عن العصور الأدبية ،
التى سبقته . ثم لم يكن أمام المدرسة الصحفية الأولى مقال يحتذى فى الكتابة ،
غير الطريقة الفاضلية (طريقة الولع بالبديع فى الكتابة) فحاكاه بعض
تلاميذها وفرضوه على أنفسهم وتقيدوا به حتى فى ترجمة الكتب من المؤلفات
الأوربية ، إلى اللغة العربية .

فلما كانت المدرسة الصحفية الثانية وجدنا كل واحد من تلاميذها يفتن

في مستهل حياته الادبية ، بالسجع فتنه لا حد لها ، ثم لا يلبث أن يفارقه هذا السجع إلى غير رجعة ، على أثر اشتغاله اشتغالا عمليا بالصحف - فهكذا كان أديب لم يحق ولو أنه لم يبرأ من السجع في حياته الصحفية كلها ، وهكذا كان محمد عبده التي ظهرت مقالاته في الإهرام مسجوعة ، وهكذا كان النديم الذي رأيناه في أول أمره أكثر من صاحبيه مراعاة للبديع ثم عدا أكثر تحرراً منه في نهايته .

٢ — استعاضت هذه المدرسة عن السجع بالأزدواج أو التقطيع الصوتي وجزالة اللفظ وحسن اختياره ووضعه في موضعه اللائق وحسن انتقاء اللفاظ .

٣ — تأثرت المقالة الصحفية بأسلوب القرآن الكريم لجميع الكتاب بدون استثناء يؤثرون ألفاظ القرآن وتراكيبه ثم الاقتباس منه في بعض الأحيان ٤ — تأثر الأسلوب الصحفي بأسلوب المقامة ، ثم ظهور الفرق الكبير بين لغة المقامة الصحفية وبين لغة الأدب الخالص لأن النديم كان يعنى بعبارته وتحميدها وكلها فرغ واحد منهم تألق في عبارته وأمعن في زيلته . ولقد أفاد الأدب من الصحافة في هذا العهد بما يأتي : —

١ — سعة الموضوع .

٢ — غزارة الأفكار .

٣ — تنوع المادة .

٤ — حرية التعبير .

٥ — انبساط الأساليب .

ولقد عيب على هذه المدرسة طول المقال الصحفي حتى ليعد بحثاً أو محاضرة أو خطبة أو موضوع إنشاء - وتميز كل واحد من زعماء هذه المدرسة بميزة تختص به ، فأديب لم يحق امتاز بتغلب صفة الأديب على كتابته .

والنديم امتاز بتغلب صفة الخطيب على كتابته .
ومحمد عبده امتاز بتغلب صفة المعلم على كتابته .
ولم يصدر النديم في كثير من مقالاته عن ثقافة منوعه ، أو دراسة عميقة
للهم إلا في المواطن الآتية : -

- ١ - موطن الدين وما يتصل به من البحث في الطرق والتصوف .
- ٢ - الترية والتعليم وقد كان في هذه الأخيرة يستوحى تجاربه الخاصة ويفسح المجال لعلى باشا مبارك ليحدثنا القراء عن هذه الأمور حديثاً علمياً في صحيفة الأستاذ .
- ٣ - عرض المشاكل الاجتماعية والآفات التي تراكت منذ أجيال في كيان المجتمع المصرى - تكلمنا عن مميزات المدرسة الصحفية الثانية وقد شمل هذا الكلام على أغلب مميزات النديم الصحفى إن لم يكن كلها بوصفه أحد أقطاب هذه المدرسة .
- ولتكلم بإيجاز عن أسلوب النديم بوجه عام : -
- النديم الأديب (١) مفتون بالسجع والبديع بدرجة تفوق القدماء وكتب رسائل إخوانية افتن في كتابتها حتى شابه كتاب النثر في القرن الرابع الهجرى .
- ٢ - تأثر في المرحلة الأولى من حياته الآلية بأسلوب المقامة العربية ففنها تعلم اللغة العربية وتروض على استعمال مفرداتها وتراكيبها وأساليبها .

النديم الصحفى

هو رجل الصحافة في عصره ، لذلك تأثرت كتابته الصحفية بالأسلوب الخطابى ولا سيما بأسلوب الخطابة المرسلة فكان النديم يرسل كلامه أرسالا كأنه الحديث العادى .

١ - ثم تؤثر الخطابة على أساوبه الصحفي فتضفى عليه بعضاً من خصائصها فتظهر على مقالاته السمات الآتية :-
(أ) كثرة النداء في الكلام .

(ب) تكرار عبارة بعينها بقصد التثبيت في ذهن السامع أو القارئ ليفهم القارئ لها من الحديث أو ذلك بيت القصيد ، وذلك من تكرار عبارة (لو كنتم مثلنا لفلعلتم فعلنا) في أثناء المقالة وهى العبارة التى اتخذها عنواناً لهذا المقال . أو يكرر عبارة العنوان فيجعلها نهاية لكل فقرة من فقراته .
(ج) القسم في التعبير كان من سمات الخطابة أو الحديث العادى فى أسلوب النديم كما فى قوله (والعهد وذمته والشرف وحرمة إن قلنى فى خدمته ، لمن الصادقين) .

٢ - شغفه بالاستطراد على طريقة الجاحظ ، وقد كان الاستطراد عند الجاحظ وسيلة من وسائل التشويق وإبعاد السأم عن القارئ . وهو كذلك عند النديم ومن ثم كان النديم خفيف الظل كاتباً وخفيف الظل خطيباً أو محاضراً وبقي الناس مفتونين به وبأساوبه حتى مات .

٣ - ميله إلى المقابلة والطباق لا بين الألفاظ بل بين المعانى ذاتها ، وأكثر ما يكون ذلك عند ما يكتب النديم عن الشرق وأحواله ويوازن بينه وبين الغرب وتقدمه . . . الخ .

٤ - إثارة الإسهاب والإطناب على طريقة الجاحظ أيضاً وكان النديم ذا نفس طويل فى الخطابة والكتابة وكان يؤدى المعنى الواحد بعبارات كثيرة فى الفقرة الواحدة وفقرات كثيرة فى الموضوع الواحد ، وما نظن كاتباً استطاع مجازاة النديم فى ذلك فى القرن الماضى .

٥ - كانت ألفاظ النديم منتقاه ومادته اللغوية غزيرة ولا غرابة فقد

كان النديم يغرف من بحر وغيره من السكتاب يمتحون من بئر - وقد كانت كتاباته أشبه بماء الينبوع برداً وصفاء وحلاوة مذاق .

أسلوب الأدب الشعبي :

كان للنديم أسلوب آخر هام وهو أسلوب الأديب الشعبي الذي يكتب باللغة العربية العامية فهو يكتب القصص والمحاورات والاحاديث عن مظاهر الحياة في المجتمع المصري . فكان يكتب بلغتين اللغة الفصحى للخاصة والعامية لذوى الثقافة المحدودة وللمحرومين من العلم ، حتى يستطيع المتعلم قراءته للأسمى فيستفيد به ، ولقد نجح هذا اللون المزدوج إلى أبعد حدود النجاح وأخذت عنه بعض الصحف والمجلات فيما بعد رغم أن هذا اللون من الكتابة (أعنى الكتابة باللغة العامية) يلقى اعتراضاً من أغلب الأدباء وكذلك من الصحافة في أيامنا . ولرد على هذا ينبغي لنا أن نعرف رسالة الأديب والأديب كما نعلم هو صورة لحياة المجتمع ، وهو ظاهرة اجتماعية تخضع لما عليه المجتمع من أحوال سياسية وثقافية واجتماعية ، فلا بد أن يعبر الأديب إذأ عن آمال المجتمع وحاجاته في شتى النواحي ، ولاجل أن يكون في تعبيره أداة صالحة لخدمة المجتمع يجب أن يكون في الأسلوب الذي تستطيع الطبقة العامة غير المثقفة فهمه وإدراكه ، لذلك فإن النديم وطأ أكتاف الأدب للجواهر .

ولقد عرف النديم القصة وأولع بها وأكثر منها إذ آمن على تأثيرها في نفوس جماهير القراء ، وأقدر على عرض الفكرة وما تحسب أنناقراًنا لصحفي مشهور قبل النديم هذا العدد الكبير من القصص الطريف . الجيد الحيك . السهل الاداء . الذي كان يملأ به صفحات مجلتيه (التسيكيت والتسيكيت . والاستاذ) لذلك فهو معدود من الرواد الاول في فن القصة . سواء أ باللغة الفصحى أو باللغة العامية .

ولقد كان النديم أول كاتب عربي استخدم الحوار في قصصه . استخدمه

بكثرة تستلغمت النظر وتدعو إلى التعجب ، ولقد عاج النديم في محاوراته
المشكلات الاجتماعية الجارية في الحياة الواقعية .

الصحف التي أصدرها

اشترك النديم أول ما اشترك في تحرير صحيفتي أديب اسحق وسليم نقاش
(المحروسة) و د العهد الجديد ، بالإسكندرية اللتين صرح بهما عقب إلغاء
جريدتي (مصر) و (التجارة) . وكان هذا أول عهده بالأعمال الصحفية
ثم عزم على أن تكون له صحيفة خاصة بعد ذلك فكان له من تلك الصحف
ثلاث :

١ - صحيفة التنسكيت والتبسكيت .

٢ - صحيفة الطائف .

٣ - صحيفة الأستاذ .

صحيفة التنسكيت والتبسكيت :

أصدر هذه الصحيفة الأدبية الرائعة في ٦ يونيو سنة ١٨٨١ في حجم
كتاب عادي وضمنية أسبوعية أدبية هزلية وهي مجلة كما يقول د هجوها تنسكيت
ومدحها تبسكيت ولغتها لا تلجئك إلى قاموس الفيروزبادي ولا تلزمك
مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا وسخرتها نقشات صدور وزفرات
تصعدها مقابلة حاضرنا بماضيها ، وهي في مجموعها مقالات اجتماعية عن الحياة
في مصر وقال أيضاً د أنه لا يريد منها أن تكون غنتنة بمجازات
واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة
عبارة ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ولكن أحاديث تعودناها ولغة
ألفناها المسامرة بها .. إنما هي في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفي بيتك

كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ونديم ، يسامرك بما تحب وتهوى
ونلاحظ في هذه الصحيفة ما يأتى :

١ — كانت المقالات التى تهم الخاصة تكتب بلغة فصيحى والمقالات
التي تهم العامة تكتب باللغة العامية .

٢ — كان معنياً فيها بالإصلاح الخلقى والاجتماعى وقد فطن أن التعليم
والنقد عن طريق القصص أجدى للنفس ، وافعل فى النقد فأكثر منه ونجح
فى صحيفته ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن .

٣ — دعا إلى إصلاح الخطابة المنبرية لأن انحطاطها من أسباب غفلة
الشرق ثم قدم بمرثاة قيمة فى الخطابة وأصولها وقيمتها وأنواعها وتاريخها
وانتهى من ذلك إلى قوله : وأود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون
بمبلغ يقوم بنشر خطب أدبية وسياسية وأنا أقوم بإنشاء خطبة فى كل أسبوع
تناسب أحوال الزمان ثم تطبع هذه الخطبة وتشر فى سائر أنباء القطر
لتنبيه الأفكار وتعرف الأمة قدرها وما تحفظ به نظامها بين الأمم ولا يتم
هذا الأمر إلا إذا اجتمع هؤلاء الأعيان وعرضوا لديوان الأوقاف
ليتمكنوا من العمل بالخطبة^(١) .

وترى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطب المنبرية العصرية فى
جريدته هذه لكي يحذرها الناس وينسجوا على منوالها .

٤ — إن وجه تسمية « التنكيك والتبكيك » هو أن النديم كان يقسم
المقالة فى صحيفته إلى قسمين - قسم يتكلم فيه من عادة من عادات المصريين -
ثم يأتى القسم الآخر بقصة فيها نقد لاذع وتوبيخ للمستمسكين بهذه العادة -
ويأتى التوبيخ على هيئة تعقيب من الجريدة على هذه الحكاية التى أوردها
والقسم الأول من هذين القسمين هو « التنكيك » يرمز له بالنون - والقسم
الثانى هو « التبكيك » بالياء .

هـ - كانت الموضوعات التي طرقها النديم أكثرها يتصل بالمجتمع وأقلها يتصل بالسياسة وقد كان النديم من أوائل من أدركوا في مصر أن الأسلوب الصحفي في اللغة غير الأسلوب الأدبي ولذلك ترك السجع وعُدل عن الزخرف ولم يأنف من استعمال بعض الاصطلاحات الدارجة والألفاظ العامية المألوفة لإيضاح غرضه للقراء .

ثم نشبت الثورة العراقية واتصل بها النديم وطلب إليه أن يخدم الثورة بصحيفته وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى نقلوا النديم وصحيفته إلى ميدان القتال وأطلق هو على صحيفته الجديدة اسم الطائف .

صحيفة الطائف

في هذه الجريدة كان النديم معنياً بالثورة العراقية لذلك كانت مقالاته السياسية فيها طابع ثوري واضح وقد بذلت جميع الصحف المعاصرة وهي (الاهرام - المفيد - الفسطاط - السفير - الجناح) في المكانة والخطورة . بدأت الصحيفة أولاً تتحمل على المساواة الاجتماعية العامة ثم انتقلت إلى الموضوعات السياسية العميقة والأخبار الهامة التي تميزت بها في عهد الثورة حتى أن معظم الجرائد المعاصرة نقلت عنها أكثر ما نشر . وكان من أهم وظائف الطائف الدفاع عن الثورة ورجالها وقد احتفى بهارجال الثورة وأنصارها فاشترك لها النواب بمبالغ كبيرة وأصبحت لهم لساناً فيه من العنف والشدة ما اضطر الشيخ محمد عبده رقيب المطبوعات العربية والتركية إلى تعطيلها شهراً وقد اتخذ عطف الهيئات النيابية عليها لوناً رسمياً نذكر تفاصيله لأنه نادرة في صحافة الشرق والغرب على السواء .

فكتب محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٩ هـ إلى داخلية ناظرى عطوفتو أفندم حضر تارى يقول : « حيث أن حضرة محرر الطائف أظهر إرتياحه إلى نشر محاضر المجلس

وأفكار نوابه وما يتبع ذلك ، مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجلس
رئى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات
بمعرفة هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص ونسبتها إلى المجلس على الوجه
الذى قدمه حضرة محررها الموماً إليه .

وقد ذكرت جريده مصر فى ٢٣/٣/١٨٨٢ تعليقاً على ذلك : —

إن مجلس النواب وقد اختار جريدة الطائف الغراء لنشر ما يروم إبداءه
من الآراء والخواطر والتقارير والمحاضر فهى الآن صحيفته الشبيهة بالرسمية
ثم تقول « وجريدة الطائف جديرة بهذا الاختيار فهى موصوفة بالوطنية
معروفة بهدق النية منتشرة نافذة الكلام خطيرة مرعية المقام » .

ظهرت خطورة الطائف فى هذه الرسمية التى حببها لهاها الحكومة دون
صحف الثورة الأخرى ، فقد استطاع محررها أن يكون على بينة من شئون
الدولة وأن يجد فى عطفها المادى والأدبى ما يعينها على تخطى المصاعب التى
تعرض الصحف عادة وتحول دون تقدمها وهذه ميزات بجانب قدرة محررها
تجعل لها مكانة خاصة بين الصحف المصرية خلال الثورة العرابية .

ولم تقتصر الطائف على « نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه » بل صورت
الأعداد القليلة التى عثرنا عليها مدى العنف فى تحريرها وأظهر ما فيها حياة الخديو
اسماعيل ووصف مظالمه والأساليب التى اتبعها فى سلب الأملاك من الفلاحين
والملاك وسنأتى بفصول منها فى مكان آخر .

والحق الذى لا مرية فيه أن النديم كان أول كاتب صحفى جرى انتقد
أشد الحكام لإساءة لمصر من أبناء محمد على وهما اسماعيل وتوفيق ووصف
جنايتهم على البلاء بما أدى بها إلى الإفلاس المالى والارتباك الاقتصادى
الذى أدى بدوره إلى الاحتلال البريطانى فى عهد توفيق والفصل الخاص
بمساوىء توفيق يعد متمماً للفصل الخاص بمساوىء اسماعيل .

ولما انتقلت جريدة الطائف من الحملة على اسماعيل إلى الحملة على الخديو توفيق في لهجة شديدة صريحة أمرت الحكومة بتعطيلها نهائياً في ١٧/٥/١٨٨٢ ترصية للخديو توفيق واعتذاراً له عما كتبتة صحيفة الحكومة من التعريض به والإساءة إلى الحاكم الشرعى .

تخرجت الأمور في مصر قبيل الاحتلال البريطاني بثلاثة أشهر تقريباً فتدخلت الدولتان الإنجليزية والفرنسية بمذكرة تطلبان فيها استقالته الوزارة البارودية وإبعاد عرابي وبعض خاصته من مصر، وإعادة السلطان المطلق إلى الخديو توفيق وقد ترتب على هذه المذكرة استقالة الوزارة وتأليف الوزارة الراغبية ودخل فيها عرابي باشا وزيراً للحرية ثم تطورت الحوادث سرعاً وحدثت مذبحة الإسكندرية وانتقل الخديو إلى الشغرى في ١٩/٦/١٨٨٢ واعتمصم بها حتى قضى الأمر باحتلال مصر وتسليم العرايين .

ومنذ ضربت الإسكندرية وانحاز الخديو إلى الإنجليز حين احتلوها أصبحت في مصر صحافتان - صحافة في القاهرة تمثلها الوقائع المصرية والطائف وقد عادت إلى الحياة (والنجاح وما إليها من صحف الثورة الأخرى) وصحافة في الإسكندرية يقود زمامها الشيخ حمزة فتح الله في جريدة «الاعتدال» يحمل فيها على عرابي ورجاله ويعاون فيها أديب اسحق بالمقالات والمنشورات (مصر للمصريين جزء ص ١٧٦ - ١٩٣) .

وبقيت صحف الثورة في القاهرة خلال الحرب العرابية فيما خلا «الطائف» فهذه قد انتقلت إلى الميدان الحربى حيث تحرر عن كذب في معسكر «كنج عثمان» وكانت معظم مقالاتها لاستثارة الهمم والطعن على الخديو والإنجليز وعن «الطائف» نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفصيلاتها فضلاً عن مقالات محرريها ثم دأبت الجريدة على إصدار ملاحق لها تذكر فيها مساوىء أنصار الخديو ومن هذه الملاحق الملحق الذى نشرته بعنوان (سليم وبشاره

تقلا والحديو توفيق (ملحق الطائف في ٨ شوال سنة ١٢٩٩ هـ وفيه هجو مقذع شديد .

وأهم ما امتازت به صحيفة الطائف هو :

١ — بعد أن كانت كتابة النديم في صحيفة « التنكيت والتبكيت » تقدم على الكتابة والرمز وتم عن الحياء والحذر أصبح في جريدة الطائف يكتب بلغة سافرة لا يخشى فيها ساطانا ولا يابه بملك أو أمير ويترجم عن أفكار رجال الثورة وآرائهم ويصدر عن هذا الرجل الذي غلا في صدورهم .

٢ — كتب في الطائف المقالات العنيفة التي تشرف النديم أبدا الدهر ، فقد سبق جيله وكأنه قرأ في لوحة المستقبل سطورا عن جهاد الأجيال المقبلة في التخلص من نير حكام بيت محمد على فكاتب أخذ ما كتبه صحفي حتى الآن عن ظلم اسماعيل واغتصابه حقوق الشعب وأملاكه دون حسيب أو رقيب ثم كتب عن توفيق الذي خان الأمانة وخان الشعب وسلم بلاده للإنجليز واهتم بالدول الأجنبية . ولعمري فإن هذه الصفحات التي نعتها بعض الصحفيين — بأنها مليئة من النقمة والتشفي في اسماعيل (طبعا كتبوا ذلك خشية من نفوذ أبناء محمد علي) لتعد أعظم ما يشرف تاريخ كاتب مصري نزيه .

٣ — حفلت الطائف ببحوث قيمة عن حالة الفلاحين وما انتهوا إليه من بؤس وعوز ودعوة الحكومة إلى العناية بهم من جميع النواحي الممكنة .

٤ — دعا النديم إلى الإصلاح النيابي في مصر وكان رأيه أن الإصلاح السياسي في مصر لا يقوم إلا على الإصلاح النيابي .

٥ — تحررت الطائف في أول الثورة الصدق في رواية أخبارها ولكنها انحرفت بعد ذلك ولم تلتزم جانب الصدق وأخذت تذكر الحوادث والأخبار على غير حقيقتها ثم نوعا من التهويل في ذكر ما يدور من معارك بين المصريين

والإنجليز ولهذا السلوك ما يبرره من تقوية الروح المعنوى فى الجيش وإبعاد شعور القلق والخوف عن الشعب .

٦ — أصدر النديم مع الطائف ملحقات به كان يبيح لنفسه فيه حرية النقد والمبالغة فى التجريح والذم فوق ما ينبغى لصحفى شرقى أو غربى .

٧ — رغم ما جاء فى أسلوب الطائف من عنف ولكن غلبت عليها العبارة المشرفة والصور البديعة ورصعت بالبحوث القيمة فى المسائل السياسية والاقتصادية وكانت فصولها مثلاً رائعاً فى البلاغة والبيان .

صحيفه الأستاذ

عفا الحديو عباس الثانى عن السيد عبد الله النديم فعاد إلى مصر وآل على نفسه الدفاع عن الحديو ونفذ إلى الميدان السياسى من هذه الثغرة وصال فى هذا الميدان وجال مدافعاً عن الحركة الوطنية حيناً ومهاجماً الاحتلال الإنجليزى حيناً آخر، ولكنه رغم كتابته فى الأغراض السياسية بما أحفظ الإنجليز عليه فقد اختص الجزء الأكبر من نشاطه فى هذه الصحيفة للإصلاح الاجتماعى وإصلاح التربية والتعليم والدفاع عن الشرق ضد مطاعن الغربيين وافتراءاتهم .

ظهر العدد الأول من الأستاذ فى أغسطس سنة ١٨٩٢ وكانت الجرائد المشهورة فى عهده المقطم والأهرام والنيل وكان لها ثلاث اتجاهات منها ما يسالم الاحتلال ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورائها السياسة الفرنسية ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية وكل منها يعرض وجهة نظره فى شىء من الهدوء والوقار .

أما الأستاذ فقد دعا إلى مصر للبصريين لا لتركيا ولا للأوروبيين وناصر

الحركة الوطنية والالتفاف حول الخديو أمير البلاد ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكانهم ويتصلوا بالجمهور ليوقظوه ، ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكون لكل جريدة حزبها ولكل حزب برامجها .

ولقد جاء حاداً عنيفاً في كتاباته بما استتبع الحدة في الرد عليه من جوانب الصحف الأخرى ، فتميزت الجرائد بعضها عن بعض في وضوح وجلاء وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع في المسائل العامة أكبر موقظ للرأى العام النائم وبعث وعيه وتنبيه تفكيره إلى المسائل الهامة التي تتعلق بأسبابها مصير بلاده ومستقبلها السياسى والاجتماعى .

وكانت جريدة الاستاذ هي الاستاذ للزعيم مصطفى كامل في صباه تعلم منها الاتجاه والنخمة وإن اختلف عنها من حيث الثقافة والاسلوب تبعاً لتطور الظروف والاحوال .

وقد لقيت هذه المجلة إقبالا منقطع النظير وتجلى هذا الإقبال في كثرة عدد المشتركين فيها فبلغ عددهم في العاصمة وحدها ٨٦٠ مشتركاً و ١٧٨٠ في الخارج وكانت تطبع من العدد الواحد ٢٨٤٠ نسخة وهذا العدد يدل على رواج الصحيفة وقد امتلأت بالأزجال والمناظرات والمقالات الطويلة لما تفيض به من بحوث عميقة ودراسة دقيقة . وقد صدر العدد الأخير منها في ١٣/٦/١٨٩٣ وفيه ودع قرامة في كلمة له بعنوان « تحية وسلام » ، شكر فيها للقراء عنايتهم به وإقبالهم عليه وذكر لهم أنه صمد لطائفة التهم التي وجهت إليه ومنها التعصب الدينى وأنه محرر ثورى وهو يشكر للصحف التي دافعت عنه ضد هذه التهم كجريدة المؤيد والأهرام والوطن وبعض الصحف الأجنبية في مصر وأوروبا ، ولا ينس في هذا المقال أن يقدم الشناء عاطراً للخديو عباس فهو الذى أصدر عفوه ومنحه الحياة في مصر ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم وأشفقوا على الجريدة من الغيبة ثم قال :

« وكنت أود لودامت لى صحى فأقوم على خدمتى ولكنى أصبت بضعف فيها وأشار على جميع الأطباء بتغيير الهواء خارج القطر المصرى حتى يقوى ضعيفكم ويشفى مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله . »

وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلاثمائة صحيفة وأهم ما امتازت مجلة الأستاذ فى الكتابة فيه هو :

١ — التوسع فى الإصلاحات الإجتماعية .

٢ — نقد أساليب الزراعة فى مصر وتأخرها ووجوب إصلاحها .

٣ — فوضى اللغة العربية ووجوب إنشاء مجمع يحيط كيانها ويكمل نقصها .

٤ — كان ينشر ملحقاً د للأستاذ ، وهو صفحات من كتاب ألفه وهو فى المخبأ اسمه « كان ويكون » ووضعه على نمط قصصى وهو خلاصة ما كان يدور بينه وبين صديق فرنسى من حديث وجدل يتعلق أغلبه بأصول الأديان الثلاثة وتاريخها وبعض الأخبار عن مخبئه وبعض الآراء السياسية والاجتماعية ويدل ما نشر فى المجلة على نظر عميق وبحث واسع وسماحة دينية لطيفة ولم ينشر الجزء الباقى من هذا المؤلف وكان يشمل جانباً من السياسة والتاريخ المصرى القديم .

٥ — ناصر الخديو عباس الثانى فى النزاع الذى قام بينه وبين الإنجليز سنة ١٨٩٣ على أثر عزل الخديو صليعته مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الحين فقام المترجم يكتب فى المجلة مستنهضاً الهمم حاضاً على مؤازرته وينبذ طاعة الاحتلال وكان ذلك سبباً فى إثارة الإنجليز عليه ونفس بعض أصحاب الصحف الموالية لهم لما رأوه من رواج صحيفته وكان ذلك هو السبب المباشر الذى أدى إلى تعطيل صحيفته .

نماذج من كتابته في جريدة التنكيت والتبكيك :

في ٦ يونيو سنة ١٨٨١ أصدر النديم أول عدد من أعداد هذه الجريدة وكتب افتتاحيتها بعنوان (أيها الناطق بالضاد) قال فيه :

دأتقدم بين يديك بخدمة وطنية ، دعاني إليها حبي فيك ، وخوفي عليك وما هي بالمعظمة قتشكر ، ولا بالبليغة 'فتمدح ، وإنما هي صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد ، ومضحكات بعارة سهلة ، لا يحتقرها العالم ، ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير ، تصورك الوقائع والحوادث ، في صور ترتاح إليها النفوس ، وتميل ، ويخبرك ظاهرها المستهجن ، بأن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك نقابها الخلق بأن تحته جمالا يعشق ، وحسناً تذهب الأرواح في طلبه ، هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيك ، ليست منمقة بمجاز واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا منمخرة برقة قلم محررها ، ونظامه انمظه ، وبلاغة عباراته ، ولا معربة عن غزارة علمه ، وتوقد ذكاته ، ولسكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها . فاجعل لها نصيباً من عمرك الجليل ومتعها بنظرة تجلو مرآتها ، وتبصر حباياها ، ولا تفوق سهام الرد قبل أن تدخل فيها المضمار ، ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزاً بنا ولا سخرية بأعمالنا ، فإني لا نفثات صدور ، وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا ، فإن صدقت في الخدمة فاجري منك المساعدة ، وإن قصرت فقد بلغت جهدي ، وحزمت ما في إمكاني ، فإن شئت عذرت ، وإن شئت أطلقت عنان أفكارك في ميدان يكبو فيه جوادى ، ولسنا بدار الحرب أو أرض فتنة ولكن لنا في العالمين نظير .

ثم مضى النديم في هذه المقدمة الرائعة ، موضحاً للقراء أسباب تقدم الغرب ، وتقهقر الشرق ، وكيف تنبه الأوروبي ونام المصري ، وكان

أسلوبه في أداء هذا المعنى موسيقياً بما كان يوفر له من السجع أو الزواج
وجزلاً بما كان يؤثر إذ ذاك من خولة الألفاظ . . ثم ختم حديثه بقوله :
وسأتحفك بغرائب قومك ومناقب أصلك أقدمها إليك شذوراً مردفة ،
بما نحن فيه من التنكيت لتعذر المهتمين ، وترحم المسكين ، وتكون من
الذين أعادوا مجدهم وأحبوا أوطانهم ؛ فأصبحوا ببقاء ذكرهم في الوجود
من الخالدين .

* * *

مجلس طبي على مصاب الأفرنجي

من الموضوعات البارزة في العدد الأول والتي قصد منها تنبيه الخاصة إلى
المسألة المصرية التي كانت تشغل الأذهان في وقته وكفى بلغظ « مصاب
بالأفرنجي » عن الخراب الذي أصاب البلاد ، نتيجة لتدخل الأجانب ،
ولإسراف اسماعيل ، ووقوعه في الديون وفرض الرقابة الشنائية عليها ، إلى
آخر تلك المصائب التي حلت بالبلاد .

وقد رمز النديم في هذه القصة إلى جميع تلك الأمور : —

كان هذا المصاب صحيح اليلية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف
الشكل ، ما رآه فارغ القلب ، إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيداً ، إلا طار
إليه شوقاً ، نشأ في العالم روضة ودراية أهله ، يحفظونه من الأعداء ويدفعون
عنه الوشاة والرقباء وقد مات في حبه جملة من العشاق . الذين خاطروا في
وصله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه ،
وعزة لا يشارك فيها مشارك ، وهو غزال في الخفة ، وغصن في اللين وبدر
في البهجة ، وجنة في المنظر ، تمر عليه الدهور فتزیده حسناً ، وتتوالى عليه

العشاق فنزداد هياما ، وأهله فرحون بهذا البديع الفريد ، والطالع السعيد ،
يعشقون الموت في حياته ، وقد اتفقوا على توحيد كلمتهم في حفظه ، وجمع
شتاتهم في رحابه ، وصرف حياتهم الطيبة في بقائه في الوجود ، معززا بأهله
مؤيدا بعشائره ، حتى لا تمد إليه يد عدو ، ولا يوجه إليه فكر محتال ،
ولا يقرب منه مغتال - وبينما هو يتيه بحسنه ، ويدل بجماله ، صحبه أحد
المضلين ، واستماله بنمق تمل إليه النفوس ، فظن أهله أن هذا المضل من
من الأتقياء الذين لا يعرفون الله ، ولا يميلون إلى المفاصد وسلموة جنة
حياتهم ، وروضة ثروتهم ، فدار بها في الأسواق والطرقات ، وعرضه للعشاق
تقبله جهارا . وتسلبه ، حلى أصابعه ، وزينة صدره ؛ وقد علموا أن الجمال
يأسر الجميل فأحضرا من الغواني ، من تعارض الشمس بحسنها ، وتسكف
البدر بنورها ، فدرن في سبيل بيته يغازلن أهله بنغمات تحرك الجبان ،
ومؤانسة تستميل الشجعان ، حتى سدن العقول وحولن الطباع . . . وجعلن
الجمال مبذولا بلا قيمة ، والوصال ممنوحا بلا مقدمات ، وذلك الصاحب
مكب على هواه . ملزم بجميع الغرباء واستدعاء الأعداء ومصاحبة الأشقياء
ومسامرة الأغبياء . . . إلا أن هذا الغزال الطاهر العرض ، لما رأى أهله
أهدروه وأهملوه ؛ واشتغلوا بالغواني ، وولعوا بخدمة الأجانب ، وانكبوا
على الملاحى يتبعون آثارها ، استسلم للقضاء وترك النفار ، والتحمس ومال
مع أغراض هذا الصاحب وسار معه في طريق لا يرى فيه أحدا أهله .

فأهى لإلا رشفة كأس حتى أصفر وجهه ، واتخت أعضاؤه ؛ وذهبت
بهجته فسلم جسمه الشريف إلى الفراش يتمل عليه ، ففطن واحد من أهله
وزاره في خربة لم يجد فيها غير شيخ يعلل نفسه بالأمانى ، ويصعد الزفرات

(١) الخربة هنا كناية عن الخراب الذى حل بالبلاد .

وقد برزت عظام وجهه وغارت عيناه وتشوه وجهه وتبدلت محاسنه بقبايح
تنفر منها الطبائع فبكى وانتحب وقال :

أى بحياتى أى جنتى أى زهتى ، أى مطلع عزى ما الذى أصابك ،
أين جمالك البديع . أين محياك الزاهى ، . أين حسنك الذى أفنى الكثير
من العشاق . . أين صحتك التى أشابت الدهور وهى فى عنفوان الشباب . .
أين قوتك التى أسرت بها الأشباح . . أين رقتك التى جذبت بها الأرواح . .
أين ما كان عليك من الحلى والزينة أين تاجك الذى ما لبسه لإنسان إلا
افتخر على الوجود . . .

فتنهفس المصاب ننهفس الضعيف ، ورمقه بين لا يكاد يتحرك جفنها ،
وقال بصوت خفى - لا يغر عليك جسم أمرضه أهله فإنكم تركتمونى
لصاحبى يدور فى أينما دار فعرضنى لمن لم أعرف طبعه ، ولا عادته ولا لغته
ووكل فى من يغرنى ويسلك سبيل النواية ؛ فلم أجد بدا من الموافقة ودرت
أما كن اللهو حتى أصبت بالداء الأفرنجي - فلم أعبا به أول الأمر وترك
نمسي وكتمت خبري . . . فلها ضعفت قواى وتعطلت حواسي ، سقطت
فى هذه الخبرة^(١) ، أقلب جسمي على الأحجار وارمق بعيني آثار أهلي
وقصورهم المتهدمة ولكن لا أستطيع حراكا حتى كنت أغالب هذا (الأفرنجي)
وأصل إلى مقرى فأعالج نفسي بمحاشائش تربى وعقاقير أرضى من يد أطباء
بلادى وصيادلة ديارى^(٢) . . .

فقام هذا الزائر يضرب الكف بالكف أسنأ ويعض أنامله غيظاً
وأسرع إلى الحى ونادى .

أيتها القبور الصامتة ؛ انشقى وانفرجى وابعى من فيك من الأموات

(١) الخبرة كناية عن الحراب الذى أصاب الديار .

(٢) الأطباء والصيادلة هنا تعنى المصلحين والعقلاء من أمته وهم القادرون على لمقاذ البلاد .

فقد أتت الطامة الكبرى ، وانكدت نجوم المنشور - ويا أيتها الارواح الخالدة - هلى إلى أجسامك البالية ، فأقيمها من موتها ، وابعثها في الوجود لتنظر هذا الذى تشقى بعدهم وتحاسب عليه .

فلم يكن إلا كبح البصر ، حتى ملئ الفضاء بأناس لا عدد لهم ؛ يقدمهم طبيب بارع قد استصحب معه جملة من الأطباء ، وساروا إلى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها يقبلونها عن اليمين وعن الشمال ، ويقرعون صدرها ، ويحسون نبضها ، حتى وقفوا على دائها وعلوها أصل مصابها ، فحكموا على صاحبها بانزاعه منها ، وفوضوا أمر هذا المصاب ، إلى الطبيب البارع يتولى علاجه ويدأوى جراحه ؛ فطلب من بقية الأطباء ، أن يرافقه في هذه المعالجة ليتقوى بأفكارهم على ما يصلح به هذا الجسد الشريف .

وبعد تبادل الافكار بينهم قر الرأى على أنهم يركبون له دواء ، يوقف مريان الداء الآن حيث تحكم وتمكن ، وبعد ذلك يتداولون فيما يزيل المرض ، ويعيد الصحة ؛ فتعلق بهم أهله يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه ؛ فترضتهم الاطباء وسألتهم الهدوء ؛ والسكون ومساعدتهم في خدمته ؛ وتنظيف محله ، وتطهير أعضائه ؛ وحفظه بحيث لا يتركوا الغرباء يتولون خدمته ؛ ولا يمتكنون الاً جانب من الوصول إليه خوفاً من افسادهم العلاج وسعيهم في إتلافه أكثر مما صنعوه به ، فكثرت صياح أهله ، وعلت أصواتهم بالعويل ، ووضعوا أيديهم على أكبادهم ، وتصبروا وابتدأوا يعملوا بمشورة الاطباء ، ويذلون الجهد في وقايتهم وصيانتهم من كل من كان من جنس مصيبتهم - قال الراوى : وبينما أنا أبكى وأنوح من هؤلاء المساكين ، وإذا بالموذن ينادى حى على الفلاح فقمت لأقضى الفرض وأعود لمباشرة الخدمة مع إخوانى إذ لم أر قبل هذا اجتماع مجلس طبي على مصاب بالافرنجى .

ولقد وضع النديم في هذا المقال ؛ مدى ما أصاب البلاد ؛ من تدخل

الاجانب في شئون البلاد ، ثم بين أن العلاج ميسور ، بتعاون عقلاء الأمة ، وذوى رأى فيها ، واتحادهم على علاج البلاد السريع .
ويعد هذا المقال مثالا ، للمقالات التى كان يكتبها النديم للطبقة الخاصة - أما الطبقة العامة فقد خاطبها في صحيفته بعدة مقالات منها مقال بعنوان (عربى تفرنج) وآخر بعنوان (سهرة الإقطاع) وثالث بعنوان (تخريفة الجنون فنون) . الخ .

ولنعرض شذرات مما كان يكتبه النديم لتعليم وتنبيه الشعب ولنبدأ بقصة عنوانها د محتاج جاهل فى يد محتال طامع .

احتاج أحد الزراع لاستئانة مائة جنيه فقصد بعض التجار وهاب منه المنلغ فحرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء .

الزارع - عاوز ميت جنيهه بالفرط^(١) يا سيدى .

التاجر - فرط المية عشرين كل سنة .

الزارع - اعمل اللى تعمله .

التاجر - شيل عشرين من المية يبقى كام .

الزارع - طو انا كاتب شوف يتفضل كام ؟

التاجر - يبقى سبعين .

الزارع - يدوب كده .

التاجر - دلوقت صار لى مية جنيه - ضم عليهم عشرين واكتب

الكميالة .

الزارع - اكتب وخد الختم أهو .

وفى وسط الستة قدم الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أراب سمسم

وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير وجاء يحاسبه

فكانت الحكاية هكذا .

(١) يريد بالربح أو بالفائدة .

الزارع - طلع لى ورقة الحساب يا سيدى .

التاجر - لانت جبت قطن بعشرين جنيه وقمح بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه . يبقى كام ..

الزارع - ما قلت لك من ديك المره ما يعرفش الحساب .

التاجر - الباقي تسعين جنيه وفرطهم عليهم عشرين يبقى مية وخمس عشر . طالب انت كان ثلاثين يبقى مائة وستين ضم عليهم أربعين فرط يبقى الكمبيالة نكتب بمائتين وعشرة ونصف .

الزارع - هو ليه - من الاصل سبع عشرات وعشرين وجا لهم ثلاثين وثلاثين شلت منهم ثمن البتوعات إلى جبتهم يبقى لك دلوقت مائتين وعشرة بس . والنصر جبتو مقين .

التاجر - النص أجرة كتابى لا من الارباح .

الزارع - آى دلوقت صحت الحسبة . والسنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه يبقى لك ليه بعد كده .. يا جنينيين يا ثلاثة نخذ لك بهم جاموسة ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده يستريح ده من ده .

فقال النبيه للتاجر - أما تتقى الله فى هذا المسكين أخذت محصوله وصار دائماً لك فلفقت له حسبة لا أصل لها وجعائته مدين فإن حسبتك معه هكذا .

٧٠ بفائدة ٢٠ فى المائة فالمطلوب ٨٤ وهو أورد لك هذا القدر .

١٥ قنطار قطن سعر القنطار ٢ جنيه فالمجموع ٣٠ جنيه . الخ نهاية الحساب والمجموع الكلى ١٢٥ جنيه - يكون له عندك ٤١ جنيه . فكيف جعلته مديناً بمائتين وعشرة ونصف وبعد ذلك - إن هذا هو السلب بلا خوف .

- ١٢٧ -

التاجر - يا حبيبي الزاري حمار ، وأنا إذا كان مش يعمل كدة ، مش لازم ييجي تاجر بنسكير بعد خمسة سنة .

فقال - قد تغيرت هيئتنا ، ونهت حكومتنا ، فهي تسعى في عمل نظام يحفظ الحقوق ويمنع تعدى مثلك على هذا المسكين ، حتى لا يقع بعد ذلك جاهل محتاج في يد محتال طامع .

وهكذا يعرض النديم على الشعب أمثال هذه القصص التي تفيض سخرية بالجهل ويطل من ثناياها سوط التأنيب اللاذع ، والتنبية الشديد ، للشعب إلى شئونه ودفعه إلى نفض الجهل بعزيمة قوية .

حكاية عربي تفرنج

ومؤدى هذه القصة أن كان لأحد الفلاحين (معيط) ولد (زعيط) عاش معه في الريف ردحا من الزمن ، ثم أتم دروسه في المدرسة وسافر للخارج في بعته عليّة ، وعاد إل بلاده بعد أربع سنوات ، وأتى أبوه لاستقباله في رصيف الإسكندرية واندفع الأب يحتضن ولده ، ويقبله فابتدره لابنه قائلا .

سبحان الله عندكم يا مسلمين مسأله الحصن دى قبيحة جدا .

معيط - أمال يا بني نسلم على بعض ازاى .

زعيط - قول بون أريفي bon Arrivé وحط إيدك في إيدى مرة واحدة . وخلص .

معيط - طو يا بني أنا باقول مفيش ريفى ؟

زعيط - موش ريفى يا شيخ . أتم يا أبناء العرب زى البهايم .

معيط - الله يسترك يا زعيط والله جا خيرك . . الخ .

وهكذا احتوى العدد الأول من مجلة التنكيت والتبكيست ست مقالات اثنتين منها للخاصة وأربع للعامة وخطب النديم كل طبقة بما يتفق وثقافتها وذلك من حيث المعاني والألفاظ .

كم في الزوايا من خبايا

كما كتب في العدد الثاني من المجلة هذا المقال ، يتهم فيه بلغة رجال الإدارة ، وجهلهم وسوء تصرفهم ، فمن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ في عمله ، فأرسل له رئيسه كتاباً يوبخه فيه ، ويسأله الإجابة ، فطلب المأمور رئيس كتابه ، فكتب له جواباً سقيم العبارة ، سخييف اللغة ، تافه الفكرة ، فلم يسترح المأمور إلى ذلك وأخيراً دله بعض جلسائه إلى شاب عنده في الديوان لا يتجاوز راتبه ثلاثة جنيهات ولكنه يجيد الكتابة ، فكتب له خطاباً بلغة صحيحة ومفهومة ، فلما قرأها على المأمور ، كاد يطير فرحاً بنجاة الشاب .

وقال - كيف يكون هذا بثلاثمائة قرش ورئيسه بألف قرش .

فقال له الوكيل - هذا من أولاد الفقراء وليس له محسوبة ، على أحد الأمراء ولا يعرف النفاق ، ولا يفعل أمثال المحتالين ، التي تقدمه إلى ذوى الغايات .

(التبكيست) أعظم مصيبة من رئيس كتاب لا يعرف الإنشاء ، ووجود مأمور لا يحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسرار الخفية ، ثم في نفس هذا العدد من أعداد مجلة التنكيت والتبكيست ، أجاب النديم عن سؤال تخيل أنه ورد عليه ، وهو بأى سبب ماتت صنائع الشرق ، واقتقر أهلها - وبأية وسيلة تمحيا ، وتعود ثروة أهلها .

فأجاب عن ذلك بأن الصنائع قد ماتت بتجارب أهلها ، وبتباغضهم

الذين أورثهم الفقر ، وفقد الأمن والثقة بهم ، واحتج لرأيه هذا بمقال طويل وأدلة قوية .

أما العامة فكان نصيبهم من هذا العدد ، أحاديث (تخريفية خد من عبد الله واتكل على الله) وهى باللغة العامية .

وهكذا قد أتينا بأمثلة بما كان يكتبه النديم فى صحيفة مجلة التنكيث والتبكيث فى العديدين الأول والثانى وما كان يحرص عليه دائماً من الجمع من فائدة الطبقة الخاصة ، والطبقة العامة من الشعب .

ومن عيون مقالاته فى التنكيث والتبكيث مقالة « متى يستقيم الظل والعود أعوج » فى العدد الـ (٦) فى ١٧/٧/١٨٨١ - فكتب جاء فى مقدمتها .

« أيتها المحررون القائمون بهذيب النفوس ، افتوتنى فى نفوس ان سمعت لموعظة ضللت وإن رأت الحق نفرت ، وإن ادعت النور أظلمت ، وإن قيدت إلى الخير جمحت ، وإن منعت من الشر رحمت ، وإن أغضبت رضيت ، وإن أرضيت بطرت ، وإن سمعت تقييح فعل من مذهب رمت به ، وإن ردت عنه جميلا ، إدعته لها ، وإن أرشدها مقنته ، وإن مدحها قذفته ، وإن صحبها أساءته ، وإن أثنى عليها شتمته ، وإن خدمها أهانتها ، وإن نصحتها لعنته .

أظنكم إذا ابتليتم بمثلها ، قصفتم الأقلام ، وكسرتم المحابر ، ولطمتم باب العلوم بالحداد وادعيتم الحرس حتى لا تكلفون إجابتها ، وتعاميتم حتى لا تبصرون هيولاها ، واحتجبتهم حتى لا تنقع أقدامكم على أثرها فى الطريق ، وأراكم تهزون الروس ، إنكارا على ، زاعمين أن الوجود مطهر من مثل هذه النفوس الخبيثة . الخ .

تم يتكلم بعد ذلك عن الذين حاربوه فى رسالته العظيمة أثناء إدارته مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، والعمل على إفساد حفلته التمثيلية ، التى مثل فيها رواية الوطن وطالع التوفيق وصرف الناس عن

حضورها ثم ينمى على الأغنياء لمساكنهم عن مساعدة المشروعات الخيرية ،
التي تعمل لخير الفقراء والمدارس التي تعنى بتعليم أبناء الشعب .

ثم ناشد أصحاب الأقلام ، وأرباب الجرائد لمساعدته قائلا :

فيا أصحاب الأقلام وأرباب الجرائد هلا سمعتم معى فى هذا الطريق الذى
لا يضيع فيه عمل عامل ويا أبناء وطنى هلا رأيتم هذه الآتاعاب
فشاركتهمونى فى تحمل بعضها . . . ويا أهل الغيرة هلا عطفتهم على بما أتمم به
أعمالى فى تربية الأيتام لا فى مطعومى ولا مشروبى فقد رضيت بالكشفاف
وقنعت بما يستر العورة ويسد الخلة .

ومن روائع كتاباته ما جاء فى مقالته « إضاعة اللغة تسليم للذات » .
أيها الناهق بالضاد .

بما تستبدل لغتك وما لها من مثيل . وإلى من تتركها وأنت لها كفيل ،
وما الذى استحسنته فى غيرها « واستقبحتته مقابله منها ، وأى شىء طلبته
فيها ولم تجد له إسماً . ترى أنك فى عصر تمدن ، يقضى عليك باستعمال أرق
اللغات لسهولة التركيب ، وعدوبة اللفظ ورقة المعنى . ناشدتك الله ، أو جددت
فى اللغات الحديثة العهد ، ما اشتملت عليه لغتك القديمة ، أم رأيت حسناً
فى اللغات التى تنفتح كل يوم تعليم المتمدنين لم تره فى لغتك الفطرية الخلق
المجموعة فى زمن الهمجية ، كما يزعم الجاهلون ؛ أترى إذا عبرت عن شىء
بلفظ فى غير لغتك وأردت أن تتصرف فيه بعبارة أخرى ؛ هل تجد له
مرادفاً واحداً ، كما تجد فى لغتك للفظ جملة مترادفات أم أنت الجاهل بقدرة
لغتك ، الغافل عن عظيم قدرك فى تاريخ العالم قديماً وحديثاً ، أظنك فى احتياج
لفهم سر اللغة ومعرفة ما يترتب على ضياعها ، ولا تثريب عليك فى أمر لم
يبحث فيه إلا بعيد الغور فى حساب العواقب ، شديد الحرص على بقاء وحدة
الهئية الاجتماعية .

اللغة سر الحياة والحد الفارق بين الإنسان والبهيم بها يترجم اللسان
خواطر القلب ، ويجاو بنات الأفكار ، وبها يعشق المرء وإن كان دميم
المنظر ، إن رقت استنطقت القلوب القاسية ، وإن غلظت أخضعت النفوس
العاتية وإن فحشت حركت الطباع وإن لطف رفعت الأوضاع وإن حسنت
ألقت القلوب ، وإن سهلت أظهرت العيوب ، وهى التى بها حدثت قلب أمك
ان استعطفت جانب أبيك وملكت فكر أخيك ، واستملت صاحبك ،
وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك وقابلت بها نزيلك ، فهى أنت إن
كنت لاتدرى من أنت . وهى وطنك إن لم تعرف ما الوطن) .

ملحوظة : سبق الإشارة إلى هذه المقالة ، فى باب سعيه فى سبيل اللغة
العربية ص ٥٦

نماذج من مقالات النديم من جريدة الطائف (وهوى ميدان
القتال بالقرب من الإسكندرية)

كتب النديم فى العدد الرابع والستين من جريدته الطائف
فى ٨ شوال سنة ١٢٩٩ هـ

المعزة الثانية

إن جندنا لهم الغالبون

أى بنى مصر ، خذوا حديثاً يرويه الأيمان عن المشاهدة ، ويخبر به الصدق
عن الحقيقة ، جهل الإنجليز مقام المصريين ، فاعتدوا واجلبوا عليهم بالخييل
والرجل ، يريدون ليطفشوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ، ولو كره
توفيق باشا ومن معه ونال الإنجليز العذاب ألواناً من يد المصريين فى
٥ رمضان سنة ١٢٩٩ فآبت جهنم إلا أن يساق إليها جانب عظيم منهم يزداد
به وقودها فتجمعوا وأقاموا خمسة عشرة يوماً يحجزون ويرتبون حتى إذا

جاء أجلمهم ساقهم المنية في يوم السبت زمراً تحت رئاسة الدوق (دوكنوت) رابع أنجال ملكة الإنجليز ، وقيادة السير (أشيداليزون) أشهر قواد الإنجليز ، فخرجوا في الساعة التاسعة بقوة مركبة من عشرة آلاف عسكري ، ما بين بيادة وسوارى وطوبجية ، وكان خروجهم على هذا الترتيب .

وبينما كانت الطابية تضرب القطورات . قرى عساكرهم البيادة ، والسوارى والطبجية من عساكرنا فأمطرتهم بنادقنا رصاصاً غير بارد ، وسقطهم شراباً غير راو ، وكانت مدافعهم من جهة محطة السيوف ، ومن طابية الرمل تضرب ، ومدافع مقدمتنا الأمامية وطابية الخفر الأول تجمع من شرد منهم وترد الهارب ، فإن طوبجيتنا من المشهود لهم في تاريخ العسكرية ذكراً جميلاً كيف لا ، ورئيسهم البطل الهمام سعادة بدوى بك كان يطوف حول المدافع كأنهم بين يدي أمير مطاع ، يأمر فلا يرى إلا نشاطاً وحركات سريعة .

وعندما تكاثرت نيراننا عليهم ، تقهقروا ، فانقض عليهم أربعائة من سوارينا ، وخمسمائة خيال من فرساننا العرب ، وألف وخمسمائة من العرب الراجلة ، انقضاض الشهب المحرقة وساقوهم سوق الأغنام ، ومدافعهم تضرب من كل ناحية ، وهؤلاء الأسود لا تخيفهم نيران العدو ، ولا ترهقهم كثرتهم . حتى التجأوا إلى نخيل السيوف والمنذرة . فاتبعهم فرساننا الظاهرون . وأطلقوا أعنة الخيل خلفهم ، وقد سارت العرب الراحلة تبارى جياذ الخيل عدواً وجرياً . حتى تمكنوا من الألوف المنهزمة ، وأذاقوهم المنون حرقاً بنار الرصاص . وضرباً بالسيف ، وكسراً بسنابك الخيل وكلما التجشوا إلى ربوة أو توارطوا في منخفض ، تبعوهم وشردوهم حتى وصلوا بهم محطة السيوف . ورأى العدو أنهم لا يرجعون مع استمرار المدافع من طابية

— ١٧٣ —

الرمل ، فقصودوا جهة طابيتهم ، وأسود مصر خلفهم تزار وفرسان العرب تصيح بصوت له ضجة عظيمة ، حتى منعوهم من الاتجاه إلى الطابية ، فنزلوا على جسر السكة الحديد ، قاصدين سراى الرمل فتبعهم عناديدنا ، تضرب وتذبح وحالوا بينهم وبين السراى ، وفروا جهة الاسكندرية والسيوف والرصاص يصيدهم ، حتى صاروا أمام الحدراء ، ورأى رجالنا أنهم إن تبعوهم إلى الاسكندرية أصابتهم نيران المدافع الموجودة بباب شرقى فعادوا وجثث القتلى تحت سنايك الخيل كأنهم ربوات .

ومن العجب ، أن أنمار العملية . أخذوا فؤوسهم ونبايتهم ، وهجموا على العسكر وتوغلوا فى السير معهم . وقد تجمعت خلفهم نساء العرب . تغرد وتغنى بألفاظ حماسية . وصوت رخيم وكان فى ساحة القتال سعادة البطل الغيور طلبه باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار وسعادة محمد رضا باشا وحضرة مصطفى بك عبد الرحيم حكمدار المقدمة . وحضرة أحمد بك عبد الغفار أميرالاي السوارى وحضرة عيد بك وحضرة سليمان بك سامى وحضرة أحمد بك عفت ومن البكباشية حضرة محمد افندى فوده ... الخ .

فهؤلاء الأمراء العظام أظهروا فى هذا اليوم ما أعاد لمصر مجداً يشرف به الحاضر وينمخر به الآتى من المصريين . وكنا نود لو حضر الإفرنج ورأوا عساكرنا وعرباننا وهم كالليوث خلف غزلان تستمعى الحرب من نسبهم إليها . حتى كانوا يقطعون ألسنتهم بأيديهم . جزاء لما افتروه على المصريين . وما كانوا يقولونه من خوفهم من البرانيط . التى لم تجد تحتها رؤوساً . ولكنهم وإن فاتهم النظر فلا يفوتهم الخبر .

* * *

وهذه الطريقة السالفة كتب التديم وهو فى الميدان مقالات جريدة الطائف . ومنها مقالة أخرى باسم :

المجموعة الثالثة

وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها

دقاتلوههم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم
مؤمنين، ذلكم العادون المفترون . بغاث الإنجليز الذين استنسروا في
الوجود بأوهام وخيالات — واستضعفونا لجهلاء بالخيال والرجل . وقد
زلزلت أرضهم . فأخرجت أثقالها . وثبتت بأقدامنا أرضنا فكنا أوتادها —
غرثهم مرا كبهم الحربية . فتخيّلوا أنهم يسيرون في البر . وما دروا أن
الأسماك تقتلها التربة وتلتها الشمس . وهم هي إذ لا تقرب الشاطئ خوفاً
من الصياد . وبين أسود تتبع فريستها إن سارت — يعلم ذلك من شاهد
واقعة يوم الأحد ٥ شوال سنة ١٣٩٩ هـ . فقد أخذ العدو يهيء عساكره .
من الساعة السادسة نهراً ، وفي الساعة التاسعة ظهر بقوة المركبة من ستة
قولات قادمة من جهة الرمل . شرق المحمودية وقولين من جهة حجر النواتية
غربي المحمودية وقطرين من طريق القبارى وكان سعادة طلبه باشا
قومندان فرقة كفر الدوار قد رتب مقدمتنا من أربع أرباع شرق
المحمودية . . . الخ .

وعندما صار العدو تحت نيران مدافعنا . اشتغلت الطوبجية من الطريقة
واشتغلت نيران المدافع . وعلت القنابل في الجو تعارض الصواعق في
انقضاضها . وتضارع الشهب في إحراقها . وقد أبدى حضرة محمد أفندى
حشمت البكباشى وأحمد أفندى فضلى اليوزباشى وبقية ضباط وعساكر
الطوبجية . تحت حكمة راية الهمام حضرة بدوى بك من المهارة ودقة الضرب
ما غطى وجه أرض الميدان بحشمت القتلى من العدو .

وقد شاهدنا عدة قنابل فرقت في وسط قولات العدو . فتركت ماث

من رجاله صرعى لا روح فيهم . ثم وجهت مدافعنا إلى القولات الشرقية . فأعدمت وأحرقت وشقتت وبددت . ووجه بعض المدافع إلى قطورات السكة الحديد فكسرت وقتلت . واستمر الضرب بالمدافع ساعتين ونصفاً . وعساكرنا الليادة والسوارى والعربان تتقدم تحت حماية نيراننا . حتى صارت على قرب ستمائة متر من العدو وأطلقت عليه نوبة (بلوك آتش) وأتبعها بنوبة (آتش) فتقهقر العدو . منهزماً وكان يود أن يجعل قهقرته بانتظام . ولكن هجمت عليه سوارينا وفرسان العربان فشردته من النخيل وتبعته تضرب بالنار . وتذبح بالسيف إلى منتصف الساعة الأولى من الليل . ومن عهد انتشار الحرب لم يخرج العدو بقوة كذه فإنها كانت مكونة من ١٢ ألفاً . بما فيهم من آلاى الحرس الملكى . وكان الدوق (دو كينوت) رابع أنحال الملكة مع توفيق باشا جهة الرمل . ينظرون بالنظارات فلما رأوا عساكرهم تقهقرت وتلفت عادوا إلى الاسكندرية بالخفية والندامة .

وفى هذا اليوم حضر أحد عساكر موسيقى وابور المحروسة وأخبرنا أن قتلى العدو يوم السبت ألف ومائتان . وأما قتلى يوم الأحد فإنها مضاعفة وستأتينا أعدادها فنكتب إليكم بها لحق للمصريين أن يفتخروا بإخوانهم المجاهدين . والذين أسسوا لهم دعائم مجدينى عليها تاريخ العز والشرف نصرهم الله .

(كتب فى ميدان القتال بالملاحه)

وهكذا وجدنا النديم يعنى فى تلك المقالات العاجلة بوصف المعمعة مستعملاً ألفاظاً نفمة طنانة . مستعيناً بالاقتباسات القرآنية . وخاصة

في مطالع هذه المقالات والاصطلاحات الحربية الفنية بالألفاظ التزيكية ، مستخدماً أسلوباً قوى الواقع ، مثيراً للنفس ، جميل الأثر ، في تقوية الروح المعنوية في الجمهور والدعاية للجيش المصرى .

وقد أورد عدة استعارات منها تشبيهه مراكب الإنجليز بالسماك ، يحيا في البحر ويموت في البر ، ثم يذكر كبار ضباط الجيش وصغارهم على السواء - ولا ريب أن هذه الطريقة ناجحة ، لأنها مشجعة .

مقالات النديم في الطائف

عن الخديو إسماعيل

إذا كان مفخرة لصحفى مصرى أن واجه يوماً حكام بيت محمد على بنقد صريح فإن عبد الله النديم ليطول عليهم نفاراً ويذهم جميعاً في جراته وشجاعته .

لقد كتب سطوراً نارية في صحيفة الطائف ، ملتهبة بحرارة الوطنية متوجهة بنور المضاء والعزة مسجلاً فيها مظالم إسماعيل ومآسى جنائته على أبناء الشعب ويعد إسماعيل بحق أعظم حاكم ظالم في تاريخ مصر الحديث .

كان لإسماعيل إصلاحات كثيرة بالبلاد شملت كل نواحي العمران فيها فكان أول مامر بخاطره أن تضارع عاصمته عاصمة نابليون الثالث ، وأن تكون القاهرة باريس الشرق ولم تك إلا سنوات حتى قامت القصور شاهقة على شواطئ النيل بين الجزيرة والروضة ثم فتحت المدارس ومدت السكك الحديدية وعم النشاط المعمر أنحاء الدولة جميعاً ثم فتحت القناة بين البحرين الأبيض والأحمر في مشهد في تاريخ العالم كله شهده ملوك أوروبا ، وفتحت أعينهم إلى مصر الناشئة في منهج التقدم والحضارة ثم ظهر إسماعيل في أبهة

من السلطان تذوى أمامها أهبة أصحاب العروش في الدول الأوروبية كلها -
كل ذلك عظيم وكل ذلك جميل .

ولكن الوطنى المخلص ينظر إلى جوهر الأشياء لا إلى مظاهرها ،
ينظر إلى المستقبل لا إلى الحاضر . هل كان إسماعيل وطنيا حقا يجب بلاده
ويجب رفعها ويجب لها المجد والسودد في مستقبل أيامها ؟

هذه الديون الباهظة التى قيد بها البلاد وعطل نموها الاقتصادى والتى
بلغت أكثر من تسعين مليون - من الذى استدانها والمصلحة من
أنفق معظمها ؟

كتبت لمدام^(١) (المب أداور) فى كتابها عن مصر تقول عن الخديو
إسماعيل (أنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين وكان يقتنى الأطنان فى كل
ناحية بقدر المستطاع ويلجأ إلى السخرة لزراعتها واستصلاحها ويعقد القرص
لأجل طويلة تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصد أن يعقد
الحكم لمن يأتى بعده) .

ويقول مؤلف كتاب تاريخ مصر المالى^(٢) - أن المعروف عن اسماعيل
أنه كان بطبيعته ميالا إلى الاستكثار من المال والعقار وظهرت هذه الميول
منذ ولايته للحكم ، فقد كان نظار أملاكه ومفتشوها يفتنون فى حمل
الزلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو حتى صار مالكا لخمس
أطيان القطر المصرى على وجه التقريب .

لا عبرة بما فعل اسماعيل من إصلاحات كان الغرض منها إظهاره بمظهر
الآبهة والمجد وتجميل عاصمة ملكه بمظاهر الحضارة والثراء بينما يعيش غالبية

(١) كتاب كشف الستار عن أحوال مصر لمدام أولت أدوار ص ٩٤

(٢) تاريخ مصر المالى ص ١٨ ١٩٤

الشعب في جوع ومشقة وبؤس ، ويكاد يموت الفلاحون جوعاً ، يتعبون ويكدون في زرعهم وحصادهم ويجمع غيرهم ثمرة تعبهم .

عاصر النديم مظالم اسماعيل وكتب عنها كتابة شاهد العيان ورأى المظالم الفادحة التي جناها وأذنا به ، من موظقي دوائره ، على الفلاحين التمساء - رأى الفلاحين كيف يساقون كما تساق السوائم ثم يسخرون للعمل في أراضيهم بدون أجر - رأى الأطفال الذين لم يحنوا ذنباً ولا اقترفوا أثماً وهم في سن البراءة والطهر ، يساقون مع ذويهم كأنهم العجائز التي لا تنى ، ثم يذهبون إلى الأراضي يخوضون في أوحالها ، ويعملون طيلة النهار تحت سفع الشمس صيفاً ، ووابل المطر شتاء وفي نهاية النهار يجمعون إلى مخازن واسعة ليناموا فيها مكدسين متراصين دون عناية أو رعاية في أماكن قد حرمت جميع الوسائل الصحية الضرورية .

كانوا يبقون وقوفاً أثناء عملهم ولا ينعمون بفرة بسيطة لتناول طعامهم بل يتناولوه أثناء عملهم .

كتب النديم فصوله عن مظالم اسماعيل دون خوف ولا تردد لمصر وأجياها المقبلة في وقت كافٍ اسماعيل يسعى للعودة إلى مصر بماله من أنصار ورجال ، ولكم زيف التاريخ ودست فيه الأكاذيب والترهات الباطلة عن مجد اسماعيل وعظمة أياديه البيضاء على البلاد وكان الكتاب والمؤرخون يتبارون في عهد الملك فؤاد في الكتابة مدحا وتقريظا فيه لقاء عطائه وهداياه - أما ذلك الرجل الفقير ابن الحياض فقد ضرب المثل لكل المصريين جميعاً في شجاعته - فكتب عن أكبر حاكين غائبين وهما اسماعيل وتوفيق بكل صراحة وشجاعة في الطائف ، ولكم شنع به الكتاب من سابق ومعاصر ووصفوا مقالاته عن اسماعيل بأنها سفه وحقد ومبالغة دون حق . ولكن الحقائق الدامغة التي حفل بها عهد اسماعيل لا تدع مجالاً في الشك في أقوال

النديم بل هي أصدق أقوال قيلت حتى الآن - وقد تحدى الحكومة وتحدى المسئولين في أن ينقضوا ماذكره عن جنائيات اسماعيل بالبرهان فسكتوا جميعا واكتفوا بأن عطلوه عن الكتابة .

رأى النديم وهاله مارأى - الفلاحين يقومون صرعى المرضى ثم يدهسهم الموت دون رحمة ولا إشفاق، والطاغية لاه في غيه . ساهر في ملاذهم ومواخيرهم والدولة بأسرها تغوله صاغره خاضعة ، وليس من الحكام من يعارضه أو يحاسبه عن تلك الجرائم التي ارتكبها عماله وموظفوه .

كم من طفل برىء ورجل قد فاءت به السنون وفتاة عذراء لقت حتفها على أثر العذاب الذي لا قتته في معسكرات التسخير - ولم يجد الوطن من يدافع عن هذه الضحايا البريئة

رأى النديم هذا وانطبعت على صفحة قلبه صور التعذيب الذي جرح به الوطن في صميم أبنائه فأبى أن يحس بغير هذه الصورة عن عهد اسماعيل . ما جدوى الاوبرا التي بناها وطريق الطرم الذي أمر برصفه في بضعة شهور . ابتغاء شهرة كاذبه . ومجد مزيف وسمعة أساسها الفجور والشهوات والأرجاس .

أما هذه المأساة الشنيعة التي ارتكبها في حق الوطن بل في حق الإنسانية جمعاء لأن ما يرتكب ضد كائن بشري مهما كان ، هو ضد الجنس البشري بأسره . وستبقى ذكراه وصمة في جبينه ومن ولاء من كتاب وصحفيين .

على مرجل غضبه واحتدم ثورة وغيطاً ضد هذا الماخن العظيم . والحاكم الذي بلا قلب ولا عقل وكتب هذه الصفحات التي يتحدث فيها بصراحة عن ظلم اسماعيل وأثناء كتابته لها في صحيفة الطائف ومرض وكاد أن يمتنع عن الذهاب لدار الجريدة ولكنه لم يمتنع عن موالاته الكتابة عن ظلم اسماعيل وقال « إن فيها شفاء له » .

وأن هذا التعبير مهما بلغ من العنف ، وقد أثار كثيراً من الكتاب عليه إنما هي ثورة مكظوم وأنه حاده من نفس حساسه شهدت ورأت ظلم الظالمين ولم تجد من يقف لدرء هذا الظلم ولم تسمع رجلاً شجاعاً يقول بملء فيه ويمجروا لواجهة الظالم ويقول له . . (قف عند حدك لقد ظلمت الناس) .

وقد نشر عبد الله النديم في مجلة الطائف الصادرة في ٦ / ٥ / ٨٨٢ مقالا عنوانه (الفصل الثالث في سلب الأملاك) جاء فيه : كان يتلذذ بأعين المظلومين وحينئذ وتضرعهم وتأوهم ، وتضجرهم ويبتهج بتمثيل ذلك وتصور وقوعه في المستقبل ،

فبث أعوانه أهل السوء في الجهات يتخبرون له الأراضي الجيدة التربة الخصبة الطيبة ، القريبة من المياه الوفرة المحاصيل ، فانتشروا في الأنحاء تحت اسم العمال المأمورين وهم اللصوص السارقون من كل صخرى الفؤاد ، ردى المنبت فانتقوا له خير البقاع في أفضل المواقع ، وكلما أنبأه أحدهم بشيء من ذلك طلب إليه أهل البلد التابعة له الأرض ، وألزمهم بالبيع له قهراً ، على شرط أن يقولوا طوعاً فإن لم يفوهوا بها اختياراً ، اكرهوا عليها ثم يجيء بالمشايخ أهل البلد وجيرته ، ويحضروا لدى القاضى لأداء الشهادة بالمبايعة وإسقاط المنفعة ، على مبلغ معلوم من النقود لا يساوى معشار القيمة الحقيقية ويسجل ذلك في المحكمة الشرعية على أنهم قبضوا الثمن — فكان الفدان الذى يساوى سبعين جنيهاً أو ثمانين يأخذه من أربابه بعشرة أو ثمانية جنيهاً بالرغم عنهم ثم لا يسلم لإليهم النقود بل ينظر في شأنهم فإن كان عليهم متأخرات من الأموال والمقابلة ، أو أى نوع من أنواع الضرائب أقيم ما لهم من الثمن فيما عليهم من المتأخر وذهبت الأراضي من أيديهم بدون عوض فإن لم يكونوا كذلك أعطيت لهم الأراضي (أى التى أخذت منهم) بالإيجار في السنة التى انتقل فيها الملك فانه كان يجرى المبايعة بعد أن يخدم

الأرض وتزرع ويتزعرع فيها النبات ويقرب من يده الصلاح ، والناس في حاجة إلى مازرعوه ، لتحصيل قوتهم منه فيمنحهم أخذ مزروعاتهم التي زرعوها في ملكهم على أن يؤدوا له الإيجار في تلك السنة بحيث يساوى قيمة الإجارة مبلغ الثمن فيقام له الإيجار في الثن ويخرجون من ملكهم كأن لم يكونوا مالكيه !!

هكذا كان يفعل في جميع الجهات التي حدد فيها ملكا في الأراضي الزراعية . لآل بيته ، ولقد فعل في أرض الشباسات ، وقوته والبكدوش وسنخا وقلين ، وما والاها من البلاد فعلا وحشيا ، وهو أنه بعد ما نهبا من أصحابها قلب من أراضى القمح وهو متهى لإخراج السنابل ما أراد أن يزرعه قطعاً وأجر الباقي لأربابه كل فدان ٦ جنيه وخصم بقية الثمن فيما كان عليهم من أموال تلك السنة ، وقس على ذلك أراضى الساقية وكفر البطيخ وكفر الحمام وهيا وأبن كبير والقرشية وتل فدمين ومشتهر وبردين وغيرها من الأراضي كأراضى الوجه القبلى التي اغتصبها من ملاكها ثم أعدمهم في زراعتها بلا أجرة

ومثل ذلك كان يعمل اسماعيل فى العقارات التي يريد أن يملكها لينشئ فيها غمارات وسرايات كما فعل فى جزيرة العبيد المجاورة لقصر النيل (الجزيرة) وغيرها من الأماكن حتى صار له بطريق الملك فى الديار المصرية ما لم يكن لسلطان قبله فضلا عن أمير كما يعلم من الاطلاع على سجلات الأملاك التي امتلكها ، وآل إليه مليون فدان وكسور من أجود الأراضي وأخصبها .

ثم ذكر النديم طريقة جهنمية أخرى من الطرق التي كان يستعملها موظفو اسماعيل فى نهب الأملاك وسلبها : —

وكان معه قوم من اللاتنيين المزينيين له سوء عمله ، المقربون من ساحته وهم كثير من سفلة الاغراب وقليل من أدنياء المواطنين .

فلو وقفوه عند حده ما تعدى ولكنهم مالوا لما مال إليه ، من النهب والسلب فكانوا يتصرفون في الامة ، مثل تصرفه ، فن صار منهم مديرا أو مأموراً أو مفتشاً أو كاتباً أو حاسباً أو موظفاً بأى وظيفة ، وجه نظره إلى ما بأيدي الناس ، وأعمل الفكرة في الاحتيال لسلب ما في ملكهم الشرعى وأقرب الطرق القويمة الموصلة وضع سيف القهر في الاهالى ، إما بتكليفهم بأداء ما لم يكن عليهم من الضرائب والرسوم في غير وقتها ، أو باختراع أعمال تضطرم على القيام بها لتكون وسيلة لاستعمال وسائل الاذلال والتضييق ، حتى يحتاج الاهالى إلى مفارقة أوطانهم والتخلي عن أملاكهم ، وتقديمها إلى حضرته بزهيد الثمن وذئب القيمة .

ولقد كنت ترى الرجل منهم يتولى الوظيفة وهو فقير مسترق الضر ، وحقير لا يأتى تحت شعاع النظر ، ثم لا يلبث أشهراً إلا وقد صار ثريا غنيا ، يسرف في النفقات يمينا وشمالا ، ويتوسع في الاملاك ولا تمر عليه سنة ، إلا وقد تجاوزت أطياته عقد الالوف . وهكذا أصبح السفلة من حواشى اسماعيل الذين استعملهم في أغراضه السيئة ، مستولين على غالب أراضى القطر بلا حق شرعى ، ولا قانون مرعى ، وباتوا سادة بعد أن كانوا عبيداً وانعكس الامر على الاهالى فأمسى الغنى فقيرا والعزير ذليلا والرفيع وضيعا .

ولا تنسى ما أصيب به كثير من الملاك في أطراف القاهرة ، عند انتزاع أملاكهم إذ خرجوا من أملاكهم مكرهين . قبل أن يجدوا لهم مسكنا يأوون إليه . فأقاموا أياما بل أسابيع في جوانب الطرق والجسور مع نساءهم وأبنائهم . وأثاث بيوتهم على حال ينفطر لها الجماد ١١

الفصل الرابع

في سلب الأملاك من الملاك

في السخرة واستخدام الأبدان بلا شكر ولا أجره

قدمنا أن ما سلبه إسماعيل من الأراضي الزراعية يزيد على مليون فدان - وما استولى عليه أعوانه وحاشيته لا ينقص عن ٢٠ مليون فدان . فهذا عبارة ربع زمام القطر المصري بل أزيد وهو يحتاج إلى أعمال زراعية من حرث وسقي وزرع وتنقيه وحصد وجنى وحمل ونقل وحفر ترع وغير ذلك من الأعمال .

والمالكون لهذا المقدار العظيم المحتاج إلى هاته الأعمال الكثيرة هم الأمراء والوزراء ومن لهم نسبة إلى رئيس الحكومة ،

وهؤلاء عادة مترفعون عن مباشرة هذه الأعمال بأنفسهم ، غير قادرين على القيام بها ولو كانوا من الفلاحين ، فإن عددهم قليل جدا - فلا بد من استعمال الأهالي في خدمة هذه المزارع للشاسعة ، والمهارات الهائلة التي كانوا يريدون إنشاءها ، بعد أن تؤخذ مصاريها من ثمرات كد الأهالي ، وتستحضر لوازمها ، من نتائج كسبهم وتمزج موادها بمواد قلوبهم .

وأن إسماعيل باشا (العادل الرحيم على زعم أجبائه ، الذين يصعدون الأنفاس حسرة على دوام السلب والنهب) سخر الفلاحين في مزارعه على وجه فظيع تقشعر الأبدان من سماعه ، فضلا عن مشاهدته .

إذ كان عماله يسوقون الولد والوالد ، لا يفرقون بين الآثى والذكر ، إلى الأعمال يحفرون الترع ويطهرون المساق ، ويردمون الجسور الخاصة ، بزراعتهم في جدة القبط في زمن الصيف وشدة البرد في فصل الشتاء ، من غير

مراعاة ما يلزم لوقايتهم من حر الشمس وحفظ أبدانهم من قارس البرد ،
 فيصلون الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، لا يفترون عن العمل والقائمون عليهم
 لا يكتفون بتشغيلهم ، ولا يرون لهم أن يتركوهم للتعب والنصب يفعلان
 بأبدانهم ما شاء ، يسومونهم سوم العذاب بالضرب والجلد والشتم والسب ،
 حتى يضطر الفلاح المسكين بتخليص نفسه ، أو ولده أو بنته من غوائلهم
 بدفع مبلغ من النقود ، ليكفوا عن الضرب ويكتفوا بالعمل .

ثم أن لوازم العمل من القؤوس والمقاطف والمساحي ونحو ذلك كله ،
 على حساب الفلاح وكذلك زادهم وراحلتهم وجميع ما يلزمهم من ما كل
 هو من مال الشغال ، ينفقه على نفسه ليشتغل في زراعة إسماعيل باشا وأعوانه .
 ولا تدرى أى شريعة توجب هذه الإهانات !!

فإذا جاء لبان جنى القطن أو تنقية الأرز وحصاده ، أشعلت النيران
 في القرى واشتغلت الكرابيع ، لجمع الأطفال والفتيان والبنات لهذا العمل
 بلا عدد مقدر ، مع تكليفهم بحمل أزوادهم من بيوتهم وكان الطفل أو الرجل
 إذا ذهب إلى محل العمل يحرس على استصحاب مبلغ من النقود لا لينفقه
 في منفعة نفسه بل ليدفعه إلى الخولى أو الناظر ليرفع عنه صوت العذاب ،
 أو ليأمر السائق بالرفق في سوقه ؛ فإن كان الزمان شتاء ولا بد من المبيت
 فلم يكن لهم أما كن يأوون إليها بل كانوا ينامون تحت السماء ليس بينهم وبينها
 حجاب ، وسيول الأمطار تصب على رؤوسهم والبرد والجليد ؛ يعملان في
 في أبدانهم ما عمله الشياطين ؛ ولا يستطيعون الهرب فإن الحرس لا تغفل
 عنهم ولو هربوا لتسبقتهم الأوامر إلى بلادهم ، فخلبوا ثانية . ثم عوقبوا على
 على الهرب بما يزهق الأرواح .

(ثم يقول النديم عن حادثه شاهدا شخصيا) .

ولقد رأيت ألوفاً من الناس يشتغلون في زراعة (ديروط) في شدة

البرد ، وهم يخوضون في المياه والأوحال ، فإذا جاء وقت الغذاء ألزموا بالآكل وقوفاً ، ولم يؤذن لهم بالجلوس أو الاستراحة زمن الآكل بل يتناول أحدهم الخبز اليابس وهو حامل لحزم الأرز - فيأكل وهو آت وذاهب فإذا جن عليهم الليل ادخلوا في ساحة واسعة ، يحيط بها جدران بلا سقف وقبل طلوع الفجر ، يخرجون فزعين مرعوبين من نداء الشقي الخولى ، أو الفاجر المأمور وكذلك رأيت الوفا من المديرات في عملية رياح الخطاطبة ، أيام كان البرنس حسين باشا مفتشاً للوجه البحرى يحملون الطين على رؤوسهم ، وأجسامهم ملطخة به لا يظهر منها موضع إلا موضع كرباج المأمور ، أو شمروخ الخولى . وعندما كان يمر على العملية يخرج قواص على حصانه يعلن المديرين ، والمأمورين بأن المفتش سيمر ، فلا تسلم عن اتباع المديرين إذ يقطعون الأغصان الغليظة من الأشجار ، وينزلون بها على أجسام الفلاحين العرايا فلا تسمع إلا بكاءً ونحيباً وصراخاً ، وهو كلما مر على مدير ، ورآه الانفار تقع على الصخور وتغرق في الأوحال وتضرب على الوجوه - قال المفتش (أفرين أفرين^(١)) فيقول له (كل ده بنفسك يا سعادة المفتش) فما يمر ويرجع إلا وقد مات ثلاثون أو أربعون من الضرب والغرق في الوحول ، ورأيت طفلاً يبلغ من العمر ثمانى أو تسع سنوات وقف على الجسر في طريق الخيل يتفرج على المفتش فتناوله أحد السائق من يده ، وألقاه في التربة فمات لوقته فتبسم المفتش لذلك السائق استحساناً لفعله .

وعلى هذا المنوال كانت الأفعال في مزارع إسماعيل باشا ، واتباعه ورجال حكومته من خادم الحريم إلى وزير جنابه ، وكانت البلاد مقسمة بين أولئك الذوات والأغوات والحريم فكل بلد من بلاد زراعاتهم المعروفة

(١) اصطلاح تركى معناه جبن .

(بجفالكمهم) تخصص لها بلداً أو بلدين أو ثلاثة على حسب اللزوم من البلاد الأخرى؛ فإذا جاء وقت الاعمال (وكانت لا تنقطع) ينزل النظار والمأمورون على تلك البلاد، فيطلبون منها ما يخطر ببالهم من العدد؛ فإذا نطق أحدهم بأى عدد كان نطقه كأمر سماوى لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً، سواء كان من قبيل الممكن أو المحال اللهم إلا إذا بذل لهم المشايخ والفلاحون مبلغاً من النقود فإنه يقوم حينئذ مقام عدد الانفار المطلوبة.

وبما شاهدته (النديم عن نفسه) أن أحد عمد البلاد طلب منه ثلاثون نفراً وهم فوق طاقته فبعد التهديد والضرب لم يمكنهم أن يزيدوا على العشرين فلم يقبل منهم عذر حتى دفع المشايخ عشرة جنيهات للأمر الذى كان يطلبهم ورأيت مثل ذلك فى جهات شتى من مديرية الغربية والبحيرة والمنوفية فى أراضى إسماعيل باشا وأمرائه وحاشيته.

فهذه الاعمال على ما فيها من المشاق التى تنال الاهالى فى أبدانهم والنفقات التى تلم بأموالهم كانت موجبة لتعطيل جميع أشغالهم التى يحتاجون إليها فى خدمة أراضهم حتى يتحصل منها ما يسددون به رفقهم ويؤدون ما عليهم من الضرائب الخارجة عن سد الطاقة إذ كان يساق الرجل مع ولده إلى السخرة ويترك زراعته محتاجة للسقى أو الحرث أو الحصد فيفوت عليه وقت الزراعة ويحدث ضرر كلى إذ لا يتحصل مما يزرع متأخراً عن وقته ما يكفى لحاجته وربما تلف المزروع إذا تأخر حصاده فيذهب تعب هباء منثوراً. وهذه الملايين من النفوس التى كانت تشتغل فى تلك المزارع كانت محرومة من أجره العمل كما كانت معطلة عن اكتساب ما يقوم بها من طرق أخرى فكانوا كلا على أعناق الباقين من إخوانهم وثمرات اكتسابهم بأسرها عائدة إلى إسماعيل وأمرائه وحواشيه.

وكما نشأ عنها حرمانهم من ملاحظة أشغالهم الخاصة، نشأ عنها أيضاً

عدم كفايتهم لوفاء الأعمال العمومية ، لحفر أمهات الترع وتطهيرها وأحكام
الجسور وإبقاء لوازمها وما شابه ذلك ، فكانت المصالح العمومية عاطلة كما
كانت الخصوصية باطلة ، إلا بالنسبة لإسماعيل باشا وأشياعه - فعم الاضمحلال
والتلف جميع الجهات وكثر وقوع الفرق والشرق ، وأورث تراكم الأعمال
من سنة إلى سنة عجز الأهالي عن القيام بها .

ومن توابع التسخير ، ما كان يكلف به الأهالي من الجمل والخير وغيرها
في كل فصل من فصول السنة ، وغالبا ما كانت هذه الدواب تنفق من سوء
معاملتها وتحميلها في العمل فوق طاقتها مع عدم إطعامهم الطعام الكافي .

ولنكتفي بهذا القدر المجل في شأن التسخير ونقول إن حكومة إسماعيل
على سعتها وتباعد أطرافها ، كانت كليمان أعد للذين ومحبس جزاء هي .
لأرباب الجرائم والخطئين ، ولو أن سائحا جويأ صعد في درجات الهواء
إلى حد يرى ويسمع من تحته أهالي البلاد ، لرأى أمة تتقلب على جمر العذاب ،
على غاية من الاختلاط والاختباط ولسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة ،
تزعج السامع ، وتستفز الحاجع . وتفتت قلب من أودع ذرة من الإحساس
الإنساني وما هي إلا مزيج نفثات تفذف بها الصدور الموقرة ، والقلوب
المكتنبة فتصعد بها الأنفاس المحترقة .

(وفي هذه الفقرات يتنبأ النديم عن اختراع الطيران ويتخيل ما يراه
المشاهد في أثناء تخليقه بطائرته في الجو) .

الطائف في ٢٩/٤/١٨٨٢

الضرب وطرق تحصيلها

كانت طرق تحصيل الضرائب وحشية بربرية تقشعر منها الأبدان ،
وتذوب من هولها الأعباد . ألا وهي طريقة الضرب والإذلال والإهانة

والإيلام ، فكسنت ترى المدير أو الوكيل إذا نزل ببلدة لتحصيل ما عليها ، طلب أهلها واحداً بعد واحد ، فن دفع ماعليه لجانب الحكومة منضماً إلى ماعليه لشخص الحاكم نجما من أليم العذاب ، وإنما يشتم أويهان أمام أهل البلدة قياماً بحق الأمانة وإظهاراً لسطوة الحاكم . ومن قصرت يده عن واحد منهما ألقاه الأعوان على الأرض ، وقطعوا أهابه بالسياط والكراييج ، فتارة يفضى عليه (يموت) حالة الضرب أو بعده بقليل فيستريح من الحياة ، وتارة يبقى حياً فيودع في ظلمات السجون بعد الهجوم على منزله وتفتيشه ، وأخذ ما فيه من ثمرات الزراعة وغذاء أبنائه .

ولقد رأيت امرأة فر زوجها من الحبس ببلدة (نجير) من مديرية الدقهلية فطلبت أمام وكيل المديرية هناك وضربت على كفها ، ثمانين كراباج ثم ألقيت على الأرض وضربت على صدرها ثلاثين كراباجاً ، ثم سئلت عن زوجها فقالت لا علم لي به ، فأمر الحاكم بضربها على وبعد قليل من الزمان ماتت في السجن . فسألت الصراف عن المطلوب من زوجها ، فقال هـ قرشاً - ورأيت رجلاً من القباب من أهل البحر الصغير ، حلق رأسه وضرب عليه عشرين كراباجاً على ٢٠ قرشاً - ورأيت امرأة من الويلي من القليوبية غرس فيها السل بين الظفر واللحم ، لتخبر عن زوجها ، وكم وكم من الأعمال القبيحة

وقد كان الحاكم يتحد مع شيخ البلد أحياناً ، على أن أحد التجار يدفع ما على البلد في وقت واحد ، ويحصله أبان الحصاد وجنى القطن ، ليستولى على جميع ما ينتج من زراعة الفلاح المسكين ، ويقدر ثمن القطن من القطن بمبلغ دنى على أن يكون للشيخ حصة وللأموير حصة من ربح التاجر ، وحيث صار شيخ البلد شريكاً للتاجر والحاكم ، فإنه يقبض عند الميزان أو المكيال ويرمز إلى الوزن والمكيال ، فينقص من المقادير ليكون الزائد ربحاً له ،

وعند جمع القطن أو درس الحصيد ، يقيم الشيخ رقباء فلا يستطيع الفلاح بيع شيء منه مع احتياجه إليه حتى يوفى المطلوب .
وكانت هذه المظالم على جميع الأهليين ، إلا من كان له انتماء إلى إسماعيل باشا من الأغنياء والذوات والأمراء .

وقد قدم السيد حسن موسى العقاذ عريضة بخصوص ضريبة المقابلة عندما أباحت الوزارة المختلطة الكلام للأهالي ، فإنه قبل عليها بالنفي إلى سنار بلاذنب ولاجنياه (وكل ما أقوله لأخشى فيه تكبراً ، فأصغر رجل في الأمة يمكنه أن يقيم عليه البراهين من نفسه وجاره ووطنه ، وأنى لم استقصى الشنائع التي رآها الناس في زمن التحصيل ، وإنما أثبت النذر اليسير ليدل على ما بعده ، فقد كانت أيام إسماعيل أشنى من أيام المماليك . وأحكامه أقبح من أحكام فرعون مع بني إسرائيل ، وأي عضو من أعضاء المصريين لا يحس بهذه الآلام ؟ وقد كانوا بالأمس يقولون - ربنا اصرف عنا العذاب أنا مؤمنون .

فاضحل بالطرق السالفة من طرق الإرهاق والظلم ، حال كثير من أهل الغربية والمنوفية والدقهلية ، واستولى تجار الأفرنج على أراضيهم لتراكم الديون والفدائد الفاحشة .

ولهذا تحولت أثقال ضرائب الأوروبيين والذوات إلى ضرائب يؤدونها الفلاحون عنهم .

ولسبب اختلال رابطة المالية بالنسبة إلى المديریات والصيارفة ، وعدم معرفة الفلاح ماهو مطلوب منه ، وإطلاق الحرية للمأمورين والمديرين .
فشأ الظلم وامتدت أيدي الطامعين إلى أموال الناس ، فكثرت النهب والسلب وعمت الرشوة ؛ وصار داؤها مرضاً وبائياً - قلما يخلوا منه مستخدم ، وتفتحت طرق الاختلاس للصيارفه الذين بيدهم دفاتر التحصيل . . .

وهكذا كتب النديم هذه النصول المسهبة عن ظلم اسماعيل ، والتي يمكن أن تعد أعظم سبق لصحفي مصرى ، فى نقده عائلة محمد على ، وعرض مظالمها بما كان له أثره فى أخلاق الشعب وتفكيره . وليس هناك مجال لشرح جنائية اسماعيل البلاد ، وعلى مستقبل الأجيال التى جاءت بعد ذلك ، بعد هذه البيانات المتقدمة التى كتبها النديم منذ قرن من الزمان . واهمه من جاء بعده من الكتاب أنه جرح شخصيات البلاد الكبيرة . وشوه كتابته بذهمها وسبها . ولعل جيلنا ينصف ذلك الكاتب المجيد . على أمانته الصحفية وشجاعته فى النقد . والتصريح بالحقائق المؤيدة بالأدلة الدامغة والبراهين الثابتة .

منتخبات من بعض المقالات التي جاءت بالأستاذ

(حرب الأقاليم بجيوش الأوهام ^(١))

فلو ترك الشرقيون والأوربيون ، لتمتع الفريقان بثمرة المخالطة ، وتمكنت منهما دواعي المحبة ، وتأكدت روابط الألفة بالإشتراك في المعاملة والمساكنة ، وما أوجر الصدور وأفسد النيات إلا هؤلاء الكتاب الذين قبحوا الشرق للغربي وافتروا عليه بالأكاذيب وملؤا بها جرائدهم وكتبهم ونشروها بين العالمين الشرق والغربي ، فظن الغربي أن الشرق بهم لا يصلح للملك ، ولا يليق إلا للاستعباد والقهر وظن الشرق أن الغربي عدوه الألد الساعى في سلب سلطته ، ونهب ثروته وإعدام دينه ، واستعباد إخوانه فوقعت النفرة بهذه المفتريات .

وختم المقال بقوله :

فنحذر إخواننا الشرقيين ، من مقارنة المضلين ومخالطتهم ، ونطلب منهم أن يقرأوا عواقب ما هم فيه من الشدة ، وينظروا إلى المستقبل بعين البصراء ، الذين لا تزعزعهم العواصف ولا تستميلهم الأباطيل ، وأن يجعلوا معاملة الأجنبى بالمعروف ومخالطته بالمثل ، نصب أعينهم ، مع التزام الهدوء والسكون وعدم الميل إلى الأوهام وما ينصبه الأعداء من إشراك الهيجان والاضطراب فإنهم أن لم يروا هذه الحالة ، قاوموا كل تهديد ووعد وأظهروا لأوربا أنهم بقصدهم وحسن تصرفهم في الأمور . قد قاوموا بقوة مدنيته (حرب الأقاليم بجيوش الأوهام) .

في هذا المقال يدافع عن الشرق ضد الأوهام - أوهام الغرب - واستنهاض الشرق نفسه ليستيقظ من نومه . ويلحق بالغرب الذى سبقه أشواطاً بعيدة في الحضارة والتقدم . ثم يحنج إلى السلم ويدعو إلى المحبة والوئام .

لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا :

افتتح هذه المقالة بقوله — هي كلمة أوربا التي ترددها على أسماع الشرقيين كلما فعلت فعلا ، يحملها عليه الاستعمار الملكي ، أو الانتشار الديني ، وقد حكمت التأليف بين القوتين الدينية والملكية ، فجعلت الأولى سفير و داد والثانية فارس جلاد — وقد أضاف كل ملك أوربي إلى عنوان الملك ، حامى الدين فيقول في مخاطباته ملك أو امبراطور كذا وحامى الدين المسيحى أو بعجالة أشد وقعا في النفوس من هذه ، ليعلم الأمم أنه القابض على زمام السياسة والدين ، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يروونه من لوازم تأييد الملك وأتباعه ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه ، فترى رجال القوتين ماشين على نسق واحد كل فيما فوض إليه ، لا تفتر لهم همة ، ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التي فيها حياة الدين والملك . وزيادة شرف الأمم ، والأمم لكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة ، وخدمة الدين ، اندفعوا معهم اندفاع السيل في المنحدرات ، فعددوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية ، وأخذ كل فريق في إحسان ما كلف به نفسه ، وأوجبه عليه بجارة جاره في الملك ، ومباراة نظيره في العلم أو العمل ومسابقة غيره ممن قصدوا قصده ، فاشتغلوا بما اشتغل به ، وقد بلغوا القصد في بلادهم وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتى الدين والملك سائرين على نور العلم والصناعة فدخلوا الأفطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتغلبين وجرائدكم الكثيرة العدد برزت تتسابق في ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ، ومقالات مطولة ، وعبارات مرتبة ، فأصبحت ناقلة للأخبار ناشرة للآداب ، معلبة للعلوم مؤيدة للبداء حاثّة على المقاصد منشطة للهمم ، مرشدة للأمم ، منبهة على الأغاليط ، محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة ووثبة الجار أو معاكسة المتأخم ،

ناشرة للفضائل ، مؤرخة لرجال الفضل والعمل ، حافظة لسير الملوك داعية
أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأيد الدين خادعة للشرقيين لاجبة
بأفكار رجائهم ، خاتلة لعظائمهم ، مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة
واتناء وصناعة وتجارة وزراعة ، ومنادية بينهم بأن الغرب محل التشريع
ومنبع العلم ومرجع الفضائل ، ولا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ، ولا مجد
لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لا يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ،
ويتعبد بعبادته ويتقيد بعبادته .

هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التي تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان.
قالت أوروبا أنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس ،
وأنكم في حاجة إلى مصنوعاتنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية،
وبذا تمكنت من إدخال مصنوعاتنا في الشرق لتحول الثروة إليها فأمانت
ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على مالا بد منه من صناعة الشرق
الهندية وغيرها مما يصنع في الهند والصين والعجم والأناضول وغيره ، إنما
ينفق ويبيع على يد الأوربي ، كما يباع وينفق مصنوع بلاده ، فالشرقيون
أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليرجوا تجارة أوروبا ويعظمون
ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المسالية فلا حظ لهم في الوجود
ولا رغبة لهم في الملك فانهم كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم
عن مجارة أهلها ، وما زادهم بعداً عن الصناعة وثمراتها ، وجود دخلاء
أجراء يزعمون أنهم نصحاء ، يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف ويوهمونهم
بعدم صلاح بلادهم للصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات
وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التي لا آلات فيها استعانت بآلات
اشتريتها من الغير ، وأحييت صناعاتها الوطنية وحتمت على أهلها شراءها

لرواج صانعيها ، ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرق في قبضة الغربي لإحتياجاً إليه وترك الشرق ميداناً لمسابقة رجال أوربا ، فلا يجدون مصنوعاً يعطل عليهم ولا معرضاً من صناعتهم فتبور ، وضعفاء العقول يغترون بخداع هذا الدخيل ويظنون أنه من المخلصين فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم في اليأس والقنوط بالمفتريات ورجال أوربا تتعجب من تقاعدهم وتقول لو كنتم مثلنا لفعلمت فعلنا . . الخ .

وهكذا يسترسل النديم في الكتابة في هذا المقال الذي يعد من عيون مقالاته بمجلة الأستاذ حتى تزيد كلمه على ستة آلاف كلمة وفيها أقوى دعوة لاستنهاض الشرق وتفنيد مزاعم الأوربيين في تبرير الاستعمار ، ثم دافع فيها عن الدولة العثمانية بوصفها زعيمة العالم الإسلامي ، ثم حذر من حيل الأوربيين الذين يفدون إلى الشرق بحجة التعليم والإصلاح وتعليم الأهليين فن الحكم ، وهم بعد يعملون لتحقيق مآربهم الخاصة — ثم عاب النديم ثقة المصريين ومبالغتهم في تقدير الاجانب والاعتماد عليهم ، وتفضيلهم إياهم عن إخوانهم في الوطن ثم دعوة المصريين إلى الالتفاف حول عرش الخديو عباس الثاني فيقول « مضت والله أيام التقاعد والاعتزاز بالترهات وصرنا بين يدي خديو يريد أن نجاري الإنجليز في الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون ويجب أن نتقدم في التجارة والصناعة والمعارف ونحفظ عرشه المصري بالمصريين ولكننا عن نظره العالي عامون ، » .

ثم يحذر المصريين من الإنقسام ويشيد بالإنحاد الخالد بين الاقباط والمسلمين .

حقاً كانت مقالاته بالأستاذ عرشة مدوية أخرى حاول بها إيقاظ

مصر كي تنتبه لما يحق بها من أخطار كما عالج فيها موضوعات إجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال صحفي من قبل .

وكفاه نقرأ أن يكون أول وطني دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لا لتركيا ولا للإنجليز ، فكانت فكرته أعمق فكرة وطنية لا تصدر إلا عن قلب عامر بحب بلاده ولا سيما في ذلك الزمان الذي لم تفكر فيه أية دولة عربية في هذا المعنى ، وإنما كانت الفكرة الوطنية عندها عاطفة غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا .

آراؤه في السياسة الصحفية :

ولقد كتب النديم رداً على سؤال أحد القراء في صفحة ٩٠٦ من مجلة الاستاذ عن تعرض المشتركين في مجلة معينة إلى اضطهاد الحكومة ، أو غضبها ويعنى بذلك الاستاذ — جاء فيه :

(إن حرية الصحافة لا غبار عليها ، ولا ترضى الحكومة الخديوية بحال من الاحوال أن تقيد حرية الاقلام أو تضطهد إنساناً ما لانه يقرأ مجلة معينة — فحرية القراء لا قيد عليها ولا سيما وأن القارئ له مطلق الحرية في انتخاب الجريدة التي تروق له فاذا كانت تعمل لمصلحة بلاده فلا بد أن يشجعها ، وكان الحكام السابقون في عهد الظلم يلزمون الناس حتى الاميين بقراءة جرائد معينة ، يعملون على تشجيعها لمصلحة ما)

ثم تطرق الحديث بعد ذلك عن المقاييس التي تقاس بها الجرائد وأياها أجدر بالتشجيع والقراءة ، فحدد الصفات الخاصة بالصحافة الوطنية الصادقة وهي :

١ - الصحافة الرشيدة هي التي تخدم الوطن وأمير البلاد وتنتصر لزعماء الوطن وتذكر أعمالهم .

٢ - تنتقد نقداً زهياً ، وترشد إلى الإصلاح ، وتقترح الحلول الناجعة للمشاكل المختلفة .

٣ - الدعوى للإتحاد بين طوائف الوطن جميعاً وحقوق كل طائفة على حدة ومجانبة التحريض للفن والاضطرابات .

أما الصحف التي ينهى قراءه عن قراءتها فهي :

١ - التي تقلب الحقائق وتطعن في الأفراد دون حق وتهجن أعمال الوطنيين .

٢ - التي تتمدح بالاجنبي الذي يطعن البلاد ويعمل لضررها .

٣ - التي تدعو للاحتلال وتبغض الناس في أميرهم وحكامهم .

ويدعو إلى تحريم قراءتها ومساعدة أصحابها ثم يقول عن محررها (هذا الذي يعصى الله جهاراً ويرتكب الإثم نهراً ، هذا الذي جهل حقوق الوطنية وطار مع الأكاذيب والترهات من غير بحث في العواقب ، هذا الذي باع مجده وشرفه بكلمة مدح ، أو عبارة ثناء ، وأى وطنى صادق ، يساعد عدو وطنه ، الذي يعمل على إفساد الوطنيين ويحسن القبيح في أعينهم ؟)

تشجيعه الصحف وقراءتها :

ولقد شجع النديم الشعب على قراءة المجلات والجرائد المختلفة ، لأنها مورد لا ينضب للثقافة الشعبية ، وتوسيع أفقه ، وشحذ ملكاته الادبية ، وتقوية لغته ، وتوسيع مداركه ومعلوماته واعتبر النديم أن الجرائد هي مدارس الافكار وكتب عن ذلك في مقالته بالتنسكيت في ١٨٨١/٦/١٩ بعنوان (جرايد الاخبار) .

ثم كتب في عدد الاستاذ يوم ١٨٩٣/٢/٢٨ منوهاً بالمجلات الحديثة الناشئة ، مظهراً إعجاباًه بكثرة الادباء والكتاب الذين ينشئون الصحف والمجلات — ويختص بثنائه الشاب الاديب مصطفى افندي كامل ، لإنشائه مجلة المدرسة ، وهي أول مجلة مدرسية تصدر في ذلك الوقت .

الباب الرابع

النشاط السياسى والقومى

- ١ - دورة الإيجابى فى الثورة العرابية
- ٢ - الوفاء لمبادئ الثورة بعد هزيمة رجالها
- ٣ - المبادئ الأساسية التى نادى بها
- ٤ - التديم أستاذ الزعيم الشاب مصطفى كامل

دور النديم الايجابي في الثورة العراقية

ذكرنا آنفاً أن النديم من تلاميذ جمال الدين الأفغاني، الذين لازموا طيلة فترة وجوده في الديار المصرية، ومن الذين شغفوا برسائله، وأتموا بامامته، وتحمسوا لنشر مبادئه، لذلك كانت جرائده، منبرا لمبادئ الحرية والكرامة والعزة القومية، ومدرسة لرفع مستوى الشعب اجتماعياً وأخلاقياً وثقافياً. وقبل حادث ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كانت كتاباته أكثرها في عرض المشاكل والأدواء الاجتماعية التي تنتخر في بناء الوطن وتعطل مهمة نهوضه التحرري، ولما توقفت الصلة بينه وبين رجال الجيش، انضم إلى صفوفهم بكل إمكانياته واتخذ الزعيم أحمد عرابي مستشاراً مديناً يستنير برأيه في كثير من الأمور «وقويت الحركة الوطنية بانضمامه إليها»^(١)، ورأى العنباط في قلبه ولسانه وإيمانه بوطنه أكبر عصف لهم وأصبح النديم أول عضو مدني ينضم إلى التشكيل العسكري الثوري، وهو في دور التكوين وعلى أول طريق الكفاح ثم أصبح بعد ذلك خطيبها الرسمي وداعيتها الأكبر والمتحدث بلسانها (الثورة العراقية).

ولم يشأ أن يكون هو الداعية وحده إلى كسر المذلة والاستعباد، بل أراد أن يكون في كل بلد على الأقل داعية يخطب الناس كل أسبوع في الإصلاح السياسي والاجتماعي، فكتب مقالا قوياً في قيمة الخطابة وأثرها في تاريخ الإسلام، وكيف كانت تثير النفوس فتدفعها إلى الحرية، وجعل من أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه واقتصرها على خطب المساجد وهي خطب تقليدية في عبارات دينية محفوظة.

(١) تراجم أعيان القرن التاسع عشر ص ١٧

ولم يكن النديم من الغفلة بحيث يحفل سياسة رياض في عقاب من يجترىء على نقد حكمه فالنبي إلى السودان أخف أنواع عقوباته ، وكان يدرك طرق الأتراك - وهم أغلب طبقة الرأسماليين ، في تأديب من ينال منهم - وخاصة إذا كان من الفلاحين (المصريين) فالاعتقال بالخنق أو الخازوق أو الطعن بالخنجر أو الإغراق أو دس السم ، من الوسائل المعروفة عنهم في الانتقام عن عيوس قدسياتهم .

ومع ذلك فقد استمر في الهجوم عليهم جميعاً ؟ لم يبال بشيء ولعله كان قد وصل إلى مرحلة التصميم في أن يقدم نفسه قرباناً لوطنه على مذبح الجهاد في سبيله ، وهي مرحلة لا يصل إليها إلا ذوو العزم من وصلوا إلى مرتبة البطولة الوطنية .

ولما وصلت أخبار النديم إلى رياض باشا ، وعلم أنه اتصل بقيادة الثورة من العسكريين ودعواته لهم في البلاد طويلاً وعرضاً ، أصدر قراراً بنفسه من البلاد ، وكان محمود سامي البارودي وزير الحرية مندوباً سريراً للمنظمة في مجلس الوزراء ، يندبرهم بكل ما يدبر ضدهم في الخفاء فأنابهم بالامر .

ولما عرض قرار رياض على الخديو في الديوان للتصديق عليه ، تصدى له على فهمي قائد الحرس الخديوي وقال : إن نديماً منا نحن معسكر العسكريين ، وإن لم يحمل سلاح العسكرية ، ولئن أخذتموه بغتة من البلاد ، حافظنا عليه بالأرواح والأجناد ، وألغى القرار ، وأخفق رياض في خطة انتقامه من النديم .

ولما أصبح عرابي دعيم الأمة الوحيد وانضم إليه الزعماء السياسيون ، وتلاقت الأهداف ووجد أهالي البلاد كلمتهم مع كلمة الزعماء العسكريين ، وكونوا حزباً واحداً أطلق عليه الحزب الوطني ، وأحس الخديو ورياض رئيس وزرائه والنفوذ الأجنبي خطر هذا الاتفاق بدأ كل منهم يفسكر

في طريق الخلاص من عرابي ورفاقه ، ليقضى على الحركة الوطنية التي أخذت
تنتشر بين أبناء البلاد ولكن المؤامرات أخذت تكشف الواحدة تلو
الأخرى ، فكانت تزيد من غضب الشعب والجند معا .

وكان التطور الطبيعي للأمور أن تعلن المطالبة بالحياة الدستورية غير أن
عراي لم يكن ليطمئن إلى كثير من الزعماء السياسيين الذين انضموا إليه ، فقد
كان أكثرهم من الطبقة الرأسمالية الحاكمة المعارضة لحرية المصريين ، وإنما
انضموا إليه ليتخذوا منه غلب القط الذي تتحقق به أغراضهم وهي متباينة
مختلفة ، فمنهم من يسعى لاستعادة نفوذه في الريف ، ومنهم من يسعى لعودة
الحديو المنفي ، وفريق آخر كانت فكرة الدستور في نظره لا تتعدى تخليص
السلطة من الحديو ورياض ووضعها في أيديهم باعتبارهم من الفئة التركية
المغتازلة التي يجب أن تنفرد بالحكم ١١١

أشار النديم على عراي لكي يكون موقفه سليما أمام هذه التيارات ، أن
يكون مثالا للأمة بكامل هيئاتها وخاصة طبقة الفلاحين ، وأن يحصل على
توكيل من الأمة بالمطالبة بحقوقها والتحدث باسمها ، ثم طبع منشورا بهذا المعنى
وقام النديم بمهمة توزيع هذا المنشور في البلاد وجمع التوقيعات عليه من الأهالي .
وعاد النديم إلى القاهرة وهو يحمل في حقيبته العرائض موقعا عليها من
أعيان البلاد يؤيدون فيها عراي ومطالبه ، واطلق على هذه العرائض
« المحضر الوطني » واتخذ عراي دليلا على إنابة الأمة له^(١).

وأقبلت إلى القاهرة وفود الشعب من كل جهة لمبايعة هذا الزعيم الفلاح
الذي ظهر على مسرح السياسة فجأة ١١ وصدر نفسه للقيام بعمل بطولي لم
يسبق لأحد أن قام به منذ قرون . . . وكان عراي يستقبلهم في بيته ، فيقف
النديم في كل وفد يخطب الخطب المثيرة ؛ وينثر الآلاء من أشعاره الحماسية

(١) الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ص ٢٠٤ (مطبوع سنة ١٨٩٨) .

ويحضر على الوحدة والتكاتف وبند الأضاليل فأثرت مقالاته في النفوس وشربتها القلوب .

وبعد أن اطمأن عرابي إلى أن الأمة قد استيقظت مشاعرها وأتابته عنها في مطالعها ، زحف على رأس وحدات من آليات الجيش في مظاهرة عسكرية إلى ميدان عابدين في ١٨٨١/٩/٩ .

وفي ١٨٨١/١٠/٩ كتب النديم في مجلة التنكيت والتبكيث عن حركة الجيش المجيدة وذهابه لعابدين وقيامه بمظاهرة الشهيرة لتحقيق السكرامة القومية للشعب في ١٨٨١/٩/٩ في مقالة بعنوان « تاريخ مصر الفتاة أو زفاف الحرية » تكلم فيها عن ظلم أمراء عائلة محمد علي ووقوع البلاد تحت طائلة المصائب التي جناها إسماعيل عليها من ديون وتدخل أجنبي ، وتعسف في معاملة الأهالي ، ثم ظهور الجيش المصري الباسل ومطالبته بحقوق هذا الشعب المظلوم . ثم تكلم بعد ذلك عن مظاهر الاحتفاء والتكريم التي أبداهها الشعب في توديعه زعيمه أحمد عرابي بمحطة القاهرة حين سفره على رأس فرقته بالشرقية ثم ينشر خطبة عرابي لجمهور المودعين ثم خطبته التي ألقاها بعده . . .

وتعد هذه المرحلة ، بدء ظهور النديم على مسرح الجهاد الثوري مع العرايين جنباً إلى جنب فقد قام أحمد عرابي بقوة شخصيته يخاطب الشعب الذي أحبه وأخلص له لتفانيه ومطالبته بحقوق البلاد ، وقام عبد الله النديم بخطاباته النارية بتعبئة الجماهير التي كانت تحتشد في كل مكان يذهب إليه عرابي وصحبته ، وقد لازمه في رحلاته جميعاً وإلى جانب هذه البلاغة الخطابية كانت اللطائف بأسلوبها الثوري تشخذ الهمم وتؤدي واجب الصحافة الحرة في المضمار الوطني النزيه .

إن اضطلاع النديم بمهمة الكاتب والخطيب في آن واحد إبان الثورة لما يشير التساؤل والإعجاب لأن وسيلتي القلم واللسان لم تقصر واحدة منها عن الأخرى .

ولقد اتصل أحمد عرابي بالنديم في أكتوبر سنة ١٨٨١ وطلب منه - لما رآه من اتجاهه الحر ونزعته الثورية - تغيير اسم جريدة التنكيت والتبكيت إلى اسم آخر ووافق النديم بالطبع على هذه الدعوى الخالصة المخلصة من العرايين .

وكتب عرابي لإدارة المطبوعات يقول : « لدخولنا في عهد جديد وفوت زمن التنكيت والتبكيت اقتضى تعديل اسم جريدة « التنكيت والتبكيت » التهذيبية ، كما استقر عليه الرأي بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله النديم أفندى محررها ومدير إدارتها باسم « لسان الأمة » وأن يكون موضوعها سياسياً تهديباً للذب عن حقوق الأمة والمدافعة عن حقوق حكومتها التوفيقية فلذا اقتضى ترقيمه لسعادتكم الأمل اعتبارها ومعرفتها بهذا العنوان الشريف المشرف اعتباراً من عدها التاسع عشر أفندم - مير يياده ع - أحمد عرابي » .

ومنذ ذلك الحين اضطلع عبد الله النديم برسائله الخطيرة . فاشترك اشتراكاً فعلياً في الثورة العرابية بقلبه ولسانه وقد التزم ما قال . فلاقي أهوالاً جساماً واضطهد اضطهاداً شديداً من الاستعماريين وأذئابهم من حكام البلاد . وتغير الرأي من حيث اسم الجريدة فصدرت بعنوان (الطائف) لأن عرابي كان متفائلاً باسم « الطائف » .

كانت الطائف صحيفة الوقدة الثورية الملتبهة . ظهرت فيها شخصية النديم الصحفي على ما أشد ما تكون قوة ومضاءً عزيمة وبصيرة واعية لمجريات الحوادث . فقد بصر الشعب بما يقوم به الاستعمار وأذنا به من الصحفيين في الداخل والخارج من حيل وفتن ومناورات لتشيويه جلال الحركة الوطنية وعلى صفحات جريدته كشف مناوراتهم ودسائسهم بأسطر من نار .

وسطر النديم على صفحات الطائف بيان قوى أخاذ ، الأدوار التي مرت

بها الثورة العراقية إلى أن اشتعلت نيران المعركة بين مصر وإنجلترا فكانت
مفشوراً حريياً ثورياً . تطلع على الناس بحوادث الحرب وتخبرهم بأبنائها .
ومن صفحات الطائف يستطيع المؤرخ المنصف أن يكتب تاريخاً واقعياً
صحيحاً للثورة العراقية ويجد الباحث آراء حرة وصرحات مدوية تدفع إلى
الكفاح المستمر والنضال من أجل المبادئ الحرة ومن أجل الحياة الحرة
السكرية .

كتب عبد الله النديم في الطائف ليعبر عن آمال الحزب الوطني ويدافع
عن مبادئه حتى أدركه الاستعمار فتوارى عن الأنظار تسع سنوات .
وبعد الانتصار الذي أحرزته الثورة والحزب الوطني بصفة عامة ، وعاد
عراقي مع النديم من رأس الوادي ، لم ترض إنجلترا وفرنسا عن استقوار
الأحوال في مصر ولم يرق في عينيها هذا الانتصار فقد هدأت الحالة تماماً
 واجتمع مجلس النواب وشرع في وضع « اللائحة الأساسية » وقد وضعت
على أحدث المبادئ العصرية . وتضمنت القوانين أهم النظم البرلمانية وأصبح
الوزراء مسئولين أما المجلس . وانتصر الشعب الذي أصبح يقرر بواسطه
نوابه القوانين التي تصدر وتطبق عليه .

لعبت الدولتان دورين كبيرين للوقعة بين العراقيين من ناحية - وبين
شريف باشا والخديوى من ناحية أخرى ، ويتلخص الدور الأول في
المذكرة التي أرسلتها الدولتان للخديوى في ١٨/١/١٨٨٢ والتي تتضمن التأييد
للخديو وأن لها حق القوامه والرقابه على مصر ولها حق لإقرار الأمن
والنظام فيها (١) .

أما الدور الثاني فهو طلب القنصلين السير إدوارد مالت الإنجليزي

(١) الزعيم أحمد عرابي — لعبد الرحمن الرافعي .

والمسيو سنكفكس الفرنسى ، بالأ يكون لمجلس النواب حق تقرير الميزانية وقد قدمت هذه المذكرة الأخيرة أثناء انشغال اللجنة الدستورية بالنظر فى اللائحة الأساسية (الدستور) وأراد شريف إرجاء البت فى هذا الأمر بعض الوقت لتفادى هذه الازمة ، ولكن ذلك لم يكن يرضى كرامة العراقيين الذين نالوا الانتصارات الوطنية الرائعة. ولما أصبح مركزه حرجا استقال وتألقت وزارة سامى البارودى - وكان عراقى وزيراً للحرية فيها . وأقر مجلس النواب الدستور وصدر به المرسوم فى ١٨٨٢/٢/٨ .

فإذا كان موقف النديم فى الطائف إزاء هذه الدسائس ..

كتب النديم فى مقاله « كشف الخبايا » ما يأتى .

« ظننت بعض الجرائد المحلية أن حالتنا الراهنة فرصة تمكنها من إظهار مقاصدها ، فتأونت فى عباراتها تلوناً لم تهتد فيه إلى طريق الصواب فأخذت توغر الصدور مرة وتظهر اختلاف الكلمة أخرى ، وتوهم تعدد الاحزاب وتباين مقاصد الحضرة الخديوية والامة والجند وهى فى هذا كله مخطئة لجهلها بما عليه الحضرة الخديوية والامة والجند من الاتفاق فى المقصد الذى هو حفظ راحة البلاد وأمن العباد ... الخ .

وهو فى هذا المقال يكذب الجرائد التى تود أن توسع من شقة الخلاف بين الخديو والشعب .

وفد أخذ النديم فى مقالاته تغذية الشعور الوطنى وتعبئته بما كان ينشره من ألوان كفاح الامم التى قاست من أجل النضال فى سبيل الحرية كفرنسا وسويسرة وأمريكا وغيرها . وقد ذكر وصفاً للوطنية وأعمال الوطنيين فى إحدى مقالاته الوطنية بعنوان « الحياة الوطنية » جاء فيه « سر تبعته المواطنين فتتحرك به الدماء ، وتتوجه به الهمم إلى أعلى الأمور على مراقى

الحرية ولا يقوم بهذا السر في كل أمة إلا رجال العزائم وأهل الإقدام على صعاب الحوادث يقطعون العقبات بالصبر على المشاق . ويصرفون نفيس العمر في شراء الخالد من الذكر الجميل وما أعمالهم إلا شرارة تعلق بكبريت طباع الامة فيعلو بها هليب يشم رائحة القريب ويرى ضوءه البعيد .

ثم مضى في مقاله يناصر الحرية في أنحاء الدنيا ... فقال (وهم الآن أرباب السيادة وأصحاب الصوت الاول في الامم المتمدنية قد غلبت أفكارهم أفكار المستبدين في أمريكا حتى صار لهم الصوت الاول وزاحمت أعمالهم أعمال المحافظين في إنجلترا فكانت لهم السطوة في وزارتها وغالبوا بأفعالهم قوة الملكيين في فرنسا فرفعت أعمالهم على دوائر حكومتها وجرت مياه أفكارهم في أرض سويسرا فأثبتت حرية تغذى كل سويسرا بنحرها وتقوى بعزائمهم في جرمانيا فجمعوا شملهم المبدد وأشعلت نيرانهم في روسيا فاهتدى كل تائه في ظلم الاستبداد ، وفوقوا سهامهم في النسا نفثى منها كل مانع لمقاصدهم وجروا في جرن إيطاليا فتبعهم كل طالب حياة بلاده) .

ثم تسكلم بعد ذلك عن مصر فقال (ولقد سرى هذا السر في الشرق فقابلته المصريين قبول المحب لمحبه فهو الآن القوة الجاذبة والمعنى المألوف ، يجتمع حوله كل وطنى حر لا قصد له إلا حياة الاوطان . ويدافعه كل طامع في ثروة ، أو دائر حول وجاهة يحصلها ، أو رفعة يبلغها بملطة يظهرها أو أكاذيب يلفقها) وهكذا حدد النديم جانين من المواطنين ، جانب يكافح من أجل الحرية شأنه شأن أحرار العالم وجانب آخر يسعى لاجل منافعه الشخصية ولو على حساب الوطن ثم مضى يصور موقف الحزب الوطنى فقال : ولكن لإقدام الحزب الوطنى لا يحزبها مثل هؤلاء المتلونون فإنه حزب اعترى بالله وانتصر بالحق وتقوى على قطع العقبات بعزائم تساعد القوة الإلهية وتؤيدها العناية الربانية فهو حزب الله

الساعى فى جمع الكلمة وائتلاف النفوس ينادى فيه لسان الحق الثبات الثبات يا رجال الوطن . إن حزب الله هم الغالبون (١) .

وعندما تم التصديق على الدستور أو لائحة مجلس النواب فى ١٨/٢/١٨٨٢ عمت البهجة جميع الهيئات الشعبية وأقيمت الحفلات فى كل مكان فكان النديم أحد الخطباء المبرزين فى جميع هذه الحفلات بما سيرد ذكره بالتفصيل فى مكان آخر عن عبقرية النديم الخطابية .

ولما تألب الشراكية على العراقيين بعدما حز فى نفوسهم انتصار الضباط الاحرار وتآمروا على حياة أحمد عرابى وصحبه وفشلت مؤامراتهم قام الإنجليز والفرنسيون بمؤامرة أخرى لإسقاط وزارة محمود سامى باشا وذلك بلشر القوضى وإيجاد ذريعة للتدخل واغتصاب البلاد ، واتفقت الدولتان على إرسال أسطولهما إلى مصر لتهديد الوطنيين وكان ذلك باتفاق مع الخديو ويإهمال لشأن السلطان وتجاهله ، وأعقب ذلك تقديم مذكرة مشتركة إلى الخديو يطلبان فيها انسحاب عرابى من مصر مع حفظ حقه فى مرتبه وألقابه ، وكذلك إبعاد على فهمى وعبد العال حلى إلى ريف مصر مع الاحتفاظ لكل منهم ببلقه ومرتبته وإقالة وزارة البارودى .

وحدث أن استقالت وزارة البارودى احتجاجاً على هذا التدخل المعيب . وعلى موقف سلطان باشا وإخداذه من الخونة من انضمامهم إلى الخديو والدولتين فكتب النديم فى مقالة بعنوان «لائحة الدولتين» .

هى الداهية الدهياء . والنازلة الدهماء والليلة المظلمة التى تاهت فيها الأمم وتلاطمت الأفكار ، قدمت على زعم أن المضربين لا يحسنون التذكر ولا يعرفون الضار من النافع فوقفت أمامها الوزارة السامية وقفة المحامى للعرض . والمدافع عن الحقوق ثم ردتها لجناب دولتنا العلية الشأن . شأن

الحريص على حقوق الخلافة العظمى الساعى فى جمع كلبة المسلمين المتبرىء من تبعة أى دولة غير القائمة بأمر الامة فظن بعض من لاخلق لهم ، أن الامة لا احساس عندها بشىء من هذا . ثم تبين لهم خطأ اتهامهم عندما رأوا دولتلو درويش باشا مارا فى الاسكندرية ومصر والاهالى تناديه بصوت عال « لانقبل لأمحة الدولتين بل ترفض رفضاً باتاً ، حتى سمع هذا الصوت من المخدرات فى الشبايك وقد انفسخ حكمها بعودة سعادة عرابى باشا لنظارة الجهادية واشتراكه مع الحضرة الخديوية فى حفظ الامن والراحة فهى لامعنى لها وأن بقيت ألفاظها) .

ونستطيع أن نخرج من هذه المقالة القصيرة بحقيقة هامة وهى أن أعضاء الحزب الوطنى أرادوا أن يتحرك السلطان إن كان حقاً كما يقال « خليفة المسلمين » ويوقف مؤامرات الدولتين الدخيلتين ولكن الخليفة المزعوم لم يحرك ساكناً بل اكتفى بإرسال درويش باشا وهو شخصية أتفه من أن تعتبر لها إنجلترا وفرنسا كياناً أو مكانة أو قوة تخيفها .

ولما حدثت مذبحة الاسكندرية واتخذتها إنجلترا حجة قوية للتدخل كتب النديم يقوم فى مقالته « السكيد إلى نحره » .

اشتدت الازمة المصرية فظهر المنافقون ما كانوا يضمرون ، وتقسموا أقساماً ، منهم من أقسم أن لا يصدق خبراً يرويه أو اختلاق يفتره ، ومنهم من دار بين الحزب الوطنى والاجانب ينقل كل ما يتحدث به الآخر لإغواء للصدور وإثارة للفن ومنهم من دار حول مسند الحكومة يظهر أنه من الناصحين وهو من المفسدين ، ولم تعلم هذه الاقسام أن مقصد الحضرة الخديوية والحزب الوطنى واحد وهو حفظ البلاد وإن اختلفت الاسباب) .

وهكذا فضح النديم المتذبذبين ، والساعين بين طرفى النزاع بالإفساد وإشعال نيران الحقد والكراهية ثم يعود ملطفاً فى شىء من اللباقة والحدق

الفنى موقف الخلاف الناشب بين الخديوى الضعيف وبين الوطنيين . ثم أراد النديم أن يبين أن الوفاق قد تم وأن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد فقال :

(فلما رد الأمر إلى مقام الخلافة العظمى وعلم لديها المقصد الجليل وقفت بين الجانب الخديو ورئيس الحزب الوطنى والأمة وأصلحت النفوس وتم الوفاق فنكص الأعداء على أعقابهم يعضون الأنامل ويقرعون السن تبرما ، وبهذا الصلح الجليل رضى الخديو رضاء تاماً عن أفراد الأمة وفرسان الجيش فأخجل المرجفين بجامع الأمة ، يردعون القلوب ويهددون النفوس جهلاً بحسن المساعى واتفاق المقصد) .

ولما ترمى إلى الاسماع أن الخديو توفيق أسر إلى القنصل البريطانى أنه متوجس خيفة من الحالة وأنه لا بد من إرسال جنود انجليزية لإقرار النظام وتثبيت مركزه ثم نصح القنصل فى نفس الوقت الجالية الإنجليزية بالرحيل وعن ذلك يقول النديم :

(وما أسفنا عن حوادثنا إلا على رحلة أناس ألفونا وألفناهم ، وأصبحوا بين المصريين كأنهم الأهل الموثوق بهم . وإنا نرى أن حادثة الأسكندرية التى أحدثها أحد المطالبين هى السبب الاصلى فى وقوع الخوف فى قلوبهم ، ولكن زادت طيلتها بلة بتنبيه بعض القناصل على رعاياهم بالسفر فتسبب فى خسائر هؤلاء الذين لم يقترفوا ذنباً ولم يحن عليهم أحد ، حتى خلت منهم الديار وساقهم الإرجاف إلى تحمل العناء ومشاق السفر ، بعد أن كانوا فى راحة ، لا يعترها شقاء ونعمة لا تلحقها نقمة . وأنا لنعجب من الجرائد الأجنبية المحلية التى أهاجت أفكارهم وأقلقت خواطرهم وملأتهم خوفاً ورعباً بفصولها التهويلية .

ثم أشاد النديم برجال الجيش وعلى رأسهم عرابى الذى قام بحفظ النظام على خير وجه فقال :

«وأنتا بلسان الوطن وأهله نثني على رجال الجهادية الأسود الضواري الذين يقطعون الليل سحراً موصولاً بالنهار على أقدامهم يعطرون الشوارع ويتخللون الأزقة حفظاً للأمن وخفراً للأموال والأعراض ونضاعف الشناء صفاء بعد صف لحامى حومة الوطنية وقائد العصاة المصرية . ومؤيد الشريعة المطهرة المحمدية جوهره العقد العربي الهام البطل المقدم أحمد عرابي باشا أيده الله فقد قام بحفظ البلاد والعباد وبات كما يصبح يأمر بالحفظ ويسأل عن الحوادث أنتم الله بحسن توجيهاه أعمالنا الطيبة التي تقطع بسيفها جيد حوادث عامنا ، فإنها حوادث تاريخها عجيب وغرائب ومسرحيات ، أى والله إنها لحوادث كلها عجائب أعدت من قبل لكى يمثل بعضها على مسرح مصر وبعضها الآخر فى الآستانة» .

لأن أن نديمأ كان لا يفتأ يكتب المقالات العديدة ليرد على الجرائد بلاجنية وليصور شعور المصريين الطيب نحو الاجانب ، وأنهم كرماء بضيوفهم يحبونهم كما يحبون إخوانهم وأنه لا تعصب على الإطلاق فلا خوف ولا قلق على أى أجنبي أوروبى .

ثم أخذ ينفر المصريين من أسرة محمد على الى اغتصبته أرض مصر اغتصاباً ، فكتب عدة فصول عن مدى استغلال إسماعيل واستهتاره واستيلائه على الأرض مما ورد ذكره بالتفصيل فى باب سابق .

وبالجملة فقد حارب النديم فى جريدة الطائف الاستبداد بجميع صورته ومختلف أساليبه فى الداخل وفى الخارج على السواء وحارب الأكاذيب التى كانت تنشرها الجرائد الأجنبية والمحلية من أمثال الجوائب والعصر الجديد ، وغيرها .

فتلا كتب عن محاربة الاستبداد يقول :

بلغنا أحد النواب أن أحد مديرى الوجه القبلى عاد للاستبداد واستعمال

الفلقة والكرباج فضرِب بعضاً من المسلمين وبعضاً من الاقباط ضرباً مبرحاً بلا ذنب سوى تشفيه لغايات ذاتية فخرجوا هيئة الحكومة أن تتحرى هذا الأمر خشية من انتقاد أوروبا علينا واعتقادهم عدم رجوع حكمانا عن الغايات الذاتية .

وما كادت الأحوال تستقر حتى عقد مؤتمر الاستانة الذى ضم جميع الدول الأوروبية المعنية بالمسألة المصرية وقد عجب النديم كيف لم تشترك تركيا صاحبة الولاية الشرعية على مصر وصاحبة المصلحة الكبرى ، كما وطالب أن يكون للمصريين فى هذا المؤتمر عضو يدافع عن حقوقهم ويعرب عن آرائهم .

ولما نشبت الحرب العراقية صحب الجيش إلى كفر الدوار وأصدر جريدته الطائف من الميدان فى معسكره كنج عثمان .

وقال جون نيليه (أحد الكتاب السويسريين) الذين غاصروا الثورة العراقية (كانت ترد إعانات الشعب من الأموال والغلال والخضر والفاكهة والخيول والماشية إلى كفر الدوار كل يوم وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى إمداد الجيش .

وتجلت حماسة الامة للثورة والحرب من إلقاء نفر من أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر وكلها ناطقة بمرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبودية وقد كان فى مقدمة هؤلاء عبد الله النديم خطيب الثورة وكاتبها الأشهر وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها والشيخ محمد عبده والأستاذ الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الأزهر والشيخ على المليجى والشيخ محمود إبراهيم خطيب أسيوط والشيخ محمد أبو الفضل

خطيب المسجد الحنفي والشيخ حميدة الدمنهورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر
والشيخ محمد فتح الله والملازم على غالب وغيرهم)

وعاش النديم المواطن المصرى الثائر كريما فى اعتزازه بمبادئه قبل الثورة
ومعتزاً بمبادئه مع رجال الثورة حراً ، أياً ، يجاهر بما يعتقد به ، فلما أخفقت
الثورة وكان فى رأس قائمة أقطابها وقادتها ، اختفى تسعة أعوام ذاق فيها
كثيراً من ضروب المشقة والآلام ، بما سبق ذكره فى الفصل الخاص بحياته
ثم قبض عليه فلم ينكر شيئاً مما فعل . ولم يتنكر لمبادئه مثل كثيرين من
أنصار الثورة . لحكم عليه بالنفى ثم عفى عنه وعاد إلى القاهرة فى عهد
عباس حلمى الثانى .

٤ - الوفاء لمبادئ الثورة بعد هزيمة رجالها :

ولما عاد إلى مصر كان يستطيع أن يجنح لمسالة الاحتلال ، وكان
وقتئذ فى لبنان سطوته ويخلد إلى حياة الراحة والرخاء ، وبخاصة بعد معاناته
الشديد من المتاعب والأهوال فى عهد استخفافه . وإن طلب منصباً فى
الحكومة مقابل مناصرته للاحتلال أو سكوته عنه لما ضن عليه اللورد
كرومر بالمنصب الذى يضمن له اليسار طول حياته ولكنه آثر استئناف
الجهاد ، ولو استهدف للاخطار ، فأنشأ مجلة الأستاذ ؛ وانتضى قلبه مرة
أخرى زائداً عن الحمى . جائلاً بقلبه فى آفاق الفكر الحر . صدر العدد
الأول منها يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ ويفتح هذه المجلة بالفاتحة
ثم يتلو ذلك مقدمة بقلم أخيه عبد الفتاح النديم الإدريسي الذى تولى إدارة
الجريدة ، ثم يثنى النديم فى مقال تحت عنوان « مقدمة مدح ومعرفة جميل ،
على كل من أسدى له جميلاً ، ومن بين هؤلاء قاسم بك أمين النائب العمومى
الذى عنى بأمره وأمر بإنارة وتنظيف بيئته بطنطاً والسباح له بشرب القهوة
والدخان ، كما يثنى على كبار الحكام أمثال عطوفتلو حسن فهمى باشا فاظر

الحقانية وتجبران باشا وزير الخارجية ، ثم أخذ يوالى فى الأعداد التالية حملاته حرباً على الانحلال الخلقى الذى أصاب البلاد بدرجة لم تعهدها من قبل . وانقضى قلم الثورة مرة أخرى جائلاً بقلبه فى آفاق الفكر الحر ، فاستثار الشعور الوطنى . ثم أخذ يجمع الشباب حوله معتمداً عليه فى إحياء روح المقاومة الشعبية للاحتلال متصل بهم فى اجتماعات سرية فى أماكن مختلفة ، منها منزل لطيف باشا سليم ، وكان أكثرهم من طلبة مدرسة الحقوق ، وأوصاهم أن يتقنوا فن الخطابة فهى أمضى سلاح ، وسط شعب أكثره لا يعرف القراءة ، وحتى يستطيعوا الاتصال بقلوب الجماهير والنفاذ إليها . وصار النديم يمرن الشباب على الخطابة ويخص بعنايته الشباب مصطفى كامل بعد أن وجد فى قلبه وروحه الاستعداد الصالح لقيادة الجيل الجديد . ودفع النديم الشباب إلى الكتابة فى الصحف فنشرت لهم الأهرام والمؤيد مقالاتهم كما دفعهم إلى الخطابة ، كذلك كان يشرح لهم أسباب الهزيمة التى آلت إليها الحركة الوطنية ويكشف لهم الأكاذيب التى ألصقها الاستعمار وأنصار الخديو والمفتريات التى شوه بها جهاد الشعب ، وأوصاهم بالإعتماد على رأى العام وتربية الشعب تربية قومية منيفة .

المبادئ الأساسية التى دعا إليها

أولاً : (الجلاء) :

لقد كان النديم داعية سياسى من طراز يسمو على جميع معاصريه ، فقد دعا إلى جلاء الإنجليز ، والسعى للحصول على استقلال غير مشروط ، وكانت الصحف الوطنية فى عهده ، بعضها يطالب بتأييد الاحتلال ، والبعض يدعو إلى تأييد الخلافة العثمانية والالتفاف حول رايها - أما هو ، وبعد عودته من منفاه الطويل ؛ ورغم حاجته إلى الاستقرار والراحة ، فقد جاهر على صفحات مجلة الأستاذ لأول مرة فى تاريخ مصر بأن مصر للبصريين

لا للانجليز ولا لتركيا (الأستاذ في ١٤/٣/١٨٩٣ وبذلك كان له فضل سبق على جميع الزعماء المصريين إلى ما قبل ، دعوة الزعيم الشهيد محمد فريد في اسطنبول سنة ١٩١٧ أن « مصر للمصريين » ، وتعرضه لإضطهاد الأتراك بأسباب ذلك (الأستاذ في ١٤/٣/١٨٩٣) .

ثانيا : إصلاح الإدارة الحكومية :

دعا إلى إصلاح الأداة الحكومية وتمصيرها ، وإخلاق رؤساء مصريين أكفاء محل الأجانب ، وتعديل اللوائح والقوانين المعمول بها آنذاك لعدم صلاحيتها .

ثالثا : التريه السياسية الديمقراطية :

شرح التديم في مجلة التنكيت والتبكيت في العدد الصادر في ١٨٨١/١٠/١٩ الأسس التي يقام عليها النظام النيابي وفوائده ، وكيفية الانتخاب السليم ، والصفات الواجب توفرها في من يرشح نفسه للتمثيل النيابي عن مواطنيه . ومن أقواله عن ذلك (الشورى يا ولدى عبادة عن غرس أفكار في أرض التبادل وسقيها بماء الحرية وخدمتها بيد الاعتدال . لينبت العدل ويثمر الحق ويشمر العمران) .

وفي ١٨٨١/٩/٢٥ كتب عن المناقب الوطنية التي ينبغي أن تتوفر في المواطن الصالح الذي يرفع كرامته وكرامة بلاده ، ويؤدى ما عليه من واجب ويطالب بما له من حق .

وقد كان أيضا صاحب الفضل والسبق في إلهام المصريين النظام الديمقراطي الصحيحة بما لم يبلغه كاتب من قبل (ومن الأسف الذي يحزن في نفس كل مصرى أن تغمر الأحداث تاريخ ذلك الكاتب العظيم ، وتلغى أقواله الخالدة وتتغافل الأجيال تراث عبقرى نبه الوطن إلى أهمية النظام الديمقراطي

في الحكم ورسم له طريق الحياة البرلمانية الصحيحة منذ حوالى قرن، ثم تقوم بعد موته عدة برلمانات وينتخب لهذه البرلمانات نواب يمثلون الشعب، وتتخطم على عتبات هذه المجالس النيابية المبادئ الدستورية، وتخلق بين جدران دار التمثيل النيابى صيحات الحرية والرأى الحصيف والمعارضة النزيهة .

ويتحدث النديم في ص ٧٦١ من العدد (٣٣) من مجلة الأستاذ عن آرائه الديمقراطية التى ترسم للشعب حقوقه، وتحدد للواطن الحر واجباته، وأهم ما جاء فيها :

(١) نقد الحكام والكبراء فيما يصدر منهم من أعمال دون إحكام رأى وإعمال فكر مهما كانت دوافعهم لإليها وطنية وخيره .

(ب) تنفيذ المشروعات الإصلاحية فى الدولة، وسياستها العليا، ينبغى أن يكون أولا عن طريق المجالس النيابية، فتعرض عليها، ثم تناقش ولا تأخذ طريقها للتنفيذ إلا بعد البحث وتقليب الآراء وتناول وجهات النظر ثم صدور موافقة من الأغلبية الساحقة للنواب ويقول (يجب أن يكون الرأى الأخير نتيجة الشورى، تستخلص من تضارب الآراء وتضارب الأفكار قواعد لا تنقضها الحوادث، وقوانين ثلاثم التابع والمتبوع، وتبقى بها دعائم الدولة قائمة على أساس متين، ولم يتوصل لهذا المقصد الحسن إلا باعتمادها على من يخوض لجج المنايا فى حفظ وطنه من طامع فى امتلاكه رغم كفاح أهله) .

ولنقف قليلا لنرى ما ترتب على الإغفال العمل بهذا المبدأ الخطير فى حياتنا البرلمانية الماضية، كان أغلب نواب الشعب آلات فى يد رؤساء الأحزاب لا رأى لهم إلا مارآه زعمائهم، فأهمل بذلك النواب الواجب البرلمانى الصحيح وفشلت الحياة البرلمانية، وما استطاعت أن تقيل حاكما أو تخيف ظالما أو ترهب معتديا أو تحول دون الفوضى السياسية التى ابتلينا بها ،

(د) شرح أسباب نجاح الحكم الديموقراطى فى الغرب فقال :

« إنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى وأخذوا يصححون الأغلط ويراجعون الأخطاء ويتبادلون الجدل عن عزائم صادقة ، حتى تربت الملكات وتصورت المطالب أمامهم بصور الواقعيات وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضلاء والأذكاء حتى اضطروا الأغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التى بها ترشحوا للدخول فى أندية الشورى » .

ولا يلائم للدخول فيها أكثر من انتخاب العقلاء والفضلاء وانسلاخ أهل الذاتيات من التوجه إلى الوجهة الأجنبية ، وجمع الكلمة على توحيد المذهب الوطنى لتخرج من مضيق هذه المصيبة التى أصيب بها بعض نبهاء الشرق من خدمة الأجنبي ولو بيع الوطن له) ونستطيع أن نخلص من أقواله السالفة بالحقائق الآتية :

(١) التمثيل النيابى تقييد لا تقليد ، ودرس وبحت وعمل وعناء ، للوصول إلى الآراء الخصيفة ، والأفكار السديدة ، لمنفعة البلاد ، على ضوء حاجات الوطن ومطالبه فى حاضره ومستقبله . فليست النيابة مظهر ونفوذ ، ومركز اجتماعى يبيح لصاحبه الاستغلال وتحقيق المآرب الشخصية .

(٢) للنيابة مؤهلات وكفايات خاصة ، لا يرشح لها من كان عاطلا عنها ، لذلك اضطروا الراغبون فى تمثيل مواطنيهم فى المجالس النيابية . إلى دراسة العلوم الاقتصادية والسياسية ، التى تساعد على القيام بمهام رسالتهم الخطيرة بعد نجاحهم فى الفوز بالمراكز النيابية .

وإذا نظرنا إلى الوراثة متسائلين ، هل نفذ هذا النظام فى مصر فى فترة الحياة النيابية السابقة ؟ للأسف لم ينعذ ، إذ أن من الضرورى لنجاح النائب اعتماده على تأييد زعيم مشهور أو حزب له نفوذ ، ومن أجل ذلك فشلت الحياة البرلمانية فى بلادنا .

٣ — تشرفت مراكر النياية البرلمانية فى الغرب . بمن شغلوها ، فبعلمهم وحزمهم وآرائهم القوية ووطنيتهم ، صدوا الظالمين ، وأرهبوا الخونة والعابثين من الحكام ، وصانوا حقوق الشعب من عبث الملوك ، وكانوا حصوناً للبلاد الدستورية ، لذلك بقيت الحقوق مصانة ، والشعب فى أمن والحكومة قوية وأسلحة أعداء البلاد الخارجين مغولة . .

٦ — النديم أستاذ مصطفى كامل

تردد مصطفى كامل فى أول مراحل جهاده الوطنى على الزعيم عبدالله النديم عقب عودة الأخير من منفاه ، وعرف منه حوادث الثورة العراقية على حقيقتها ، وأدرك أسباب إخفاقها ، لأنه كان يعد نفسه لذك لزعامة الحركة الاستقلالية ، وقد أفادته كثيراً أحاديث النديم فى تعرف مواطن الخطأ وأسباب الإخفاق فى الثورة العراقية - كما ألم بطرف كبير عن دسائس السياسة الإنجليزية . تلك التى كان لها دخل كبير فى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ، ولنا لنلح فى حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية ، آثار توجيه النديم من اعتماده على قوة الرأى العام وتربية الشعب تربية وطنية وأخلاقية . على دعائم الحرية الديمقراطية - وقد تجنب مصطفى كامل الاصطدام بالخير عباس الثانى برغم ما شجر بينهما من خلاف .

ولما أنشأ^(١) مصطفى كامل مجلة المدرسة وصدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨/٢/١٩١٣ وهى مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية ، وتطوع كثير من الكتاب المشهورين لكتابة المقالات والرسائل فيها ، رحب بها السيد عبدالله النديم ونوه بها فى مجلة الأستاذ (عدد ٢٨/٢/١٩١٣) .

كما نوه بمجهوده فى تكوين جمعية مصرية من الشبيبة المصرية المثقفة

(١) من كتاب مصطفى كامل ص ٣٠ للأستاذ الكبير عبد الرحمن الراعى .

لترقية المسرح المصرى وهى جمعية الفتوح الخيرية . رئيسها مصطفى كامل أفندى وأعضاء مجلس إدارتها هم فريد إبراهيم أفندى وأمين فهمى أفندى وحافظ ييوى أفندى وقد قامت هذه الجمعية بتقديم باكورة إنتاجها الفنى بتشخيص رواية الملكة بلقيس على مسرح تياترو البراديزو وقد حضر افتتاح هذه المسرحية كثير من عليّة القوم ووجهائهم ذكر ذلك فى عدد الأستاذ جزء ٢٩ ص ٧٢٣ فى ١٨٩٣/٣/٧ .

وقد ذكر الشاعر الكاتب ولى الدين يكن فى معرض حديثه عن موقف اللورد كرومر من عبد الله النديم ، أوجه التشابه بين النديم ومصطفى كامل فى كتابه (المعلوم والمجهول) . . قال (هذا عبد الله النديم ، صاحب الطائف والتسكيت والتبكيّت من قبل ، وصاحب الأستاذ من بعد ، اختفى بعد ثورة العرايين وكان حارثهم بن حلزة ، أو عمرهم بن كلثوم رغا فتجمعوا ، وعقر فتمرقوا ، ثم آوته قرى الريف فبات كأبى زيد السروجى ، يحترف الحرف ويتنقل بين الأزياء والأشكال فيوما هو واعظ . ويوماً هو قاض ، ويوماً هو عالم . ويوماً هو خليع ، وما زال كذلك يطوف فى البلاد حتى تفرق بعضهم فوشى به وذين بعض شيعته لمقام الإمارة المصرية أن تعفو عنه بعد ذلك ، فعفت فبدأ بعدئذ فى نشر مجلة الأستاذ .

ومن المعلوم عند أهل الدهاء أن الحزب العرابى وأن تمزق شمله بعد نكبة صاحبه بقى مختبئاً فى مكان خوفه . اختفاء الأفاعى فى جحورها وكذلك الفزع يستولى على أهل الدعوة فيلجم أفواههم . فلما عاد النديم ، وأعاد لهم نغماته . طربوا وعرتهم هزة أفلتوا بها من مرابطهم فقال فصدقوا ودعا فأجابوا . وما زال فى غلوانه وهم فى عواثم يدعوا إلى الفتنة ويحض على الثورة والإمارة تحبوه ، ما يقيم أوده ، ويطلق لسانه حتى آل أمره إلى الطرد فترك مصر مأسوفاً عليه من أشياءه مغضوباً عليه

من العقلاء^(١) .

وقد أخطأ اللورد كرومر - وقد يخطئ عظماء السياسة - فطلب من الإمارة أن تكلمه في الخروج ، فكان كلام الإمارة له كلاماً يدل على قصر النظر وخطئ في الرأى وضعف في الإرادة ومجاملة حيث يجب العدل .

وظن اللورد كرومر أن عبد الله النديم إذا دام نشر أستاذه حدثت ثورة في البلاد ، فأراد الاقتصاد في المكارء والاجتناب للفتن ولو كنت أنا مقام اللورد لتركته يقول حتى ينفذ ما عنده . . . ويظهر من أمور كثيرة أن مقام الإمارة وثق في النديم ثقة لا يتخللها الريب ، فكان يحسبه قادراً على كل شيء ، ومن أجل ذلك قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر أن مقام الإمارة يقرب منه النديم لأنه عدو أسرته وجلسه^(٢) .

وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر إلى الاعتماد على مصطفى كامل وقد كان كامل ممن يرددون نغمت النديم ، وإنما ميز المقلد عن المجتهد ، لإلمامه باللغة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه للغربيين^(٣) ولم يفز النديم بمثل ذلك .

ولقد ذكر بعض الكتاب ، أن مصطفى كامل دعا إلى تبعية مصر إلى تركيا رغم أنه كان تلميذ السيد عبد الله النديم الذى كان أول من نادى بأن مصر للمصريين لا لتركيا ولا لإنجلترا .

والواقع أن مصطفى كامل وقد آل على نفسه تحرير البلاد من براثن الاحتلال اصطنع في سبيل ذلك سياسة محاسنة بالنسبة لتركيا ، حتى يطمئن على أنها لن تنضم إلى إنجلترا في سياستها الاستعمارية ضد مطالب المصريين

(١) ولى الدين يكن كاتب وشاعر وكان ضد الحركة الوطنية ومن أنصار البيت المالك حيث أنه كان يمت بصلة القرى لبعض الأمراء وقد نفاه عباس حلمى لأن القسطنطينية .

(٢) لسكناياته الكثيرة في عهد موفيق ضد الأسرة الحاكمة وتشهيره بمظالمها

(٣) المعلوم والمجهول (٢٨ ١/٣٠)

الاحرار وهو في صميم دعوته السياسية . يقصد تحرير البلاد تحريراً كاملاً بدون قيد أو شرط .

وكانت الدعوى الصادقة إلى الجلاء تقتضى محاسبة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بإلغاء سيادتها على مصر . وأرجأ هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكؤود التي تحول دون استقلالها وهي الاحتلال الإنجليزي ، فكانت محاسبة تركيا هي إذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال وخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لا تفتأ تطالب إنجلترا بالجلاء بل وكانت هي الدولة الوحيدة التي انفردت بمطالبة إنجلترا باحترام عهودها في المسألة المصرية وكان لها مندوب في مصر وهو أحمد مختار باشا غازی جاء سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصرى والاستغناء عن الضباط الإنجليز والسردار الإنجليزي وجهر بضرورة استرداد السودان . ولما أخفقت مفاوضاته في الجلاء بقى في مصر وكان شعاره : أنه احتجاج حتى على الاحتلال . فتركيا كانت تؤيد مصر في الجلاء فكان طبيعياً أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقاً في الجلاء .

ولقد كتب مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم بعد أن ألقى خطاباً بالإسكندرية في يونيو سنة ١٨٩٧ بمناسبة الحرب اليونانية التركية واقتطف هنا بعض محتوياته .

« إنك تعلمين أن كثيراً من أصدقائنا اليونانيين يرون بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا مادام الإنجليز محتلين . وطننا العزيز ، وقد أقرتة الكاتبة الكبيرة مدام آدم على هذه الخطوة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان .

ولقد رد مصطفى كامل رحمه الله على أنصار الاحتلال الإنجليزي الذين

- ٢٢١ -

اتهموه بأنه يريد نقل مصر من حكم الاحتلال الانجليزى إلى حكم الاحتلال العثمانى فى عدد اللواء فى ٢ مايو سنة ١٩٠٦ بمقالة قال فيها مخاطباً لرامهم د أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد فهى دعوى لا يقبلها ذو لب ولا يسلم بها أحد من العقلاء فإننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا وتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا .

الباب الخامس

آثار النديم الأدبية

- | | |
|-----|---|
| ١٧١ | (١) النديم الأديب القوى |
| ١٧٥ | (٢) النديم رائد الأدب الشعبي |
| ١٧٨ | (٣) النديم الرجال |
| ١٨٩ | (٤) النديم زعيم الخطابة في الشرق العربي |
| ١٩٨ | (٥) نموذج من خطب النديم |
| ٢٠٤ | (٦) النديم الشاعر |

النديم الأديب القومى

لقد كان النديم أديباً بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى ، فإذا قام الاختلاف بشأنه على معنى الأدب والأديب ، وتضاربت الآراء فى وصف الأدب ، والأديب . فآثار النديم الأدبية ونشاطه الفكرى ، والثقافى وإنتاجه الأدبى ، الذى وصلنا من غمار ظروفه الخاصة ، تجمع تعريفات الأدب والأديب من جميع أطرافها ففيها اللفظ الصافى ، والأسلوب الرصين والمعارف الإنسانية وفيها الخيال الخصب والجمال المتفرق ، وفيها الوقع والتأثير وهزة النفوس إلى الخير والحق والجمال .

ولقد جال النديم فى ميادين شتى من الأدب كما عرفنا فى الصفحات السابقة فبرز فى أدب المقالة وكانت فى عصره الطراز المعلم فى الكتابة والإنشاء وحلاها بالسجع الذى تنتشر به الأفهام سلساً ، سائناً ، قوياً رصياً ، وذلك فى أول حياته الأدبية ثم تخلص منه بعد ذلك - واستخدم المقالة فى عرض المشاكل الاجتماعية والدعوى القومية .

وله أيضاً جولاته فى أدب اللغة والعلوم اللسانية فأثره فيها موزع بين مقالات يدود فيها عن حياض اللغة كمقالة " لغة الدواوين ، ويدعو فى أكثر من موضع إلى تنقية اللغة الدارجة من عبارات فج ، وألفاظ نائية ، لا تؤدى إلى ما تهدف إليه من معان إلا بعد أن تجرح الاسماع ، وتصيب المستمع الأديب بالاشمزاز ، وهو كأديب فنان يعالج هذا العيب فى لغة الحديث ، بتعليم الشعب استعمال جمل مهذبة ، رقيقة الحاشية طلية المسمع بدلا منها ، لا تسبب امتعاضاً ، ولا تثير تقززاً ، تحمل نفس المعنى الذى تستعمل لأجله تلك العبارات الفجة ، الناضبة من الرقة والجمال والذوق .

ويبقى بعد ذلك أدب الفلسفة أو أدب الحكمة أو خطرات فى الافكار

يصوغ بها تجارب النفس ، ويفيد بها تحليل الحكمة الشاردة والرأى الخثير ، مستغلاً إياها في تبصير مواظنيه بنواح كثيرة في حياتهم وأمور معاشهم . وعاداتهم وآلامهم وآمالهم مهدداً لهم بأوضاع جديدة جميلة في أساليب تفكيرهم وأمورهم ، يصلح بها حالهم ويستطيعوا اللحاق بركب الامم المتقدمة الزاهرة .

منزلة الاديب عبد الله النديم في الأدب القومى

وبعد فنزلة الاديب عبد الله النديم من الأدب القومى منزلة قائد من قواد النهضة أخلص لوطنه وأخلص لفننه وأدبه ، فثنى قدماً في ساحات النضال خفاق اللواء . موفور العتاد ، يشك عليه التبوغ والعبقرية في أعلى القمم ، ويمهد السبيل لمن يسير بعده فيزيل منها الشوك والعوسج ، ويغرسها بالورد والريحان .

واليوم يذكر الوطن والأدب ذلك الأديب النابغ والخطيب النابه ، والمسكافح المجاهد ، الذى علم الشعب ، وغرس بذار الحرية وكان أول الداعين للقومية العربية ، والكرامة الإنسانية وإزالة الفروق بين الطبقات ، واحترام ذاتية المواطن وإنسانيته أيا كان مركزه أو ماله أو ثقافته في الربع الاخير من القرن الماضى ، نعم فقد كان الأديب النديم ، الامين البار للوطن وللأدب ، قدم نفسه قرباناً على مذبحهما وبقي روحه المنارة تنير بشعاعها الجوال آفاق الحى فتهدى السراة والمدلجين .

ويوم يحلو للشرق العربى أن يقلب صفحات التاريخ الحديث ، ويطالع الاسماء في سفر العاملين الخالدين سوف يجد اسم النديم مكتوباً فيه بأحرف من نور ، هو ضياء عينيه وحزام قلبه وشعلة مواهبه المقدسة .

لقد كان النديم الكاتب الشاعر الذى تغنى بآلام وطنه ونشج بآلامه ، وكان الكاتب الاجتماعى الباذل لامته بمنعرج اللوى ، النصيحة الحرة

الخالصة ، وكان الأديب الذى وطأ أكناف الأدب للجماهير وأدنى لها القطف والمجانى فى أثر تناثرت فيه درر الفكر والحكمة ونظيم انتظمت فيه المعانى الحسان ، مقدودة من العاطفة المشبوبة والوحى النضير .

فنزلة النديم فى قومه منزلة العامل المجد ، والمتفنى المجدد ، سار فى طريق الرشاد والسداد وتبعه المعجبون والمريدون ، فكان عنواناً من عنوانات النهضة الادبية فى أخريات القرن التاسع عشر .

وإن ضاب للغرب أن يفخر بقادته الادبيين ، وأبطال حركاته الاجتماعية والثورية فإن مصر ليطيب لها أن تزهى بالنديم الخطيب الذى تسلكه خطابته وصحافته فى عداد المشاهير . لقد كان الصحفي الأديب الذى يتجه بقوته نحو الخير للمجتمع الذى يعيش فيه . فإذا كتب القصة الحوارية أو المقالة أو الرواية . لا يبنى من وراء ذلك تسليية الشعب ، وإنما يود من كتاباته أن تسرى منها إلى الارواح ، المعانى السديدة والمبادئ السامية التى تهدف إلى الحرية .

لقد كان قلب الإنسان محور شعوره ، فسبر منه الاغوار ، وسمع فى دقاته خلجات الحزن والطرب ، وخفقان السخط والرضى ، ولمس فى عاطفته ندوات الفضيلة ، وغزوات الرزيلة فصهر كل هذا فى بوتقة أدبه بشق أنوعه شجره ونثره ، خطابته وكتابته ، فكانت مقالاته وقصائده وأزجاله ، وقصصه خافقة بنبضات قلب الإنسان ، فكان خطيب الإنسانية الشاعر فى عصره وفى كل عصر ، وحسب ذلك فخراً فى مجال المباحاه والفخار فإن حب الوطن هو الصفحة الاولى ، بل الكلمة الاولى من سفر الحياة ولقد كان النديم وطنياً صادق الوطنية ، تحتلج جوانحه بحب الوطن ، والنهوض به إلى أعلى المراتب وسرى تيار هذا الحب إلى جميع معاصريه من المواطنين ، ولم تكن عاطفة الوطنية مقصورة على مصر وطنه فحسب بل كانت مبهوطة الجناح إلى الشرق العربى بل إلى الإنسانية بأسرها ، فقد جمع بين الوطنية والإنسانية .

ولقد كان النديم الأديب ، ابن العصر الذى نشأ فيه ، فقد اشترك فى حوادثه وشارك فى نزاعاته وآماله ، وراقب وسجل أطواره وأمواج حركاته ، ولا غرو فى ذلك فقد كان من القادة والزعماء فى عصره ، فأثر على الجماهير ونال إعجابها ونزل من عصره فى الصميم ، متميزاً بالوطنية الملتزمة، والعاطفة الصادقة ، والسريرة الصافية والخلق القويم ، والقلم الجرىء المقدم ، الذى ينازل الظالمين فى غير ما تردد ولا وجل ، فضرب المثل بشجاعة الرأى ، والتنديد بظلم الخديويين وبالأخص لإسماعيل وتوفيق ، أما عباس فلم يعاصره إلا فى أوائل حكمه حين كانت تبدو عليه النزعات الوطنية السليمة ، ثم هاجم الانجليز فى إبان حكمهم وهاجم أبا الهدى الصيادى ، الرجل الذى استوزر فى غير ما وزارة ، ونكب الامبراطورية العثمانية فى عهده بتوجيه السىء والجو الرهيب الذى أحاط به الأحرار والمصلحين ، ثم لم يتردد النديم أيضاً فى توجيه النقد لأسلوب الحكم فى عهد السلطان عبد الحميد فى بعض قصائده وكتاباتة وأقواله .

وقد تزعم مدرسة خطيرة للأدب الشعبى وقاد حملة عظيمة للتنبيه إلى ضرورة الإصلاح الاجتماعى بالبلاد . واقترح سياسة قومية لتنظيم وتعميم التعليم ، واقترح إصلاح الأزهر ، ومهد طريقاً جديداً للصحافة الشعبية بصحفه المختلفة الاساليب والالوان ، وجلى فى أدب المقالة واهتم باللغة العربية فدعا إلى إنشاء مجمع لها وتوسيع التعامل بها .

ثم انتضى قلبه النارى وكتب به المقالات الخالدة ، والتى صور بها حالة التدهور الاخلاقى الذى انتهت إليها البلاد فى عهده ، ثم نبه الوعى الوطنى فى الشعب وقرب لأذهان الجماهير المبادئ السياسية التى يرتكز عليها مستقبله ومصيره من دستور وحكم نيابى وحرية فكرية .

وبالإجمال فإن الإنتاج الأدبى للنديم شمل جميع النواحي الوطنية

والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وكان الحلقة التي ربطت رسالة زعيم الشرق جمال الدين الافغانى بجهاد الزعماء الذين اتوا بعده وهم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول . وبذلك كان تأثيره الادبى فى ايمان حياته واسع الاثر ، يمتد الافق ، وقد تهافت الناس من كل الطبقات - فى عصره - على الاستماع اليه ومطالعة آثاره وقراءة مقالاته ، التى بلغ دويها جميع أنحاء القطر والاقطار العربية ، وأخيراً نفاه الإنجليز عن مصر مرة أخرى ، وهام النديم فى مطاوى الأرض ، ثم شاءت الظروف أن تقيد هذا الطائر المغرد فى قنص من ذهب بالآستانة ، ثم يحطم القدر . . ذلك القلم الرهيف الذى لمح سنانه الشهد . . وذوب العطر .

النديم رائد الأدب الشعبى

إن الأدب الشعبى الحق ، أعنى الجدير بالإنتساب إلى الشعب ، هو الذى يعبر عن إحساسه ، ورغباته وهو الذى ينظم اتجاهاته ، ويوحى إليه بالتسامى والتساند والسلوك أقوم السبل إلى أكرم الغايات ، ولا بد أن يكون هذا الأدب صادراً عن شعور قوى صادق ، وعن فهم دقيق بكل ما يعبر عنه من شعور الشعب وشجونه ، كما يجب أن يكون تعبيره لطيفاً جذاباً سائغاً ، لاجداث الأثر المطلوب النفوس ، وهذا يقضى أن يكون من حيث أسلوبه ، بحيث يسهل على قارئيه وسامعيه أن يحسنوا فهم معانيه ومرامييه ، وبحيث يطربون له ويعجبون به ، ولقد اصطالح الأدباء ، ونقاد الأدب على تقسيم الأدب إلى قسمين : أدب خاصة وأدب شعب ، ولا فارق عندهم بين هذين الأدبين إلا من حيث أداة التعبير وهل تكون هى اللغة الفصحى التى تجرى على الألسنة والأقلام وفق القوانين والقواعد الموضوعية لها ، أو تكون هى اللغة الدارجة التى تتخاطب بها العامة ، على أن كثيراً من الأدب المعبر عنه باللغة الفصحى قد يكون أذياً شعبياً من صميم حياة الشعب ، ومصوراً لها

أدق تصوير ، وكذلك نجد بين ثمرات الأدب المعبر عنه باللغة الدارجة الشعبية ما يصور حياة الخاصة ، ويعبر عن أفكارهم ومشاعرهم بجملاء .

ويمكننا القول أن الأدب الشعبي هو الذى يفهمه عامة الشعب ويتأثرون به ، سواء أكان باللغة الدارجة التى يتخاطبون بها ، أم كان بلغة عربية فصيحة سهلة ، والبلاغة كما عرفها (علماء اللغة) هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولما كان السواد الأعظم من الشعب قاصراً عن تذوق آثار الأدب العربى لجهله أكثر ألفاظه وأساليبه الخاصة ، فمن الخير لهم وللأمة كلها أن يخاطبهم الأدباء بالألفاظ والأساليب التى تلائم أذواقهم ومداركهم .

لذلك كان عامة الشعب أشد تأثراً بالأدب المصنوع بلغتهم وعلى قدر عقولهم ومداركهم كتعدد الذائحة ، والمواويل الحماسية والغرامية والقصصية ومحاورات (الأدبائية) والقصص المنظومة عن الأولياء الصالحين وأبطال الأساطير .

ولقد اتسع هذا الأدب فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر لمختلف الأغراض التوجيهية والحماسية والتنقيفية والتهديبية وغيرها .

ولقد كان عبد الله النديم من أكبر أقطاب هذا الادب ، فقد استطاع أن يدفعه حتى اتسع لتوجيهات وأهداف النهضة الحديثة والإصلاح الاجتماعى ، وأفاد بأدبه الشعب بجميع طبقاته - وأغلب إنتاج النديم الادبى كان شعبياً ، فأحاديثه وأزجاله ومحاوراته وخطبه ، ومقالاته الاجتماعية ، ومسرحياته الادبية (الصالون المتنقل) التى كان يغذى منها الشعب من أعيان وفلاحين وعظماء تعد أعظم أدب شعبى قام به أديب إلى الآن .

ولو جمعت أحاديثه ، وقيدت نوادره ، مما ألقاه أثناء إقامته فى الريف فى منازل الكبراء والاعيان أو فى الفيض الزاخر من ألوان الحديث والسمير

الادبي والقصصى والشعري ، لكان لنا مجموعة ضخمة ، أو مؤلف جامع رائع لاحسن ما أنتجته قريحة أديب شعبي ، وفي كتابته في صحفه أغترف من كل البيئات الشعبية ولم يتردد في كتابة كل ما يتساقط من لغة العامة وتعايرها ، حتى ماند فيها عن الذوق وحاول تغييرها بعبارات أرق ، وحسبه في ذلك الإصلاح .

تحدث عن الصناعات الشرقية التي كادت أن تنقرض في عهده ، وتحدث عن الريف وعادات أهله وأساليب معيشته باللغة الدارجة ، وتحدث بلسان العامل والزارع والفلاحة والزوجة المدنية ، والخادمة ، والتاجر الاجنبي والمرابي والمحامي والنصاب ، والمرأة ، بنفس أسلوبها في الحياة الواقعية ، ثم صاغ هذه الاحاديث على شكل محاورات وقصص صغيرة بسيطة ، كان يتجه بها إلى أغراض معينة من نقد لكل وضع مضطرب من أوضاع المجتمع .

ولقد بلغت هذه الاحاديث والقصص البسيط الطريف ، والمحاورات الجذابة شأوا كبيرا من التأثير في الجماهير ، وقد اجتذبت النساء لها ، فأظهرن اهتماماً بالغاً بها ولنضع أمام القارئ نموذجا من ذلك الادب ، محاوره بين (حنفي ونديم) نشرت في الاستاذ في ١٨٩٣/٢/٢٨ بحث فيها على قراءة الجرائد والإنتفاع بها من تحسين اللغة الدارجة ومعرفة الاخبار والحث على الإتحاد بين الطوائف .

نموذج للأمثلة الشعبية : حنفي ونديم في ١٨٩٣/٢/٢٨

ح - انت ياسيدنا عملت كده ليه كل جمعة تقول إياك تفتسكرونا بكلمتين وتتحفنا بعبارتين فلاقيك ماسك في العظمة الخشنة ونازل على عيون الخائنين والمنافقين بقي مافيش لنا خاطر عندك والا الفقراء يروحوا في داهية ا

ن - انت يامعلم حنفي لم تزل على جهلك أرى حنيفة تكلمنى بكلام طيب موزون وانت تقول مانيش وليه وتتكلم بالسكلام العامى مع إنك ضاحقتنى

— ٢٣١ —

من مدة ، أذهنك أضعف من ذهن حنيقة . يمكنك بالكلام البلى في عبارة لطيفة تعجب الجاهل والعالم ولا يعيبك فيها أحد لجاهد نفسك وقلدى فى الكلام تكن من صف اللطفاء .

ح - أنا وحياتك ياسيد أقدر أكلبك بكلام مليح يعجب السلطان ولما الإنسان أخذ على الكلام مع الجلة فغلب عليه كلامهم ، والا أنا دائماً أسمع الجرائد وافهم عبارتها .

ن - ومن ايك تأتيك الجرائد ؟

ح - أنا والمعلم عفيفي والمعلم بيومى والحاج يوسف والحاج دسوقى عملنا جمعية واشتركنا فى جملة من الجرائد واستأجرنا كاتباً يقرأها لنا .

ن - حيث انك تقرأ الجرائد قل على مارأيته فيها واخبرنى عن الجريدة العلية والجريدة الرديئة لاتحقق انتفاعكم بها من عدمه .

ح - أول مااشتركنا اشتركنا فى الاستاذ لكون كلامه على قدر عقولنا ولما اتسع فهمنا رأينا المؤيد ماسكا على الجد وماشيا مع الاستاذ فى طريق واحد فاشتركنا فيه ورأيناه يخدم الوطن بنية خالصة ويكتب الفصول العجيبة ويدافع عن حقوقنا بقوة . وبعدها التفتنا لقينا النيل تنادى بصوت رقيق فاشتركنا فيه فوجدناه من المجتهدين فى خدمة الوطن الساعين فى تهذيب الناس وحفظ الحقوق ورأيناه يكتب كل لحظة تسحر العقول وتبين للناس الحقائق بقلم لطيف وعبارة سليمة أفقطننا تم لنا السعد بوجود هذه الجرائد مانشعر إلا وواحد ينادى بالوطن فاشتركنا فيه وجدناه من جنس هذه الجرايد ورأيناه وطنيا ينادى باسم مصر ويدافع عن حقوق رجالها ويحرض الناس على السعى خلف الامور النافعة ، وأحسن مقاصده ترجمة كلام الإنكليز ليطلع عليه إخوانه المصريين ومحافظته على الروابط التى بيننا وبين الاقباط يعنى رأيناه واحدا منا يفرح لفرحنا ويحزن لحزننا

فقلنا تم الحظ وصارت كلمة المسلمين والاقباط واحدة ، فلم يبق هناك خوف من احد يفسد احوالنا ، وبعدها ياأخى سمعنا بجريدة اسمها الاهرام فأشرينا منها نسخة وقرأناها وجدناها نازلة على عيون المضلين والمضيعين حقوق المصريين فقلت لابد وان نشترك فيها فوقع خلاف بين الجماعة وقال بعضهم محررها سورى فقلت دا جماعة السوريين لحواننا وجيراننا وتحت حكم سلطاتنا ويلزمنا ان نكون عصا واحدة في المحافظة على حقوقنا الوطنية ولا يلزم تفريق الكلمة واحداث العداوة والبغضاء ونحن محتاجون لقطع عروق العداوة فقام المعلم عفيفي وقال أن بعض السوريين يكتب ضدنا ويشتم جرائدنا الوطنية ويكذب على حكمانا ويمدح الاجانب ويذم المصريين ، فكيف نشترك في جرائدكم بعد ذلك فقلت له كل امة فيها الصالح والطالح والأمين والخائن أفلاجل المنافق منهم أو الغاش ينقض هذا الجنس المختلط بنا من قديم الزمان ان الخائن منهم عرفناه فتجنبه وقليل الحيا منهم لا ينبغي ان نلتصق اليه ولا نعهده من بنى آدم ، ولكن لا ينبغي هجر المخلص منهم والصادق في خدمته ، وان كان في الجرائد او في الحكومة ، وجريدة الاهرام نراها تنادى بآمال المصريين ، وتسعى في المحافظة على حقوقهم ، فلا ينبغي ان نعدها في الجرائد الفاشلة فضلا عن كونهم أقدم الجرائد العربية في بلادنا وصاحبها شرقي مثلنا وقبل الاهرام (المحروسة والاتحاد) فأنهم مجتهدين في خدمة مصر واهلها فينبغي ان نشترك فيها ايضا فتم الرأي واشتركنا في الاهرام والمحروسة والاتحاد من جرائد السوريين وصرنا نجتمع كل ليلة نقرأ اليومى منها وفي كل أسبوع نقرأ الاسبوعى فحصل عندنا تنوير ذهن واتساع أفكار من كثرة المطالعة والسماع وهذا كله من نتائج نصائح الاستاذ وارشاده . . . الخ

٢ — النديم الرجال :

نشأ الرجل في الأندلس ، حين استفاضت حياتهم باللهو وزخرت بالمتع وحفلت بالفتى والكسل فاستعملوا الرجل كنوع من الشعر الغنائى — خالصا من كثير من قيود الشعر العادى ولو أنه ذو أوزان خاصة ، يكثر فيه استعمال الألفاظ والعبارات العامة .

والرجل هو لغة الشعب التى تعبر عما يجيش بصدرة فى أسلوب سهل بعيد عن التعمق فى المعنى ، والزخرفة فى اللفظ ، فلا غرابة إذاً أن يكون الرجال شاعر الشعب الذى اندمج فيه ، وعاشره معاشرة الأم الحنون لأولادها ، فعرف آماله وأحس بآلامه وكشف عن أمراضه الاجتماعية التى تنخر فى عظامه وحالجها معالجة دقيقة .

لقد كتب شاعر الشعب عن الفلاح المجاهد القنوع ، الذى لا يعمل بحمله المتواصل صابراً على الحرمان والفقر والفاقة والجوع ، وعن العامل المصرى وحقه المهنوم وعن السائل والمحروم ، وعن صغار الموظفين والتجار المظلومين وأجاد تصوير شخصية ابن البلد فعرف جيداً كيف يجب ويتألم صامتاً ، وكيف يجاهد فى حياته متحملاً الصدمات بصدر رحب ، ثم جال فى الريف ، فاحصاً آفاقه الفسيحة ، مقتنصاً سوانحه البهيجة ، مرسلأ أغاني الفلاحات ألحاناً مشجية تملك القلوب ، ووصف الساقية والمحراث والشادوف وأيام الحصاد وغيرها ، ومن الجلى أن يكون الرجال صادقاً فى كل ما ينظم لأنه يصور ما يحس به فى البيئة التى تربى بين أحضانها ، ولقد أوحى إليه تلك البيئة بنظم ما يشعر به فى أسلوب صادق رقت معانيه وتسلسلت قوافيه .

إن هذا الأدب العامى الذى ظهر فى الأزجال هو من تاريخ الأدب العربى المصرى لاحتوائه على كثير من حركات العقول ، فلاق إذاً لمؤرخ الأدب أن

يعرج على هذا النوع من الشعر العامى ليقف على تاريخ الادب العربى فى مصر .

وقال جبران خليل جبران :-

أن فى الموالى والزجل من الكتابات المستحدثة ، والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحىة ، والتى تملأ جرائدنا ومجلاتنا لبانت كباقة من الرياض بقرب راييه من الحطب وكسرب من الصبايا الرقصات المترعات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة .

والنديم كان إمام الزجالين فى عصره بلا منازع . وقال كثيرأ من الزجل ، ولكن لم يصلنا منه إلا الذمء ، مما نثر فى صحفه ، والقليل الذى وصلنا ، يفيض شاعرية ويأتى على أكثر ما وصل إليه فن الزجل من معان وأخيلة ، وأغراض اجتماعية واضحة جليلة .

ولقد ساعدت أزجاله الرائعة فى السمو بأفكار العامة وارتفاع الذوق الادبى بين الجماهير وتهذيب اللهجة العامية ، ولقد ترنم الشعب بكثير من أزجاله ولكن فيه الطويل ورهبة الناس من الإتيان بذكره ، ساعدا على نسيان الناس لهذه الأزجال وبالتالى فقدان أثرها ، ولم يهتم النديم بعد عودته من منفاه الطويل بجمعها لانه كان مشغولا بنشاطه الصحفى بمجلة الاستاذ .

وما وصلنا من أزجاله من قطع صغيرة ، قالها فى أغراض اجتماعية ، تلقى ضوءأ على فنه الزجلى بصفة عامة ، ولا جدال فى أن عدم وصولنا بمجموعة كبيره من أزجاله قد عطل مهمة درس هذا الفن الهام من فنون النديم الادبية وحرماننا لذة الاستمتاع بما وفرت به من معان رائعة وألفاظ رقيقة وسبك جميل ، تحدث الشعب عنها فى أيام شهرته ، وطبقت الآفاق ، وعد السابق المجلى فى هذا الميدان فى أيامه .

وكانت له أزجال غنائية ، يغنيها العامة وترددها مجالس الأناض والطرز
وليس أدل على ذلك من الحادث الذى أتيناها فى موضع سابق ، عن تعرف
شاهين باشا كنج به فى طنطا ، وكان ذلك بسبب سماعه قطعة غنائية غناها
عامل صغير بصوت رخيم فلما طرب لها الباشا واستعذب فيها الشعرى ، سأل
عن واضعها فقيل له : إنها من شعر عبد الله النديم فأمر باستدعائه وبدأت
العلاقات بينهما . وليس من شك أن أزجال النديم ترجمت عن كل الاتجاهات
الاجتماعية والسياسية فى عهده ، وكانت وسيلة من وسائله فى تعليم الشعب
وترقية ذوقه الأدبى واللغوى كما كانت مرآة العصر الذى نشأ فيه .

ومن أزجاله المشهورة :

أشكو لإليك أخزانى	بل هجرانى	من أهيف صادنى نبلة
أهيف بنظره فى خده	خدنى عبده	وجت سقامى تشهد له
وأدمعى نزلت تجرى	تنظر صدرى	رأت فؤادى يبرقص له
قالت لو أتلقت عيونى	قال سبيونى	سيد الملاح يعرف شغله
ما دمت أنى فى رقه	ياخذ حده	وإن مال لقتلى من أصله
أنا نديم ولا أكره	الله أكبر	العشق ما ينكر فضله
العشق تريق الأرواح	ويا الأشباح	ونا الذى طاب له نهله
ما يعرف العشق الاجلاف	ياهل الأنصاف	ما للعذول يكتر عذله
عاقل رأى مجنون يشرب	حتى يطرب	فراح شعوره مع عقله
ومال لعذلى يتفرج	بل يدرج	للعشق لما حان قتله
ظن الغرام قصعة قتله	فوقها حتة	من لحم قد طاب له أكله
لما رآه سلب الألباب	خاف الأسباب	وراح يعضعض فى نعله
وصرت وحدى متهى	أفضل أغنى	للحب أن شخشيخ حجله

— ١٣٦ —

أرعى النجوم والنار تكوى قلبي المشوى والوجد كتفى بميله
قد بعث روحى للفتان من غير أثمان وبعث فلكى من أجله
إلى أن قال

أخذت حبيب قلبي النخوة بعد القسوة وجا يغازلنى بدله
خطر ولكن فى قلبي بهجة لى وجاد لمسكينو بوصله
من فرحتى هرولت أبكى من غير ماشكى والدمع من كثرة وبلة
محركت قلبو الرحمة من دى الفخمة فجاييا سمينو وفله
فقلت أحيت العانى يا إنسانى الله يجازيك بفضلـه
وكان ما يرجو للعاشق غير الفاسق والسـر لا يـحسن نقله

ومن أزجاله الرائعة ما نشره فى صحيفة التنكيت والتبكيت فى العدد الصادر
فى ١٨٨١/٨/٧ بعنوان (سهل زجل عال) وفيه يتحدث عن الحالة الاقتصادية
واستئثار الأجانب بأموال الأعيان ، وضياع أموالهم فى العبت والموبات ،
وفيه ينعى على ضياع الأخلاق وانحدار الأغنياء إلى ما يحطم رجولتهم
ويقضى بهم إلى سوء المصير :

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان معاه ولاحق الدخان
شرم برم حالى تعبان

يا ما نصحتك يا بنجر وقلت لك إوعا تفنجر
فضلت تسكر واتفنجر بما صبح بيتك خربان
شرم برم حالى تعبان

الحق عندك ياخويه يلى طليت وشك بويه
ولبست سروال بأويه ومشيت تقلد لى النسوان
شرم برم حالى تعبان

— ٢٣٧ —

كانت عزايك مشدودة وسط الرجال المعدودة
أسميت وأمك مسعودة تدب رجالك والأوطان
شرم برم حالى تعبان

فت العدى وبصار البيت بالجنبرى والكستليت
فين الردة وفطير الزيت والجلوبين أكل الغيطان
شرم برم حالى تعبان

فين الزعابط واللبدة جا للعويل مناهيده
مايفتكراهات ده وشيل ده تحت الكراييج فى الديوان
شرم برم حالى تعبان

بعنا العمامة بالطربوش والعري بالشوب المنقوش
صبحت بلادنا للبخشوش مورد وصانعها ظمآن
شرم برم حالى تعبان

فضك من البيت والأوضة وخد نصيحة عال موضة
يصبح بها بيتك روضة وتنام بها خمران سكران
شرم برم حالى تعبان

إن كان بك تسير خليك نضيف نا تف داير
وطف على الناس بالداير يعظموك كل الجدعان
شرم برم حالى تعبان

إوعا نفوت دى الكاريا هباب وتمشى ماسك لك فى كتاب
يستهبوك كل الاحباب وبعد عزك دا تنهان
شرم برم حالى تعبان

أحسن ده فن بتاع مساكين سهرروا الليالى فيه وستين

— ٢٤٨ —

وحصلوا منه الثمين لكن رماهم في الخمران

شرم برم حالى تعبان

إن جئت مادم بقصائد يستحضروا لك بجزايد

وإن كان لهم بعض عوايد يقلعوك حتى القفطان

شرم برم حالى تعبان

وإن كنت شاعر أو منشى قالوا يا شيخ فضك وامشى

داحنا كلامنا فى المحشى والا طيخ البيديجان

شرم برم حالى تعبان

وإن كنت حرفى أو نحوى والعلم فى ذهنك محوى

قالوا أانا بيوز ملوى يقول لنا عمر وزيدان

شرم برم حالى تعبان

وإن كنت عالم متفقه قالوا أانا الموت حقه

دلوقت يمك فى الحققة ويدور يخط فى الحيطان

شرم برم حالى تعبان

وإن كنت صانع متقن قالوا أخينا دا اجن

وبعد ما كان بيدندن صبح يقول شغلى ألوان

شرم برم حالى تعبان

شوف دى الجباله ياسيدنا الى جليساها بأيدينا

حتى صبحنا يوم عيدنا تسمع بلادنا تنشدنا

شرم برم حالى تعبان

ومن الازجال التى ارتجلها فى المساجلة الشهيرة التى نظمها شاهين باشا

كنج مفتش الوجه البحرى بينه وبين كبار الرجالين فى طنطا وتفوق فيها

النديم نأتى بجزء منها فيما يلى :

— ٢٣٩ —

الشيخ أول كلامي حمد الله
 ماذا تريد يا عبد الله
 النديم أنى أريد أحمد ربى
 وإن كنت تطمع فى أدبى
 الشيخ دعنا من الأدب المشهور
 ندخل على اسيا دنا بسرور
 النديم هات احترمك فى البحر وشوف
 دلوقت تسمع يا متحوف
 ثم الصلاة على الهادى
 قدام أميرنا واسيا دى
 بعد الصلاة على المختار
 اسمعك حسن الإشعار
 وادخل بنا باب الدعكة
 ونعيم الخير والبركة
 فن النديم ولا فنك
 أحسن أدب وحياة دقنك

الشيخ هات مدح فى الحضرة على قد : —

تعمل عما يلك يا منصان
 يا صاحب الحجل الرنان
 ماذا تريد من دى الوطان
 أحسن أنا من خمر الحان
 وإن كنت تسمع يا بو الخير
 النديم المجلس العالى محمود
 واليوم دا يوم مشهود
 شاهين باشا فيه موجود
 أما المدير هذا المسعود
 فإنه فى الناس معدود
 يا أبو الشفيعه العسليه
 ودى الأمور الخيليه
 قل فى واسعف
 قصدى أرشف
 يبقى الوصال الدواليه
 فيه الأماره والأعيان
 خلعت عليه حلة إحسان
 حظو أزهر
 جعفر مظهر
 من ضمن أرباب العرفان

إلى أن قال : —

اسمع كلام نديم من طيه كل سرور واعقل نصيحة خبير
 يدعوك للعرفان

واستمر النديم يبحث بزجله على النحو المذكور ، حتى أخذ بفنون الزجل
 على أنواعه وهو فى الحلقة السابق المجل ١١ فصفق الباشا والحاضرون ، ثم عاد

النديم للزجل المعتاد واستمر ثلاث ساعات (بما يطول ذكره) وكان أحد الحاضرين وهو الشيخ رمضان يكتب ما يتلى عليه من زجل ، فجمع خمسة كراسات منها . وتعد هذه المساجلة الزجلية من أروع الاحتفالات التي برز فيها نجم النديم كأكبر زجال شعبي في عهده ، وقد جاء فيها :

(دور)

مجلس عليه حسن مهابة	كأنه مجلس سلطان
والحاضرين أهل نجا به	وينقدوا قول الإنسان
أترك بقي شرب الغاية	وأشدد نسمع
وإن كان تغنى برأ به	تطرب بجمع
حسن الكلام مثل سخا به	تمطر على شجر البستان

الشيخ :

القصد منك يا نديمنا	تعمل زجل هيله يسله
إلا انت دلوقت غريمنا	قصدي أحدفك بالقليلة
وإن كنت تجهل تقريمنا	أسأل عنا
أوما تعيب في تكليمنا	واحذر منا
أحسن أوديك لعظيمنا	يشيلك ألفين شيلة

النديم :

اتنا صغار لسه نونو	في الزجل منثش مجدع
اتبع نديم تلقى فنونو	تأنيك من المعنى الأبدع
أما عظمك وجنونو	ياكل نفسه
وإن كان يعارض بمجونو	يطلب عكسه
لأن فنى وشجونو	لكل متغنتظ يردع

الشيخ :

النديم : اسمع كلام نديم من طبعه كل سرور واعقل نصيحة حر

— ٢٤١ —

يدعوك للعرفان

لا تستخف بتخصم لو كان من أدهى الطيور وأصفح فكل صفوح

يعلو على الأعيان

وأخش اللثيم دوماً فاللؤم داع للشرور واحفظ مودة حر

في عهده ماخان

لا تصطحب بوضيع ينزلك عن سرج الظهور وأصحب أنخي شريفاً

واطلب رضا الإخوان

وانزل بيت كريم إن كنت ضيفاً في العجور واسمع سؤال فقير

أودى به الحرمان

هذه نصيحة حر قد جرب الدهر الجسور أن كان يعجب هذا

أولا نثؤز تبيان

فالبحر بحر لآلى أن قلدت زانت النجور والفكر فكر ذكى

لا يعرف النسيان

ثم قال: نثر مثلى في بيانه والغنى يفخر بماله

والأدب أحسن صفاتى فالذكى حسنو كاله

واللبيب يظهر بعبسو والغلام يجده جماله

كل قول المرء يغنى وغير محمود المآثر

ثم قال: الفلوس حظ المفلس والجعيدى والحراى

والعلوم روض الأكابر لطفها في العقل نائى

والمضاحك والمساخر ما لها دخل في كلامى

كل مضحك بين قومو مستخرة للمجد خاسر

ثم قال: كل مافى السكيس يفارق يا داود اسمع وفكر

والفتخار والمجد كلو فى العلوم فاطلب وبكر

(١٦ - عبد الله النديم)

- ٢٤٣ -

وإن تسكن شيخ حق عالم فامش بين الناس وذکر
تیمی کل الناس بعلمک بل ترى المجموع شاكر
ثم قال :

من يوم ما عرفتك والفؤاد وطان في حسنك الزاهي النصير
والخذ من دمع العين ريان تجرى عليه كالغدير
أبيت ليلي بالأرق سهران بين السكراسي والسيرير
وكل وردی فی الدجی آه آه من يستطيع من يصير

* * *

قلبي المعذب في هيب الخدود والوجه في الاحشا جحيم
بالله من أورك باب الصدود لقتل مضناك العديم
أين الوفا ياميتي بالوعود ورقة القلب الرحيم
أواه من ناب الجفا أواه لو يعشق الريم يفسد

* * *

قد كان في سعد السعود خدام لما التقينا في الطريق
وقلت بالحاجب أروح قدام وأنت ورايا يا صديق
قصرت انظر للقوام القوام وعادل القد الرشيق
حتى ملكك الروح وأرواحه لو يرجع اليوم ينظر

وقد استخدم النديم أزجاله في نقد الرذائل والخروج على التقاليد الدينية
ونورد هنا نموذجاً منها :

اسمع حكاية تهدى الشوق لابن النوق وتعجب الانس والجنان
رأيت جدع في أيده مكبة زى القبة فقلت أهلا بالمنصان
مديت أيدي أكشفها لأجل أعرفها قال لي ارتجع يا شيخ رسلان
فقلت أنا بدى انفرج حد محرج قال لي تعالى في البستان
طاوعت شورته ومشينا على رجلينا حتى رأينا غصن البان

— ٢٤٣ —

دخل يهرول قدامى	مع الاقدام	ولنا مداه أجرى وتعبان
رأيت جماعة فى قاعة	تلك الساعة	جملة شيوخ وياشبان
والكاس على إخواننا داي	والواد جابر	يسقى ويفرق دخان
قلت السلام يا أهل الخانة	من شيخ بانه	قالوا السلام يا شيخ الحان
قرب تعالى وخذ لك كاس	زى الناس	فقلت أنا عطشان وجعان
نادوا وقالوا للخادم	قوم يا راسم	وهات لنا لحمة خرفان
قام الولد زى العفريت	ويا بخيت	وجاب طعام أشكال والوان
قالوا اتفضل يا شيخنا	قوم جابرنا	وكل معانا يا انسان
فقلت أنا يا ناس صايم	الله دايم	أنتم تركتم للأديان
قالوا صيام إيه ياسيدنا	ليدك يايدنا	دا اليوم تسعنا شر شعبان
فقلت شعبان يا حسرة	فانت عشرة	وستة أيام من رمضان
قالوا غلطنا فى حسابنا	بين أحبابنا	نفطرو بقضى طول الزمان
فقلت أتم سكرانين	يا مجانين	خرقت مدافعنا الأذان
قالوا بنحسبها تعليم	أو تكريم	لضيف أمير أو لسلطان
قلت اختشوا وارمو الكاسات	يكفى حسرات	ليه دى الهلاك وليه دى الخسران
ضحكم وقالوا خسرنا إيه	سيدنا البيه	صار له عشر أيام عيان
واحنا جينا له بنسليه	كاس التثنيه	من الدكاتره أهل العرفان
قلت الدكاتره حكموا الآن	ع العيان	وليه فطر علان وفلان
قالوا احنا موضه الأفرنكه	روح للخانكه	للفلاحين أهل الإيمان
ضحكت أوربا على عقولكم	لجل تطولكم	بالخر والقول والنسوان
شوفوا الخرجى صبح صايم	من غير لايم	وانتم صبحتم فى عصيان
صلوا وصوموا ياسيادنا	مثل أجدادنا	واستغفروا المولى الديان
الله بفضلله يهديكم	كى ينجيكم	يوم تغنموا منه الغفران
قوموا نصلى أوقاتنا	مثل إخواننا	ونعبد المولى الرحمن

ضحكت على عقولنا الخواجات	والدين مات	والكل يتهاون غفلان
الى يقسّد أوربى	فى دى الشرب	ما يقلده فى حب الأوطان
عجب عجب حتى التخريف	وصل الريف	والخزرة تشرب على الكيمان
تلقي العمدة قبل الإمساك	شربو الكنيك	فانظر صيام من بات سكران
باعوا الغدادين للأروام	بالأوهام	وأصبح الوطن غلبان
من بعد ما كان دواره	قدام داره	صبح يخاف ياقي الضيفان
كان الخواجه خدامه	فى أيامه	والآن بيرعاه الخرفان
واليه صبح باع الألباس	فى حب الكاس	والبيت وساعته والغيطان
أما الأفندي بسلامته	قول ياندامته	صبح يشبع من الإخوان
وابن البلد دما تنسأهش	لما تمشى	تلقاه من البيره عيمان
اسأل بقى جرجى وبنى	مش تسألنى	تلقى الفلوس راحت اليونان
تلقى الفلوس فى إيطاليا	أو ألمانيا	والا فرنسا يانعسان
كانت بلادنا كالجنة	لأهل الرنة	صبحت لأهلها لومان
ياميت خسارة وندامة	والله غرامه	نبيع بكاس خمره الأوطان
فوقوا بقى يا ولاد اليوم	من دى النوم	إلا العزير منكم يهان
وتذهبوا يا أهل الحفلة	من دى الغفلة	وعضدوا نايب السلطان
هو الخديو ده سيدنا	ياخذ بيدنا	ويحفظ الدين والأوطان
الله يديم عزه ونصره	ويحفظ مصره	من كل عادى أو طمعان
يارب اصلح حالتنا	مع دولتنا	وتب على العاصى الغملان
ووفق الأمة للخير	وادفع للغير	واحسن ختامنا يارحم

ولعلنا نستطيع بعد هذا العرض ، أن نلاحظ تطور الفن الزجل عند
القديم ، فهو فى أول أمره ينشئ الزجل لغير ما غاية سوى إظهار براعته ،
فهو يرتجل الزجل ارتجالاً رداً على طائفة الأدبائية ويدور زجله حول

أغراض لا تخرج عن تحقير شأن منافسيه والمذبح في كبار القوم والحكام استنداراً لعطفهم وكسباً لوفدهم وعونهم ، ثم إذا فرغ من المديح والثناء اتجه إلى الموضوعات السهلة كضرب الأمثلة الشعبية أو التغنى بجمال الحسان والغزل بالأحباب ثم تحول بالزجل إلى عرض المشاكل الاجتماعية .

وفي الزجل الأخير يهدف إلى هدف فهو يقص قصة متماسكة في وحدة متناسقة ، يتحدث فيها عن المستهترين بتقاليد الدين ، المفطرين في الصيام دون حياء ، ويتهكم على الذين يعاقرون بنت الحان ، وهو أيضاً لا ينسى الغرب لأنه كان السبب فيما ابتلى به المصريون من تقليد الأجانب في الموبقات ، ويتحسر على الفلاح الذي أدمن الخمر ، فضاعت أطيانه وأصبح أجيراً لدى الأجنبي ثم يبحث الناس على الصحوة من تلك الغفلة ، طالباً منهم انقاذ البلاد بالالتفاف حول الخديو ليأخذ بأيديهم ويحفظ الدين والوطن ثم يدعو إلى الله أن يصلح الحال ويوفق الأمة إلى الخير .

النديم زعيم الخطابة في الشرق العربي :

مقدمة :

ليس يؤثر عن العرب في الجاهلية سوى خطب الكهان ، وكانت الخطابة دعروفة في ذلك الوقت ، يمارسها الرؤساء وذوو الرأي في القبائل ، للنشادة والاستفسار والدعوات الاجتماعية المختلفة ولكن آداب الجاهلية من شعر وخطابة عفا آثارها الإسلام ، لما كانت تحويه من نخوة جاهلية وإشارات عن شعائر وثنية .

ثم جاء الإسلام فخطب النبي كما خطب الخلفاء الراشدون ، ولم تكن الخطابة في ذلك العهد قاصرة على ذكر الموت والزهد والتحذير من الدنيا وزخرفها ، بل كانت تتضمن الحوادث وأخبار الأمة . . . وصارت خطبة الجمعة منذ ذلك الوقت من أركان الدين ، وكان القواد العسكريين يحضنون

بواسطتها على منازلة الأعداء ، واستمرت الخطابة في نهوض ونمو حتى عهد الحكم الأموي فظهرت الخطب السياسية ، وصار للخطابة شأن وفن يمارس ولما جاء العهد العباسي ، وهو في اعتقادنا سبب انحطاط شأن العرب . لنزوع الخلفاء نزعة دينية بحتة ، فصارت الخطب تنسخ نسخاً وتحفظ حفظاً ، فيفيض سببها غثاءة ، ويشبه أولها آخرها في قلة المعنى واتساق الفهاة .

ثم اجتاحت المغول الدول العربية ، ومحوها من الوجود إلا صورة أبقوها في الخلافة الإسلامية ، وحكموا الشعوب العربية من كرد وترك وأفغان وسائر الأمم الآسيوية ، وظلت الخطابة العربية على ما كانت عليه من انحطاط وضعف في آخر العهد العباسي ، لا يتعدى أثرها الجوامع والبيع ، حتى ظهر عبد الله النديم في أواخر القرن التاسع عشر فدخلت الخطابة بفضلها في طور جديد ، فانتعشت بعد خمول ، واستيقظت بعد سبات عميق ، حيث لم تشهد مصر منذ تاريخها الطويل خطيباً يداني النديم في بلاغته وفصاحته وقوة تعبيره وشدة تأثيره في الجماهير . فقد كان خطيباً مطبوعاً من الطراز الأول ، له مواهب خارقة من قوة التعبير وانطلاق النفس والبحر الفياض من المعاني واللغة وكانت له ملكات أخرى تقوى خطابته وتدعمها من شعر وأدب وإطلاع وافر في شتى العلوم السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد أعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعي العجب ، فما هو إلا أن يحرك لسانه حتى تتدفق الألفاظ وتنهل عليه المعاني ، فتأخذ باللب وتأسر القلب .

تملك ناصية القول ، وبلغ من قوة نفوذه إلى النفوس حداً أيقظ به شعور الأمة الوطنية ، ومهد للثورة العراقية ، ثم ساق بها الشعب إلى الحرب خلف الأحرار ، وألهب شعور الوطنيين ، فنفرو خفافاً وثقالاً ليجهادوا في سبيل الوطن .

وكان أول خطيب مصري يقف بين الحكام وقادة الرأي العام وأصحاب

السلطة والنفوذ ، ويخطب في الأماكن العامة ، ولقب « بخطيب الشرق ،
و « محامي الوطن » و « محي الوطنية » وأطلق على محافله الوطنية « سوق
عكاظ ، و « معرض باريس » .

كان الخطيب المقتدر الذي أوتي البيان الساحر القوى في سهولة ويسر ،
تندفق الالفاظ والعبارات من فمه كتدفق النهر ، تسرى في ثناياها معانيه قوية
كالنار ، نائرة صاخبة كالموج الهادر ، وحيناً هادئة رخية كالنسيم النديّة :

لقد خطب في كل مكان ، في المدرسة ، وفي الندى ، في القرية وفي المدينة ،
بين الأقطاب والقادة ، وبين الجماهير والدهماء ، خطب بين الناس في حفلات
أفراحهم وفي ماتمهم ، كان معبود الجماهير والأثير عندهم بكل حب وإعزاز .

وقد كانت رسالته الخطابية إبان الثورة العراقية بمثابة اللسان المعبر عن
سياسة وأهداف الثورة وبوقها العالي بل كان بمثابة وزير الدعاية للعراقيين .

ولو انفرد النديم بتلك الموهبة ، لكفاه أن يكون بها أحد أقطاب التاريخ ،
فليس العظيم هو الذي يفتح المدائن ، ويحرر الأمم ، ويرفع شأن وطنه
بالسيف والمدفع ، بل أن هناك رجلاً أعظم ، ذلك هو الذي يفتح القلوب
ويرسم عليها ما يشاء من ضروب الوطنية ونفحات حبة الأوطان .

فالرجل الذي يستطيع بقلمه ولسانه أن يكون قلوباً حساسة ، تدرك
ماهية حب الوطن ، وتضحى بكل نفيس في نصرته فهو في مرتبة أجل وأسمى
من غيره ، وهو الخليق بأن تسيّر بعظمته الأمثال .

إن الذي يعتمد على القلم واللسان ، فيملي عليهما ما وهبه الله من علم وبيان ،
ويسحر بهما القلوب فيجمعها في قبضته ليصوغ منها أمة حية راقية فهو أعظم
مشيد للجدد فوق أمثن الأسس ، وكيف لا يكون عظيماً من يملك القلوب
وهذه القلوب هي الحياة مجتمعة !!

كان النديم عظيماً لأنه حمل قلباً كبيراً ، وفؤاداً حساساً ، امتلاً بالتفاني في إعزاز البلاد والتضحية في سبيلها ، فكان براً بالفقراء واليتامى من نبيها ، داعياً الأغنياء والموسرين للإنفاق في سبيل تعليمهم وتثقيف عقولهم وتذليل أسباب الرقي في حياتهم . والعظيم مع هذا القلب الرحيم بالمساكين وأبناء السبيل ، يتحتم عليه أن يكون شديد البطش بالخائنين والمنافقين ، فكان النديم كذلك حرباً على أعداء الوطن ، ولسم أثار النفوس عليهم بخطابته الملهمة .

أعدت العناية عبد الله النديم لئليكون أول خطيب في مصر فحسب بل في الشرق العربي كله ، ليعيد للخطابة العربية مكانتها الأولى ، وأثرها في رقي الشعوب ونهضتها ، فكان أحسن مثال لمن جاء بعده من الخطباء المشاهير في تاريخ مصر الحديث .

كان ذا لسان عالي ، وبيان واضح وبرهان ساطع ، وصوت جهورى وعبارة فصيحة ، فاستطاع أن يبلغ من التأثير في سامعيه في ساعة مالم يبلغه قلم سيال في أشهر وأعوام ١١ وأسمع العالم صوت أول خطيب مصري ينادى بالحرية والمبادئ الدستورية ، وليس أدل على مقدرته الخطابية ، واستعداده العجيب ، من وقوفه في المجلس الواحد عدة مرات ، متحدثاً في يسر وقوة ، دون لجاجة ، في معان مختلفة ومناسبات متنوعة ، فلا تخمد جذوته ، ولا تخف حدته ، ولا تهدأ قوته ، حتى لكأنك تظن أنه وصل ليله بنهاره في تحصيل خطبه ، وحفظ معانيها ، واستيعاب موضوعاتها .

فحين وقع الخديو توفيق المرسوم بصدور الدستور في ١٨٨٢/٢/٧ ، وعرض رسمياً على نواب الأمة في ١٨٨٢/٢/٨ ، أقامت الأمة ممثلة في نوابها حفلات الاحتجاج لهذه المناسبة فكانت جميع الحفلات بدون استثناء مجالا للخطابة النديم ، ومن أهم هذه الحفلات ، الحفلة التي أقامتها جمعية المقاصد الخيرية

في ١٣/٢/١٨٨٢ وكانت حفلة رائعة ، جمعت كل مظاهر الفخامة ، حضرها محمود سامي البارودي باشا وعرابي باشا وبقية الوزراء وعدد جم من كبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان ، فازدحم بهم المكان ، ولما اكتمل جمعهم ، نهض خطيب الثورة عبد الله النديم وافتتح الاجتماع بقصيدة كان لها وقع جميل في النفوس ، ثم شكر الحاضرين على إجاباتهم الدعوة واحتفالهم بالتصديق على لائحة النواب (الدستور) ثم دعا لإبراهيم افندي اللقاني إلى الخطابة ، فألقى خطبة أبان فيها الفرق بين ما كانت عليه البلاد من الاستبداد ، وما صارت إليه من الحرية والشورى ، وبعد أن أتم الخطبة قام بعده عبد الله النديم وألقى على الخطيب وعقب على كلامه مبينا فضل العهد الجديد على العهد الماضي ، ثم دعا إلى الخطابة ، مصطفى افندي ماهر ، فتكلم بما أملتة روح الشباب ، وحث على الاجتهاد في تحصيل العلوم والفنون ، واستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلي ، يستغنى به الأهليون عن الاقتراض من المرابين بالفوائد ، وانتقل من ذلك إلى النصيح بالاتحاد بين جميع طوائف الأمة ، واتتلاف الكلمة .

وبعد أن انتهى من كلمته نهض النديم وعقب عليه بالإفاضة في بيان أهمية التربية الابتدائية والوجوه اللائقة فيها ثم دعا إلى الخطابة الشيخ محمد عبده خطيب الجمعية الرسمى ، وكان وقتئذ رئيس تحرير الوقائع المصرية ، فألقى خطبة ، ضافيه أبان فيها مزايا الحكومة الدستورية ، ثم دعا النديم أديب افندي اسحاق الكاتب الأول لمجلس النواب ، فقام وألقى خطبه عبر فيها عن شعور النواب وتضامنهم مع الوزراء في كل ما يجلب الفخر للبلاد ، وبعد أن ألقى كلمته ، جلس الخطباء فترة يستريحون من تعب الخطابة ، وأخذ الحاضرون يتذكرون فيما سمعوه من خطب . وحصل حوار بين النديم وبعض الحاضرين فيما ذكر من أساليب التعليم ، ثم انصرف المدعوون ، في غاية السرور والغبطة .

وهذا الاجتماع يعطينا فكرة واضحة عن مقدرة النديم الخطائية وقدرته على الوقوف في المحفل الواحد خمسة مرات ، وإلقاء خمس خطب ، في موضوعات مختلفة .

وفي ١٨٨٢/٢/١٩ أقام النائبان أحمد محمود وإبراهيم الوكيل حفلة أخرى ابتهاجا بالدستور ، حضرها الوزراء والنواب ، وخطب فيها لفيث من النواب والأدباء ، وكان النديم هو الخطيب الأول في هذه الحفلة فبعد ماخطب أديب استحق أعقبه النديم في الحديث عن وجوب التمسك بالحقوق النيابية ورعاية الواجب لكل فرد واجتناب التقصير وملاحظة قيم النفوس وأقدارها ، ثم تحدث — الطالب فتحنى زكى فأعقبه النديم ، ثم إبراهيم اللقاني فأعقبه النديم ثم فتح الله صبرى ثم الإمام محمد عبده ، ثم أعقبه النديم وتلا عدة آيات من القرآن الشريف وشرح كل آية منها شرحاً بليغاً ، بما يناسب الظروف القائمة ، داعياً التمسك بما تحمله الآية من معان وبيان ، وما تدل عليه من حكم ، ثم حث على رعاية الذمة وحفظ العهود وحسن المعاشرة وبجاملة الاجانب وملاينتهم والسير معهم بما يقتضيه قانون الاخوة الإنسانية ثم قام أحد الضباط وارتجل خطاباً بليغاً وحث فيه على التمسك بخلق الشجاعة والاتحاد وقام بعده النديم وشرح عبارته مؤيداً لها بقصيدة من نظمته ، كان لها أجمل الموقع في النفوس .

وفي ١٨٨٢/٢/٢٢ أقام أحمد بك أباطة حفلة في منزله بالقاهرة ابتهاجا بالدستور ودعاً إليها النواب والوزراء والعظماء وقد افتتحها عبد الله النديم بخطبة حث فيها على وجوب رعاية صلات الجوار والمعاشرة للأجناس بكامل الملاينه والمحبة لأنهم أخوة في الإنسانية والكل يرجع إلى أصل واحد ثم قام الشيخ محمد عبده وألقى خطاباً بليغاً بين فيه مزايا الحكومة الدستورية ونوه بفضل المساواة والحرية وقام بعده عبد الله النديم خطباً حاثاً على توسيع

دائرة الصناعة وتكبير مداها والتفنن فيها لتكني البلاد وتكسب أبناءها ثمارها وبركات أرضها ، وأفرغ كل ذلك في قالب بديع فكان لخطابه الوقع الحسن في نفوس السامعين ، ثم قام إبراهيم اللقاني ، وخطب بفضل هذه الحفلات ثم قام النديم وعلق على خطبه ثم قام فتح الله صبرى ، ثم أعقبه عبد الله النديم وتكلم عن وجوب مساعدة الفلاح لشدة حاجته إلى وجوه الاصلاح المختلفة ، ودعا الاغنياء إلى الاخذ بيده وبذل الجهود لانقاذه من الديون التى أثقلت كاهله وهنا ذكر منقبة حسنة لاحد الأعيان فقال انه أدى عن أهل بلده مبلغا قدره خمسة آلاف جنية ، فلم يبق أحد مديونا لأجنبي .

ثم قام احد الجنود فتلا خطابا عن حفظ الجوار ورعاية الذمم ، فقام بعده النديم معلقا على ما جاء فى خطاب الجندى ، منتقلا الى موضوعات شتى وأقام أحمد بك يكن احتفالا فى بيت منصور باشا يكن ، حضره العظماء والوزراء وكان النديم أهم خطباء هذا الحفل ، كذلك اقام محمد بك طاهر حفلة دعا إليها الوزراء فكان النديم أحد الخطباء الميامين ، وأقام شبان الاسكندرية حفلة ابتهاج بالشعر دعوا إليها النديم فقدم من العاصمة وحضر الحفلة وخطب فيها .

وقد تحدثت جريدة الوقائع المصرية عن جميع هذه الحفلات وأطنبت فى وصفها . وأنت على كل ما قاله الخطباء فيها ، ونحن نخلص منها بفكرة واضحة عن أثر النديم الكبير فى عهد الثورة العرابية ، وكيف كان خطيباً مشهوداً له ، يدعوه العظماء والكبراء ليكون الخطيب المجلى ، والمتكلم الاول فى حفلاتهم ، وقد تكلم عن الموضوعات الحيوية التى تمس كبريات الأمور ونحن نلاحظ منها النقاط الهامة الآتية :

١ - أنه كان يفتتح الحفلات بكلمة وطنية ثم يقدم الخطباء ويتحدث معقباً بعد كل خطيب ، بما يتصل بأقواله موضحاً لها من كافة الزوايا .

٢ - أن معظم خطباء هذه الحفلات بما فيهم عبد الله النديم من تلاميذ

جمال الذين الافغانى . واستمدت هذه الخطب طابعها من عبارات وأسلوب الافغانى ، وهذا يدل على الاثر الكبير الذى تركه الافغانى فى مصر .

٣ - أهم الموضوعات التى كانت محور خطب النديم تتلخص فيما يأتى :
(ا) الدستور ، وأسلوب الحكم الدستورى ومزاياه وأسس الحياة النيابية والحقوق والواجبات المكلف بها المواطن المصرى .

(ب) السلوك الوطنى السليم مع الأجانب الذين يعيشون بالبلاد ووجوب حسن معاملتهم ومعاشرتهم وحفظ العهود .

(ج) التسامح الدينى وتجنب التعصب بين المسلمين وغير المسلمين ، وقدم سبق جميع الخطباء المصريين فى المناداة بتأكيد العاطفة الإنسانية ، أى احترام الإنسان لأخيه الإنسان أيا كان دينه أو جنسيته أو وطنيته والعاطفة الإنسانية تفوق العاطفتين الدينية والوطنية فى الاتساع .

(د) تحدث عن الصناعة ووجوب تحسينها وتقديمها وزيادة نشاطها .

(هـ) تحدث عن الإصلاح الريفى وتحسين أحوال الفلاح المصرى من النواحي الاجتماعية والاقتصادية .

وهكذا كان النديم أول خطيب فى مصر ، سير الخطابة فى شتى النواحي من اقتصاديه وسياسية واجتماعية وقومية ، وأصبح بحق رائد الخطابة فى الشرق ، فقد استحدث أغراضا جديدة وفتح لها آفاقا متسعة ، ومهد سبيلها لمن جاء بعده من الزعماء الوطنيين أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . الخ .

وحينما سافر أحمد عرابى فى ٦ - ١٠ - ١٨٨١ إلى الشرقية وكان برفقته النديم ، كان يخطب فى الجاهير فى كل محطة يقف عندها القطار ، شارحا وموضحا أفكار رجال الثورة مؤيدا أقوال عرابى .

أثر النديم في الخطابة العربية

الخطابة السياسية :

كان أول رائد للخطابة السياسية في العصر الحديث ، وعلى منواله ظهر أعظم خطيب سياسى في الشرق العربى في النصف الأول من هذا القرن وهو مصطفى كامل ، وبدأ النديم خطابه السياسية في الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى التى أنشئت عام ١٨٧٨ وكانت تعقد بها حلقة خطابية مسائية بدارها ، ويتحدث فيها الخطباء عن شتى المشاكل السياسية والاجتماعية والأدبية ، وقد ذكرنا عنها آنفاً في معرض الحديث عن نشر التعليم الأهلئ وإنشاء المدارس .

الخطابة المدرسية :

كان النديم أول مدرس في الشرق العربى اعتمد على تدريب الطلاب الصغار في المدرسة الابتدائية على الخطابة كوسيلة تربوية صالحة لتكوين المواطن الصالح في المستقبل ، فهمي تدرب على الاعتداد بالنفس والثقة بها ، والشجاعة في إعلان الرأئ ، في النشء ، وكان أول من أنشأ الجماعات المدرسية الخطابية ، وقد استعان بطليته في سبيل نشر الوعى القومئ أثناء الثورة العراقية .

الخطابة المنبرية :

كانت الخطابة منذ نهاية العهد الأموى إلى عهده قاصرة على المساجد وقد اتخذت لها ألواناً باهتة ، فأكثرها يتلى من صور محفوظة لا تحوى إلا معانى الزهد والتحذير من الدنيا وذكر الموت والتهديد بالعقاب في الآخرة ولا تعنى بشئ من حق المواطن في مساواة .حكامه في ظلمهم ومساوئهم ، غير مهتمة بالأسس الاجتماعية السليمة التى نادى بها الدين وشرعتها الشريعة السماوية السمحاء فدعا النديم إلى إصلاح الخطابة المنبرية ، وذكر أن ضعفها

وانحطاطها من أسباب ضعف الایم الشرقیة واستکانتها ، لاقتصارها فی المساجد علی هذا الوضع الذی لا یمس الحیاة الواقعیة بأی حال من الأحوال .
فدعا إلی وجوب مجاراتها الاوضاع القائمة والخروج بها عن الجمود التقليدی ثم وضع عدة خطب منبریة (علی سبیل المثال) : آیه فی الروعة وجلال المعنی ، ودعا وزارة الاوقاف إلی الاستعانة به فی وضع خطب الجمعة ، وطبعها ونشرها بین الوعاظ للإسترشاد بها ، وهو یرى ان هذه الخطب یمجب أن تسجل المعانی الآتیة :

- ١ - الحث علی المحافظة علی حقوق البلاد .
- ٢ - النہی عن الظلم .
- ٣ - الدعوة إلی التسامح الدینی والاتحاد الوطنی بین جمیع المواطنين .
- علی اختلاف أديانهم فی سبیل المصلحة العليا للوطن .
- ٤ - الالتفاف حول الخدیو .
- ٥ - معاملة الأجانب والنازحین بالحسنى ، والتحذیر من إتيان عمل یؤدى إلی تکدير العلاقات وتدخل الاجانب .
- ومن ذکریات آثار النديم فی مجال النهضة الخطابیة فی عهد الثورة العرابیة ما کتبه أحمد شفیق باشا فی کتابه « مذکرات نصف قرن » .
- وانقلبت مصر مسرحا للخطابة ، فی کل مجتمعا وناد ، حتی فی المساجد ولم یبق مجلس للسمر أو احتفال بعرس أو غیره إلا اقتحمه الخطباء واحتلوا منصة المغنین .

وکثیرا ما کان النديم أو الخطیب یصطحب معه بعض الطلبة من المدارس ، یقدم أحدهم للجمع لیخطب فیهم إلی جانبه ، وینبری الطالب مشیرا فی الحاضرين القوة والحیة ، وقد شاهدت عبد الله النديم یقدم فتحی زغلول الطلب بمدرسة الحقوق ایخطب ، وقدم مره أخرى فی إحدى الحفلات الطالب مصطفى ماهر .

نموذج من خطب السيد عبد الله التديم

الخطبة التي ألقاها توديعاً للزعيم أحمد عرابي يوم سفره بالوينة إلى رأس الوادي بالشرقية يوم ٦ / ١٠ / ١٨٨١ :
سادتي وإخواني وآبائي :

خبروني عهد محفلنا المشترك على الألوف المؤلفة من الناس ، في أي أرض هو ، وبمن احتفل ؟ أنحن في ساحات باريس تحتفل بخطيبها السياسي الاريب أم نحن في لندره تزدحم على مجلس الشورى تسمع ما يقال فيه أم هذه أسود عنمت الفريسه ونحن ننظر إليها ، أم أنتم نجوم حول بدر في السماء ، وأنا أتصور لنا على ظهر الكرة ، أم هذه العصبية الوطنية جاءت لتوديع الجيوش المصرية ومطلع الحرية أحمد بك عرابي (تصفيق حاد واستحسان) . .

أروني أمة بلغت مناها بغير العلم أوحد الياناي

قضت علينا الشقوة بوجودها في زمن الخسف ومدة الاستعباد ، فرأينا المشنوق من أهلنا والمصلوب والمجروح والمذبوح والمخروق ، والموضوع على الخازوق والمشرد والمغرب والمنفى والمسجون ، والمنكوب والمسلوب ، ولا ذنب لنا في هذا كله إلا المحافظة على البلاد .

ثم رأينا الدور الثاني فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق وودعنا المنفى ولاجناية لهؤلاء إلا المطالبة بحقوق الأمة .

ثم وصلنا إلى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبي وإكرامه وتكثير العطية وتسليمه أزمة الكثير من أشغالنا ، وإذلال الوطني ، وإضاعة حقه وتركه في زوايا الإهمال . فوقفنا عند هذا الحد وسعينا في طريق الاتحاد وجمع القلوب وقلنا لا تطبق بمثل هذه الأصوات إلا في خلوة بصوت الهمس ، حتى أدركتنا العناية الإلهية بإشراق شمس التوفيق علينا فرفعنا

بها الصوت إلى حيث يسمع من تصغ أذنه على فم المتكلم ، وما زلنا مجدين
في هذا الطريق الخطر حتى أعربت الجيوش عن ضمايرنا ، وترجمت الحمية
عبارتنا ، ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق الأمة بين يدي أميرنا الجليل ،
فأنعم وتفضل ، ومن وتفضل وتسكرم ، وأعتق من أرق وحرر ، فاستأسر
النفوس بانعامه وتملك القلوب باكرامه فكأننا الآن ننادى بالسنتنا بصوت
يسمعه القاصي والداني : يموت الاستبداد ، وتعيش الحرية ، يعدم المستبد
ويحيا توفيق الأول ، يهلك الجبان ويبقى جيش الحمية .

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

وقد أخذتم بالحزم وتمسكتم بحبل الاتحاد حتى رفعتم إلى المقام الأعلى
واعلموا أن مثلنا مثل من كان فى بئر لا سلم لها ، فابتدأ يحفر السلم بعناء
وجهد ، وكلما حنر طاقة وضع قدميه عليها ، وارتقى بغيرها حتى وصل فم
البئر بعد اليأس من الحياة . ورأى شجرة تدلت أغصانها ، وقد خيم فيها
العنكبوت فان تعلق بحبل العنكب هوى وتهشم ، وكانت النكسة شراً من
الداء ، وإن تعلق بالأغصان نجا وخرج من ذلك المضيق .

ونحن إن شاء الله سنقبض بالحزم والهدوء على أغصان شجرة أصلها ثابت
وفرعها فى السماء ، تلك وحدة الاتحاد الوطنى والجد فى طريق التقدم ومنع
التهور والتظاهر بما يجلب علينا السرور . وليست الحرية تتبع الشهوات
البهيمية والأغراض الذاتية ، وإنما هى معرفة للحقوق والواجبات ، والسير
تحت لواء الإنسانية بالتؤدة والسكينة .

فما الفخر فى جمع الجيوش وإنما نفار الفتى تأليف قلب العساكر

ونحن الآن لسنا فى أرض مصر لا يرانا إلا أهلنا ، ولا يعرفنا إلا
نزلنا ، بل نحن فى رموس السياسيين فى سائر الممالك ، تقلبنا الأفكار

على أ كف السياسة وتشخص أعمالنا في ملاعب العقول ، ومن سكن رموس
العظماء وأشغل الملوك بعمله كان حقيقا بنظر العواقب ، حذراً من سوء
الطوارئ ، معداً لكل سؤال جواباً ، ولكل مناوش قوة . لا ينام إلا
مقياً آمن ، ولا يقوم إلا بفكر ، ولا يبحث إلا عن الدسائس والإخماد نار
الفتنة ، وقد جعلنا هذه المصائب حملاً على عواتق وزرائنا ، وكتاباً بين يدي
خديويينا وهم لا يقوون على هذا الحمل الثقيل إلا بخضوعنا وسكوتنا وحفظ
علائق الأجانب النازلين بأرضنا وطاعة أمرائنا فيما يأمرهم به من دواعي
الإصلاح .

وقد كفناكم من الفخر أنكم ملكتم زمام الحرية مع حفظ الأرواح
بعد أن علمتم أن فرنسا قد بذلت في الثورة الفرنسية والقضاء على الباستيل
عشرات الألوف من الأرواح وأضاعت مئات الألوف من الأموال ،
والتاريخ يشهد أن كثيراً من الجند تظاهر على مليكة فمنهم من خلع ومنهم من
قتل ، وأنتم وقفتم بين يدي مليكنا وقفة المتأدب القابح الطامع في كرم
مولاه ، فلم تريغوا قلباً ، ولا خرجتم عن حد الأدب كما تعلمونه من حب
مليكننا للحرية وسعيه في تقدم الأمة وحفظ بلاده ، وقد منحكم الطلب
وهو عنكم راض ، فأنعم بأميرنا العظيم ، وأنعم بجيشنا المؤدب المهنذ ،
وبمثل هذه الآداب تحفظ البلاد وتفخر وها أنا
أنادي نداء المخلص بقولي ، لا نرضى بغير الخديو المعظم أميراً للبلاد ،
ولا نعتزف إلا بسيادته ونموت في بقاء ملكه وحفظه من الأعداء ، نتفانى
في تأييد سطوته ، وتخليد الحكومة الحرة باسمه الشريف فمن كان معي على
هذا الاعتقاد فليجيئين بقوله نفديه بالمال والروح
فنأدى الجند والأمراء وجمع الحاضرين - نفديه بالمال والروح .

ألا يسركم أن هذا الأمير قد حرر الأمة وأعتقها من رق الاستعباد

— ٢٥٨ —

واسمه الشريف محمد ، أترضون باستعباد هنرى مثلاً وتغيير أسماء أبنائكم
من محمد وعلى إلى جورج وجان أو هنرى وفيليب ..

بالله أن الراضى بذلك لمن الخاسرين بالدنيا والآخرة ، ولو تبعتم
السياسة وكشفتهم قناعها لعلمتم أنكم كنتم أكلة طابت وتهيأت للازدراء ،
ولسكن الله رحمكم بوجود أمير مؤمن مخلص إلى الله فى أعماله ، حريص على
بلاده وشرف أمته ، وأنقذكم بجيش وطنى رضى الموت فى حياة البلاد ،
وباع الشقاء المؤقت بالسعادة الأبدية ، ففاز بالقبول وأرضى الله ورسوله
وسكن قلوب الأمة ، وكتب له التاريخ للرجال اسماً تقدمه صفحات الزمن
بين يدي كل موجود .

تعلمون أيها الحاضرون أن التحاسد والتباغض أوقعنا فى الاستعباد سنين
عديده وأن وحدة الاتحاد لإخوانكم خلصتكم ساعة واحدة ، فاسعوا
فى تآلف القلوب ، وتوحيد كلمة المواطنين ، لنكون رجلاً واحداً ، وقت
الدفاع ، وعائلة واحدة وقت الهدوء والسكينة .

هذا أخوكم الجليل السيف المجرد لحماية الخديو المعظم وبلاده ، يودعكم
ويسافر إلى رأس الوادى ، لا عن قلى وغضب ، ولا ياكراه ولا يارغام ،
إنما هو يتبع أفكار رئيسه الجليل . ويسافر طوعاً للأوامر ، ليقطع ألسن
الاعداء ، ويسكن الراجيف ، ويعلم المحب والمبغض أن الوطن فى هدوء
عظيم وأهله فى طاعة لا يشوبها عصيان ، فاسألوا الله له وإخوانه جميعاً
السلامة وثبات العزيمة ودوام المحبة والاتحاد ، وكونوا على سيرهم من الالفه
ولإحياء كلمة الوطنية فكلكم وطنى ، وإن اختلفت المقاصد وتباينت الذوات .

ويقول عن نفسه :

ثم نزلت واعتنقنى الهمام وقبل ما بين عيني وسرنا إلى العربية المعدة لنا) .

وعند سفر الآلاى السودانى بقيادة عبد العال حلمى ، كان فى توديعه
جمع غفير من الأهلين ، ومن بينهم أحمد عرابى باشا ومحمود سامى البارودى
وعبد الله النديم ورهط كبير من الضباط والجنود :

وألقي السيد / عبد الله النديم خطاباً وطنياً حماسياً - هذا نصه :

حماة البلاد وفرسانها :

من قرأ التواريخ ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل ،
عرف مقدار ما وصلتكم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ
من حسنات ، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ، ولا لحقكم فى
إدراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد
عنها ، فلکم الذکر الجميل ، والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر
بماثرکم الآتى من أبنائنا . .

فقد جى الزطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى ، فإن الأمة
جسد ، والجند روحه ، ولا حياة للجسد بلا روح ، وهذا وطنكم العزيز
أصبح يناديكم ويقول :

إليكم يرد الأمر وهو عظيم فإنى بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى فمن أين يأتى للديار نعيم
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا أعناق خيل نحو نخيم فعليه من بين البيوت نسيم
وشدوا له الأظراف من كل وجهة

فشدوا أظراف الجهات قويم
وإن تكن سيفاً فكن أرض وطاة
فليس لمغلول اليدى حريم

— ٢٩٠ —

وإن لم تكن للعائدين حماية فانت ومخضوب البنان قسيم
ولقد ذكرت باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان لرسول الله صلى الله عليه
وسلم عند تغيب سيدنا عثمان في اهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على حفظه
وصيائته ، فصاروا يعنون بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على
حفظ الأوطان وبقاء سطوة مولانا الخديو وتأييد ملكه . وتبايعكم على
الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثورة أو يخذش الشرف أو يضعف
القوة ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به - وذلك هو الفوز العظيم .
ثم قال مخاطباً الجنود والضباط الذين جاءوا لتوديع المسافرين :
« وقد اغترم السفر معهم » .

أخوكم الحر يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط ، فاجعلوا عروة الود
وثيقة . ولا تقطعوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامه
إلى أن قال :

« ومن محاسنكم التى تفخرون بها ويعرف لكم بها الفضل ، طاعتكم لأوامر
الحكومة وامتنالكم لإرشاداتها ثم ختم خطابه بقوله :
وأحسن مما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال « مات شهيد
الأوطان »
فنادى الجميع .

« رضينا بالموت فى حفظ الأوطان ،

النديم الشاعر

يعد النديم شاعراً من شعراء العهد الحديث نزع فى بعض نظمه إلى
الأساليب العصرية فحفلت قصائده بدور من المعانى ، رغم أنه لم يخل من ترسم
آثار الشعراء القدامى فى أسلوبهم ، وعدم التحرر من آثار القيود القديمة ،

التي يطلق عليها الطريقة المدرسية والتي نضجت في العصر العباسي الثالث، وأخذت تتأصل في أذهان الشعراء والأدباء وتوسع بمرور الأعصر ، والتي كان من خصائصها الاحتفال باللفظ دون المعنى ، وكما بدأ النديم في كتابته مترسما آثار السلف من الاهتمام بالسجع والبديع ، ثم روض قلبه بعد ذلك ونبغ في الترسل ، كذلك ظهرت مواهبه الشعرية وهو ينسج على منوال المدرسة التي عاصرها .

ورغم أنه لم يبرز كشاعر ممتاز يدوى ذكره إلا قال الشعر في أغراض متنوعة منها وصف المخترعات الحديثة ونقد العيوب الاجتماعية وفي الأغراض السياسية ولم يتفرغ النديم لتجويد شعره والارتفاع بمستواه إلى مصاف كبار الشعراء أمثال البارودي ، رغم أنه كان يتردد عليه بالندوة الأدبية بالقاهرة ، وكان صديقا حميما له ، واشترك معه في كل مراحل الثورة العراقية ، وكان زميلا له في مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني ، ولعل ذلك راجع على ما نظن ، لاهتمام النديم بالنثر الأدبي والصحافة والأدب الشعبي ، والدعوة السياسية التي اشتغل بها واهتمامه بتهيئة الرأي العام ورفع المستوى الاجتماعي للشعب ، كل هذه العوامل منعت النديم من اهتمامه بشعره والمواظبة على تحسينه وتجويده ، ولقد قيل أن إنتاجه الشعري كان كثيرا فقد نظم أكثر من عشرة آلاف بيت في ثلاثة دواوين غير مطبوعة ، وما يؤسف له أن لا يصلنا شيء منها ، لنستطيع أن نبين الأغراض التي قال فيها الشعر جميعا ونستقرى المميزات التي نمت عليها ، ولم يصلنا من شعره إلا قطع في صحف ، وفي بعض الكتب لا تغني قليلا ولا تبرد غليلا ، ولن تعدو فائدتها إلقاء بصيص من النور على شعره وأسلوبه وبعض أغراضه لنخلص بفكره ولو مقربة عن النديم الشاعر ، وكنا نود في لهفة شوق وشاركنا هذا الود كل مصري ، أن نعثر على دواوينه ، لنترع من نبعها الثمر ، ونرتوي من فيضها ،

ونقطف من جناها صنوفاً من الشعر ألواناً ومذاقاً ، وروائع من الشعر الشعبي الملى بصور الريف وعادات أهله ، مما نظمته أثناء منفاه الطويل بل ملىء بالصور التاريخية الرائعة عن الثورة العرابية وظروفها وما تقلب الناس عليه من صنوف المشاعر وألوان الأحاسيس ، ولكان لنا من بعد ذلك تراث ضخم يضاف إلى تراث من قبله من الشعراء ، ومن قصائده في المدح ، هذه القصيدة التي مدح بها أحد أشراف الإدارة ، وسار فيها على نمط قصيدة المرقش الأكبر ، من شعراء الجاهلية الذي ظهر قبل الإسلام بحوالي خمسين عاماً ، وكان دائماً في ركاب الأمراء ، يقول الشعر في مدحهم :

بين السرائر والسرير	هام الفرزدق مع جرير
هذى بها نار الجوى	ثارت وذا فيه المثير
وسنان لكن كفه	يسطو على بيت الضمير
ثم بصرف الحسن لا	خمر يكونها العصير
بسام تغر خلته	للوصل من وجدى بشير
واللحظ قال لمهجي	لا تفرحى لى نذير
لكننى من فرحتى	في جو آمالي أطير
إذا صرت عبداً غادما	في حضرة الملك الخطير
أدعو فأنظر جنة	في وجهه الزاهي النضير

(وهكذا يستمر في قصيدته التي تبلغ مائة بيت) .

وله في تهنية الخديوى عباس الثانى :

سيد ساد الزمان كبحر	زاخر في الفخار في كل محفل
ترقب الناس سيره في مدار	وهو دار يسيره إذ تحول
ساسة العصر تجتليه بعين	قد رأى نفسه بها وهو أمثل
وإذا ما رأى العظيم علاه	طاب نفساً إذ علا أو تنزل

— ٢٦٣ —

وهل الدوح في الذبول يحاكي فاضر الغصن بالثمار تهدل
ذو السجايا الحسان خلقاً وخلقاً مظهر الحلم والثناء مرتل
إن تزره كريماً عطوفاً عالماً صارماً يقول ويعقل
وله في الفخر والصبر على المحن قصيدة أنشأها أيام اختفائه فقتبس
منها ما يأتي :

أتحسبنا إذا قلنا بلينا بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهي فيحسب حامل أنا دهينا
تناوشنا فنقهرها خطوب ترى الليث العرينا لها قرينا
سررنا بالصلى والبشر باد وكى السر يستدعى الأئينا
ومرضعنا تغذينا بهمبر مرير حين ما زجنا حلينا
فطمنا بالظماء على ثبات فصمنا عن شراب الجازعينا
إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شقيننا
لنا جلد على جلد يقينا فإن زاد البسلا زدنا يقينا
فأعيا الخطب ما يلقاه منا ولكننا صحاح ما عيننا
صلينا يا خطوب فقد عرفنا بأنا الصلب صلنا أو صلينا
ومنها قوله :

إذا ما المجد نادانا أجبنا فيظهر حين ينظرنا حيننا
فإننا في عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رضينا

وله في الشعر الغنائي الذي كان يحفظه العامة قبل اشتراكه في الثورة
العراية وقد كان يعتنيه بعضهم في طنطا (وكان ذلك من أسباب تعرف
شاهين باشا كنج وزير الحرية السابق به) المقطوعة التالية :

سلوه عن الأرواح في ملاعبه وكفروا إذا سل المهند حاجبه

وعودوا إذا نامت أراقم شعره وولوا إذا دبت إليكم عقارب
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده فلو أتلّف الأرواح من ذا يطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه ويحجب عني والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدنى الحبيب بصبه سوى زفرة تثني الحشا وتجاذبه

ومن شعره في تشجيع العلم قصيدة أنشدها في حفلة افتتاح مدرسة الجمعية
الخيرية بدمهور في ١٨٨١/٧/١ وكان مدعواً في هذه الحفلة :-

قدع ما شئت من عم وخال وحد عن عيون القفر خال
وحصل إن أردت العز يوماً علوماً ضوءها نور المعالي
وجانب فتية ضلوا فتاهوا وباتوا عاكفين على المحال
وصاحب يا أخا الفتيان بجرأ تروى القلب من حر الضلال
وجاهد كي تكون به خيراً وقدم نعله فعل الموالى
ومن أمسى لأهل الفضل عبداً تحرر بالمعارف والجلال

وله قطعة أخرى :- (متحسراً على الجهل الذي انتشر وعدم الاحتفال
بنشر المعارف والثقافة) .

عيونى أريقى من مدا معك الدما فإن بنساء الأقدمين تهدما
سمعنا بقوم شيدوا بيت مجدهم وسابق كل خدنه فتمقدما
وجادوا بمال واستعانوا بهمة على كل فعل يصلح العبد والأما
فباتوا ملوكاً في رياض معارف تنير بهم إن أصبح الجو مظلماً
وشاهدنا أن المعالم بيننا تخبر عنهم أنهم أنجس السما

ومن شعره الوصفى ما قاله في ذم الخمر :

طاف النديم بكأسه في الحان ومشى يزف البكر بالأحان
برزت تفهقه بين ندمان الطلا نفجلت إذ ضحكت على الأقاذن
ذلت لدولة حكمها دول الورى من غير ماضرب ولا أعوان

خفت فطارت بالعقول وخلفت
كم حسنت فعل القبيح لشارب
فهى التى ما مازجت فى منزل
حملت صواحبها على طرح الحيا
ويمكرها كحلت عيون رجالها
أم الخباثت بنت عسلوج الهوى
من زفها من خدرها لفؤاده
ولذا تستر فى ترشفها بدت
تلك الجسوم بحاله النيران
فيعود بعد الهدى فى كفران
نور الصلاح ولا ضيا الايمان
فبذلان عرضاً بعد حسن صيان
فتصادموا كتصادم العميان
أخت الحشائش زوجة الشيطان
صرعته عند مزالق الأطلان
من فيه تفضحه لدى الإخوان

ومن أوصافه الحسنة قوله يصف قطاراً بخارياً :

نظر الحكيم صفاته فتحيرا
دوما يحن إلى ديار أصوله
ويظل يبكى والدموع تزيده
تلقاه حال السير أفعى تلتوى
أو سبع غاب قد أحس بصائد
أو أنها شهب هوت من أنفها
شكلا كطود بالبخار مسيرا
بحديد قلب باللهيب تسعرا
وجدا فيجرى فى الفضاء تسترا
أو فارس الهيجا آثار العثرا
فى غابه فعدا عليه وزجرا
أو قبة المنطاد تنبذ بالعري

الباب السادس

آثار النديم في النواحي الاجتماعية

- | | |
|-----|--------------------------------------|
| ٢٠٨ | (١) الحرية الأخلاقية |
| ٢١٠ | (٢) كرامه المواطن |
| ٢١٣ | (٣) الخدمة الاجتماعية |
| ٢١٥ | (٤) الدعوة لإنشاء الجمعيات الخيرية |
| ٢١٦ | (٥) النهوض بالمرأة المصرية |
| ٢١٩ | (٦) الوطنية والإنسانية |
| ٢١٩ | (٧) زعيم التسامح الدينى |
| ١٢١ | (٨) المسرح المصرى |
| ٢٢٢ | (٩) إصلاح بعض الطوائف المهنية |
| ٢٢٣ | (١٠) الطرن وإصلاحها |

١ - الحرية الأخلاقية :

لقد استبدت بهذا الكاتب أحاسيس الاُسى والائلم ، على ما أصاب القوم في عهده من انحلال أخلاقي فظيع ، وانحدار إلى دركات الرذائل والموبقات ، فباتوا في ليل داج ، مكبلين بقيود عاداتهم وأوهامهم ، لا يدرون من أمرهم شيئاً ولا يشعرون بمقدار الهوة العميقة التي يعيشون فيها .

فكان النديم النذير والداعية ، لكي يوقظ القوم من أوهامهم ويحاول إزالة آثار الخرافات والجهل عنهم حتى يستشعروا كرامتهم الإنسانية ويتخلصوا من عبودية الشهوات والمخدرات التي تمكنت منهم ، وقيدتهم حتى باتوا أسرى لها ، والعبودية الأخلاقية أوقع أثرأ من العبودية السياسية ، فالشعب المخطئة معنويته ، المنحطة أخلاقه ، لن يقوى على رد اعتداء الغير عليه ولا التخلص من نير مذليه المحتلين ، والحرمان من الحرية الأخلاقية هو حرمان الكائن الإنسانى من أهم مقومات حياته الأدبية والفكرية وإفقاده تقدير المجتمع له فتكلم النديم عن جميع المساوىء الأخلاقية في عهده بحماسة جياشه وعاطفة قوية وله فيها كثير من المقالات والقصص الصغيرة والمحاورات العامة التي نشرها في مجلة التنكيك والتبكيك الاعداد الصادرة في ٦/٦ ، ٦/١٩ ، ٦/٢٦ ، ٧/٣ ، ٧/٣١ ، ٨/٣٠ ، ١٨٨١ .

لإنها المهمة شاقة حقاً وعبء ثقیل ما اضطلع به ذلك الكاتب الوطنى في محاولاته رفع مستوى شعب رسف في قيود الذل والاستعباد أجيالا طوالا ، أثمرت على طموحه وقبرت ملكاته ، وأخذت مواهبه ، وحالت دون نمو الفضائل فيه ، وتركته نهب الرذائل والامراض الأخلاقية ، تتربع في فكره الوسوس والخرافات ، فكتب في صحفه جميعها من نقفات قلبه ، وأنفاس روحه المتقد بنار الوطنية ، داعياً الأمة إلى لإطراح مساوىء الماضى والبدء

في نهج جديد لحياة شعارها الكرامة والوطنية ، تسمو إلى العمل المنتج والكفاح الثمر ، نظيفة من الاوشاب ، طاهرة من الرذائل ، وقديم العادات .

وقد كانت جميع هذه المقالات دائرة حول الرذائل الخطرة التي كانت منتشرة في عهدة وهي الانحرافات الجنسية وانتشار الخمر ، وازدياد خطر المخدرات والمغيات ؛ والتهاوت على تقليد الاوروبيين لا في النواحي الجنسية ولكن في مساوئهم من مجون وخلاعة واختلاط بين الرجال والنساء بما لا يتفق مع الفصيلة والمبادئ السليمة. وفي مقاله دجل العواقب جالب العواطب التي نشرت في ١٩٨١/٧/٣ وأنهى باللائمة على من يظنون أن إهانة الوالدين والتشدد بالالفاظ الاوربية في الحديث وتحقير كل ماهو مصرى ، والتسح بما هو أجنبي ومصاحبة الزوجة في المجامع والطرق ، والدخول بها محلات الرقص ومجالس العيب (إن هذا) نوع من التمدن ثم يقول : إنما التمدن الحقيقي بالاشتغال بالعلوم ومعرفة الإنسان واجباته وحدوده ، ومحافظة على العادات الجميلة والتمسك بمعتقدات طائفته وترك الخرافات

وكان من دقة النديم في ملاحظاته ، أن عرض علينا نماذجاً لافراد من مختلف الافراد من مختلف الطبقات ، قد استشرى بها الجبل حتى أنها جعلت أبسط الامور وأيسرها في شئون الحياة . فما هو مأمور مركز لا يستطيع تحرير ملتمس يرفعه إلى رئيسه فيكلف كاتباً صغيراً بذلك ، وفلاح جاهل مسكين يتأثر من استماعه لقصة عنتره من أحد المنشدين بالمقاهى ، فيتخبط في تصرفات لا يأتينا شخص به مسكة من عقل وذرة من يقين . . . الخ .

وفي مقالته المشهورة متى يستقيم الظل والعود أعوج ، التي نشرها في مجلة الأستاذ ، يندد فيها بضعف المصريين بأسباب الشقاق وعدم الاتحاد بين

الطبقات ، واقتداء الفقراء بالأغنياء في رذائلهم والإنطلاق وراء المشغ والملاذات الوقتية ورواج تجارة الأجانب في الخور وانتشار الميسر والمراقص ، وتقليد الأجانب فيما لا يجدى ولا يعود على الوطن بالنفع كالتفنى في المآكل والمشارب ، والملبس ، بما يشجع التجارة الأجنبية ويؤثر على الصناعة الوطنية ويقول بصدد ذلك (إن تهافت المصريين على تقليد الأوروبيين هو الشعور بالنقص في المصريين ، كنتيجة لاحتلال بلادهم طوال السنين والقرون ، وانعدام الوازع الأخلاقي ، وتهافتهم على الرذائل والفجور والآثام ، تهافتاً أضعاف معالم الأخلاق الشريفة والروح الوطنية العالية والمثل العالية من دين ووطنية) .

وفي هذه المقالة أوضح التديم العناصر التي تأثر بها الشعور الوطنى في المصريين ومركب النقص الذى تكون فى بيئة المشاعر من توالى احتلال البلاد بواسطة الغزاة والفتاحين ، ثم محاولة التعويض عن هذا النقص بالإفراط فى تقليد الأجانب فى انحذارهم الأخلاقى ، وتأثر الإقتصاد الوطنى بذلك .

(١) كرامة المواطن :

بين التديم لمواطنيه أن الإنسان لا يستطيع أن يفيد مجتمعه ويخدم بلاده خدمة مثمرة ما لم يتمتع بالحياة فى مجتمع حر يشعر بقيمته ، ويقدر رأيه فيستطيع أن يعبر عنه بصراحة ، دون خشية من إيذاء ، ولقد نادى بذلك فى وقت ضاعت فيه قيم الناس وما كان يحسب فيها لآى امرئ حساب فالحكام والأمراء هم السادة والرأى لهم وعلى الشعب طاعتهم دون اعتراض ، يقبض على شخص ما بدون اتهام ، فلا يملك أن يطالب بتحقيق أسباب القبض عليه ، بل يكفى أن يقول أحداً للحكام كلمة واحدة ، لينج بيريه فى السجن يبقى فيه حتى يموت . وكان الخديو إسماعيل والأمراء ، يسخرون الألوف من الفلاحين للعمل فى مزارعهم الشاسعة دون أجر ودون طعام ، ولم تكن

هناك وسيلة للتفاهم بين هؤلاء المساكين ورؤسائهم سوى الكبراج والسوط ..
ثم بعد ذلك ليقع من يقع ، ولتت من يمت ، ضحية الضرب أو المرض
أو الجوع أو الإجهاد . ولتسمع مصر النائمة في غمرة الزمان وسكون الظلم
الخفيف ، صوتاً صادراً من مصرى ، ما كان وزيراً خطيراً ولا أميراً عظيماً
بل شخصاً من العامة ابن خباز فقير ، يبعثه في الأمة منيراً لها طريق الشعور
بالكرامة والحرية موضحاً لها قيمة الفرد وحقوقه وذلك فيما كتبه في
١٨٨٩/٨/١١ بعنوان «وحشة نديم لأجد أبنائه» ملقداً الشعب مبادئ
الكرامة والعزة الإنسانية (لا تغر من الكذب ، ولا تهوى الخيانة ،
ولا تمدح الفجور ، ولا تستكين وتخشع ، ولا ترضى بالظلم والخياف ،
ولا تضع شيئاً من حقوقك ، ولا تعظم إنساناً فوق حده ولا تمدحه بما
ليس فيه ، لا تتملق ولا تتهاون في شرفك ، ولا تمل مع الباطل ، ولا تسعى
معه في الفساد ولا تساعد تابعاً على سرقة ، ولا تهمل شيئاً مما عهد إليك ،
وكن صادقاً حافظاً للإتحاد ، لا تسكن نماماً ، ولا ساعياً في فتنة ، وفند من
الشر وتجنب أهل الإفساد والفتنة وأهل المظاهر ومحبي ذواتهم ، واترك
من يرى قدره فوق قدرك ، ونفسه أعلى من نفسك واحترم العظيم إحتراماً
لا يسقط مروءتك ، وبجل العالم تبجيلاً يزيدك رفعة ووقر الشيوخ واحرم
الصغار واحفظ عهد الإخوان ، واخضع للوالدين) جمل موجزة ، وعبارات
متناسكة وعظائم بليغة ودرر منشورة وسطور تحوى في طياتها أروع المبادئ
وأكرم المثل كما كان النديم نفسه في سلوكه الشخصى مثلاً أعلى لحرية الرأى ،
وقاسى في سبيل ذلك النفي والإضطهاد ، وكان عيشه شاقاً مليئاً بالمتاعب
والآلام وكان يمكن أن يرصف بالزهور والرياحين ويحفل بالغنى والثراء
لوعرف التملق والرياء لقلبه سيلاً ، وقد نشر يوماً في مجلة الأستاذ
« صحيفة ٧٠٣ » ، اعتذاراً لعدم نشره قصائد واردة للبهجة في مدح رياض باشا
رئيس الوزراء ومدير البحيرة قائلاً : « إن كثرة المديح مشبطة للهمم لاعتماد

هؤلاء على ثقة الناس بهم ورضاعهم وكتب أيضاً في الأستاذ عدد ٣٣ صحيفة ٧٦١ داعياً إلى عدم الاحتفال بآراء الأغنياء والكبراء وأخزها دون بحث خوفاً من مراكرهم أو رهبة منهم ، ويجب تقدير آراء العلماء والصالحين ولو كانوا فقراء ، ثم دعا إلى الشجاعة الأدبية في مقاله (اتبع الحق وإن عز عليك ظهوره) .

فيقول فيها جاهر برأيك مهما كانت الظروف والأحوال تدعوك إلى عكس ذلك ، فلا تبالي بإيذاء أو ظلم أو كذب في سبيل رسالة الأخلاق والفضيلة .

(ب) التحرر من الخرافات : الشعب الناهض ، الصاعد قدماً إلى مرافق المجيد ، والتقدم الفكري والعلمي هو ما اتخذ أفرادهم في تفكيرهم ، الأسلوب المنطقي ، وربطوا بين المقدمات والنتائج وبين العلل ومسبباتها ، ثم آثروا بعد ذلك هذا الأسلوب في طرائق معاشهم وأعمالهم ، وتصرفاتهم في أمورهم الخاصة والعامة ، وقوموا أفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم على أساسه فتجدهم يهتمون بالعلوم الحديثة وترقية الصناعة والتوسع في الزراعة والأخذ بكل ما يوسع آفاق التقدم الإقتصادي والعلمي ، واعتمدوا على المنطق والبرهان في انتخاب ما يصلح لظروفهم ويؤدي بهم إلى الإصلاح والنهوض .

لذلك دعا الكاتب الملهم ، الشعب المصري بأن ينطلق في أثر الشعوب المتقدمة في الحضارة ، مجارياً لإياها في أساليب التفكير والحياة ، وترك الخرافات والعقائد السقيمة وأساليب الدجالين ، ومدعى الولاية عن لا نجد في أعمالهم منطقاً معقولاً أو أساساً مقبولاً ، ولنقرأ ما كتبه في ذلك المعنى في ١٠/٧/١٨٨١ مدحاً خرافة النجم ذي الذنب ، التي انتشرت في عهده ، راداً الناس إلى مناطق الحقيقة آخذاً بهم من عالم الخرافات والأوهام ، قال (يا بني الشرق أين أحلامكم العظيمة ، وذكاءكم البديع ، كفاكم من العار فقد (١٨ — عبد الله النديم)

الثقة فيكم ، وعدم الركون إليكم في أعمال وطنكم فضلا عن الغير ، كفاكم
 ماريتم به على ألسنة الجرائد الأفرنجية بل وبعض الوطنية في بعدمكم عن مدارك
 العلوم والصناعة والإدارة ، بل البعض يفضل الحيوان الصامت عليكم . .
 كفاكم أن أشغالكم وأمتعتكم وأثاثكم يقدمها إليكم الغربى ويستنزف بها
 ثروة بلادكم وأنتم لا تشعرون . كفاكم أنكم اتبعم الخرافات حتى فسدت
 أخلاقكم وتكدت أفكاركم وصرتم لا تصلحون لإدارة أموركم إلا بعد
 طهارة أخلاقكم التى أفسدها التخريف وأنتم به راضون . . كفاكم أنكم
 صوتم في البيوت المتهمة والحارات بالقذرة ، ولا يسكن القصور ويتمتع
 بنزهة البساتين إلا من عظم بما لديكم وأنتم تائمون ، كفاكم أنكم تمرون في
 الطرقات مشاة على الأقدام ، والعربات تشردكم على اليمين وعلى الشمال ،
 وما بها إلا من عظم بجمده ونشاطه ، مع اختلاف الأسباب وأنتم في باب
 التقاعد واقفون تتألمون من الفقر وأنتم له جالبون . . أرى فعلة باريس
 فتحوا لهم صندوق اقتصاد فبما وأثرى حتى صار أعظم بنك يوثق به ،
 ونحن نفتصد في المعاش وتوسع في الخمر والحشيش والقمار ، حتى فتحنا
 بنوكا ولكن لغيرنا وأضعنا الصناعة ، وصرفنا أموالنا في شراء ما يلزمنا ،
 فأدرنا عدة معامل ولكن في غير مملكتنا .

فمع اختلاف القلوب وفساد الأخلاق ، والانكباب على الملاهى
 والسقوط بالتخريف ، والاشتغال بالمنجمين والرمالين والدجالين والمتكلمين
 بالضمير وأهل الأوقاف والطوالع والخواتم المجربة ، والآنفة من المعارف
 وأهلها كيف نرجو الإصلاح والإصلاح ورد ثروة البلاد لأهلها) وتعد
 هذه المقالة من أروع مقالاته التى يصدر فيها عن حماسة قوية ، ودعوة
 وطنية مغلصة ، لبعث الفكر المصرى وتطهيره من مخلفات الاجيال وإزالة
 ركام الماضي من عقائد وأوهام سقيمة . والدعوى إلى النهوض الاقتصادى

بإنشاء المصارف بدلا من تخزين الأموال ، واستغلالها في التجارة بدلا من استغلالها في المخدرات ثم قال في ١٩/٦/١٨٨١ بعنوان (خذ من عبد الله واتكل على الله) محذراً فيها من الاعتماد على المنجمين والالتجاء إليهم وتطبيق أقوالهم - وفي ٢١/٨/١٨٨١ بعنوان (أمانتك من سلمك للجهالة) يتكلم فيها عن الآلام التي يعانيها الناس من اعتمادهم على الدجالين في علاجهم وحل مشاكلهم ثم يتكلم عن جماعة مدعى الولاية ومظاهريهم فيقول (كل من لبس طاقية من الخوص أو حمل عكازة خضراء أو أصابه شلل في أحد الاعضاء أو مصاب بضياغ أنفه بواسطة الزهرى د أو بأصبع عوجاء أو يبدأ صغيرة أو له (ريال) أو بلسانه لكتنه ، حظى باعتقاد الناس في ولايته) .. كما تحدث عن أحدهم المدعى أبو مسلم الذى كان مقبياً بميت غمر (فقد صنع له بيتاً صغيراً وحفر بركة ، وأشاع أن ماءها يشفى من كل داء ، فهرعت إليه الناس من كل بلد حتى ضاقت ميت غمر بالوفود وكان يعطى الأبريق بـ ١٠ قروش ، ويأخذ الخادم ١٠ قروش ، و ١٠ قروش أخرى ثمن البن ، ونذر الشيوخ ١٠ قروش ثم يظهر التعفف ، ويقول أنه يعالج الناس ابتغاء مرضاة الله ؟ فهل بمثل هذه الجهالة تضارع الامم المتقدمة ، ونرجوا إصلاح البلاد وحفظها من أفكار الدول المتقدمة المشتتة بالمعارف آناء الليل وأطراف النهار . وفي مقالة (سلطنة التخريف) في ٧/٨/١٨٨١ يصف فيها مشهداً غريباً ، عن ازدحام الناس في محطة دسوق ، لتقيل القطار المقل لامرأة تدعى الولاية ، وإقبال الناس حولها يقبلون يدها . . . ثم يذكر العبارات التمليلية التي كانت ترددها للناس ويزددها أمثالها من مدعى الولاية ، ... مستورة . . . سالكة . . . أشياء معدن . . . قدامك خضره ووراك خضره . . . الله يحزن عليك . . . فاضل عليها عقدة . . . ارمى حمولك على المتولى . . . ربنا يحازى أولاد الحرام . . . شيخ لله . . . ياسيد روح سرى معك . . . الخ .

وهكذا يخضع هؤلاء المخرفون السذج والجهلاء لسلطانهم ونفوذهم ويقضون على حرية تفكيرهم ، ثم يختم النديم مقاله قائلاً : (لقد أصبحنا أقل الأمم قدراً وأخلاها من العلم وأمكنها من الجهل ، وما أبعدنا عن العلماء) وقد تحدث في مقالة (نهاية البلادة) في ١٨٨١/٧/٣ عن مضار التواكل والتخاذل وعدم السعى والاجتهاد ، اعتماداً على المقدر والمكتوب ، ووضح فكرته بقصة صغيرة ، سهلة المنال ، واضحة المعنى عن فلاح ساذج سطا عليه أحد اللصوص ، فلم يحرك ساكناً ، اعتماداً على فكرة المقدر والمكتوب .

٣ - الوطنية العملية (الخدمة الاجتماعية)

كيف تؤثر الوطنية الحققة في سلوك الناس فيما بينهم ؟ وما هدف المواطن الصالح من توثيق العلاقات الاجتماعية بينه وبين مواطنيه ؟ كيف تعاو بالوطن وتخدم بنيه ، وترفع دعائم الاتحاد مشيدة عالية ؟ هذا ما أجاب عنه النديم الكاتب العبقري في ١٨٨١/٧/١٠ في مقاله (كيف ظهرت وأنا لك بالمرصاد) يحض فيها على التواصل والتراحم بين الناس والتعاون الوطني بين القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، ويدعو لمجتمع راق تسوده المحبة والتعاطف والوطنية العملية الرشيدة . فما الوطنية بالفاظ تشدق بها الألسنة أو عبارات تلو كها الأفواه ، دون أن يكون لها أثر عملي في حياتنا الواقعية وعلاقاتنا مع الغير . قال فيها : (والوطن وعزته ، والجنس وشرفه والأمة ومجدها ، إنك في حياتك من الهالكين ، وفي سعيك من الضالين ، أى قوة ترجوها إذا قطعت عضدك أى أخاك ، وأى ثروة تبلغها إذا عطلت بواسطتك أى مواطنك ، وأى تقدم توده إذا قفلت بابه . هلا نظرت إلى الفقير فأعنته بما يحفظ به حياته . والجاهل فهديته سواء السبيل والمجد وساعدته على نجاح أعماله لو تأملت أيها المدلل بنفسه هذه النصيحة . وأنزلت

نفسك منزلة فرد من أفراد الامة وبحث فيما يطهر الأخلاق ويوصل الامة إلى النجاح ، وإدراك معاني السياسة ، حتى يقف كل عند حده ويعرف حقوقه لكنك من الذين رأوا لذة حياتهم في حفظ بلادهم وبث روح التمدن فيها وكتب في ١٨٨١/٣/١٩ في مقال « تسمية البهيم بالمتوحش ظلم من الإنسان » تسليق فيها على هذا البيت من الشعر

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذا ظمئت وأى الناس تصفوا مشاربه
وقصد بهذا البيت الانتفاع بالاصدقاء والاستفادة من عشرتهم ، وعدم مؤاخذتهم في كل ما يصدر عنهم من فعال لأن الطبيعة الإنسانية لا تستطيع أن تنأى كل النأى عن مواطن الخطأ ثم يدعوا إلى توثيق هذه الرابطة الاجتماعية لنفعها للمجتمع ثم يدعوا إلى التراحم والتعاون بين الناس وانتقل بعد ذلك إلى شرح عنوان المقال كيف إننا نسمى الحيوان متوحشاً ، والفرق شاسع بين ما يعمل به الإنسان مع أخيه الإنسان وبين ما يدعو به هو الحيوان ، فالإنسان في الحقيقة هو الأجدد بأن يسمى بالمتوحش وذلك حين يقسوا على أخيه ، بجمع المال وحرمان الفقير واليتيم والأرملة والمريض والمقعد والبائس حقه في المعاونة على الحياة السكرية .

وحين يتهور ويطيش في تصرفه في :

(أ) مقابلة المسيء بإساءة مثلها .

(ب) مخاطبة الضعيف العقل بما لا يحتمله .

ويقول في حسرة وتوجع مخاطباً ضمير الشعب :

(يا أيها الفرح بما ملكك يداه ، ما أحزنك لو تأملت الضطى يتضور جوعاً والبائس ينتفض برداً ، واليتيم لا قيم له يرشده ، ويعلمه ، والمريض المعدم لا مال له يطيب به نفسه ، ولا متاع يبيعه ، لينفقه في حفظ حياته) .

ثم يتبرم من القساة القلوب الغلاظ الأكباد الذين يجمعون المال ويمنعونه . (أف لك ولمالك قل أو كثر ، فإنك تحجر على الإنسان قوته ومسكنه وملبسه ، بما تضييعه من اكتناز المال ، وما ظهرت إلا لتخريب البلاد من حصر النقد عندك ، وعدم تمكين الأفراد مما يبتاعون به ما يلزم لعمار الديار ، فتعساً لك ما حييت ، وسحقاً لك بعد موتك ولا مرحباً بك إذا قدمت ، ولا سلام يصحبك إذا ذهبت ...)

يا أيها المدعى الوطنية وهو يسعى في اضمحلال بلاده ويميل بجانبه إلى كل بعيد عنها ، ما أضرك على بلدك وأشدك على جيرانك وأخوانك ، وأغفلك عن حقوق مظهر وجودك لو علت الوصية ودرستها على خبير بها لعلمت أن البلاد محتاجة إلى فكرك وقوتك والأهل مفتقرون إلى مالك) .

وهكذا يسمو تعبير النديم ، ويبلغ في تحديده معنى الوطنية إلى أروع صورة لم يسبقه إليها أحد من قبل ، فيسرد الصفات والأعمال والمبادئ التي تدخل في تحديد معنى الوطنية ، من رثاء وعطف على أبناء الوطن المنكوبين ، إلى عدم حبس المال عن المنفعة العامة إلى مساعدة كل مواطن محتاج أيا كان نوع حاجته ، وكأنى بالنديم يقول في إيجاز (الوطنية أن تساعد المجتمع بكل ما تقدر عليه) .

ثم يعود الى هذه المعاني بعد ذلك بعشرة سنوات في مجلة الأستاذ فيكتب في الصحيفة ٧٤٥ عن أسس مبادئ الخدمة الاجتماعية في الإسلام وذلك في خطبة دينية شرح فيها الآيات الآتية : —

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام

الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

٤ - الدعوى إلى إنشاء الجمعيات الخيرية والاكثر منها

دعا إلى الإكثار من إنشاء الجمعيات الخيرية على غرار الجمعية الخيرية الإسلامية لإنشاء المدارس وتعليم أبناء الشعب وذلك فى مقاله (ثمرة الاجتماع) العدد السادس من السنة الأولى من مجلة التنكيت والتبكيت ، يدعو للتعاون فى سبيل الخير والمعروف ثم كتب فى العدد الصادر فى ١٧/٧/١٨٨١ بحث الأغنياء والموسرين على معاونة الجمعيات الخيرية قائلاً :

(ويأذى الثروة ، هلا هزتك أريحية الإنسان فجعلتم للجمعيات أثراً تذكرون به ، وتنازلتم عن بعض مستغلاتكم التى لا تفقركم ، ولا تلجسكم لبيع الأطباق الذهبية ، ولا الأسرة الفضية ولا الظروف المجوهرة ولا الكاسات المملأة ولا القصور الواسعة .

أليس الرجل منكم كالرجل منا فما بالكم لا ترضون بثلاثين نوعاً من الطعام ونرضى بالخبز والملح ، ولا تقنعون بالآلوف من الجنيئات وتقنع بالقرش الواحد ، أخلقتم من الذهب وخاقنا من التراب ، أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيداً لكم ، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الائمات ، ألا ترون أنكم تعدون بالاصابع فى بلادنا والفقراء هم الائمة) .

ثم يتحدث للطبقة المثقفة من الشعب ، ناعياً عليها سكوتها عن تعليم الشعب وتخفيف آلامه الجسدية والفكرية ، حاثاً على إنشاء المدارس لتعليمه بحيث يستطيع مقاومة الجهالات والخرافات وينجو من الشرور المحيطة به بأسبابها وذلك فى مقالة (آفة السكوت) فى ٤/٩/١٨٨١ .

هـ — النهضة النسائية :

رقى المرأة وتعليمها هو أساس رقى الشعب ، وحجر الزاوية في بناء مجده لأنها أم أبنائه ، وزوجة رجاله ، فهي التي تقدم للطفل منذ طفولته من دمها غذاء جسده ومن عقلها غذاء روحه ، وحين تكون زوجة تملك على نواصي رجلها ، وتستطيع أن تنزع به إلى أشرف الميول ، وتدفعه إلى أسمى مجالى المجد الوطنى والأدبى وكم من عظيم اعترى بفضل المرأة فى حياته واعترف بأثرها فى إنتاجه وجهاده ، لذلك وجب التوفر على إعدادها بكل المؤهلات لقيامها بواجبها على الوجه الأكمل .

ولعل من الإنصاف للحق والتاريخ أن يذكر للنديم فضل السبق فى بعث أول دعوة لتعليم المرأة على صفحات جرائده ، بعد ما ألف العلامة رفاة بك رفاة الطباطبائى أول كتاب تعليمى لتعلم البنين والبنات كما سبق أن ذكرنا . ولا شك أن كان لهذه الدعوة أثرها فى توجيه أفكار المواطنين ، فى وقت قد استشرى فيه الجهل وانتشرت فيه الخرافات والتمسك بالتقاليد البالية بل فى وقت ضن فيه الزمان حتى بتعليم الرجل .

ويمكن تلخيص جهوده فيما يلى :

١ - تعليم المرأة :

دعا إلى تعليم المرأة فى سن الطفولة وفتح المدارس لها لتدرس مع مواد المنهج الابتدائى ، الدين والتاريخ والتدبير المنزلى ورعاية الطفل .

٢ - التهذيب الاجتماعى :

واستحدث فى مجلته بابا خاصاً لتهذيب المرأة سماه مدرسة البنات ، تكتب فيه الموضوعات بأسلوب عامى سهل شيق ، على نمط المحاوراة تدور بين امرأتين (لهاية وست البلد) و (حفصة و بنتها سلمى) و (زكية و نفيسة) الخ

وقد أغرمت النساء بهذا الباب إلى حد عظيم حتى أنهن اعترضن على إلغائه حين فكر في ذلك فعدل . وقد تضمن هذا الباب شرح النواحي الآتية :

١ - الثقافة الضرورية للمرأة في مختلف مراحل حياتها ، حتى تؤدي رسالتها الاجتماعية أداءاً صالحاً . (وبين الفرق في الواجبات بالنسبة للريف والمدن) ،

ب - نهى المرأة عن رذائل المدنية الغريبة ، وعاداتها التي تتنافى مع المبادئ الدينية والأخلاقية .

ج - الدعوة إلى محاربة التعصب الديني وأن توثق المرأة المسلمة علاقتها بالمرأة المسيحية على أساس سليم من حسن الجوار واحترام كل لدين الأخرى (وهذا جزء من دعوته القومية الكبرى نحو اتحاد جميع طوائف الأمة بمختلف أديانهم) .

د - تدعيم العلاقات الإنسانية بين أعضاء العائلة المصرية ، موجهاً النصيح إلى الزوجة لمراعاة واجبها نحو زوجها وكذلك إلى الزوج لاحترام شخصية زوجته ورعايته مصالحها وعدم الانحدار إلى المكيفات والرذائل التي تعمل على هدم العائلة وتؤدي اقتصادها .

٣ - مجلة الحري :

كتب في مجلة الأستاذ في ٢٥ - ١٨٩٣ ، أنه شرع في إصدار مجلة المربي لتبحث فيما يهم المرأة من فهم للأمور الصحية وتدير المنزل ، ورعاية الطفل والأمومة والعادات ، والأخلاق . وقد وعد بإصدارها إذا تجمع عدد وافر من المشتركين ولكن القدر أبى أن يحقق للبلاد هذه الأمنية وأغلقت الأستاذ أبوابها ورحل الكاتب إلى منفاه البعيد عن وادي النيل ، ولو صدرت هذه المجلة لكانت أول مجلة من نوعها في مصر .

٤ — حماية المرأة :

(أ) دعا إلى إلغاء البغاء العلني .

(ب) عدم التطرف في حفلات الأفراح وإدخال الرقصات الخليعات في المنازل اللائى يأتين من الاعمال ما يتندى له جبين الفضيلة ويؤثر تأثيراً سيئاً على شعور وأخلاق فتيات ونساء الاسر الفاضلة .

(ج) محاربة الرقيق الأبيض ، بوسائله المختلفة التى منها استخدام الفتيات في المنازل كغرض ظاهرى والغرض الحقيقى لا يتصل بالفضيلة ، ويعبر النديم في بعض المحاورات عن تعاسة حال الخادومات ، اللائى بدلا ما كن يبعن في عهد الرق إلى سيد معين ، أصبحن يبعن كل مرة لسيد مدة معينة ويتألم لحالهن ، ويثير في قلب المجتمع وضميره العطف على قضيتهن .

٦ — الوطنية والانسانية

لعل من آثار عبقرية ذلك الكاتب الفحل ، أن وصل إلى القمة في تحديد العواطف الاجتماعية Social Sentiments فينبما هو يعيى قلوب مواطنيه بما يحيش بقلبه من وطنية ساطعة تكاد تتمزج جميع كتاباته وأقواله بها ، كيف لا وعاطفة الوطنية هى مدار رسالته ، وقوام دعوته ، فهو يدعو أبناء الوطن جميعاً ، للالتفاف حول راية الوطنية ، ثم يصول في هذا الميدان ويجول مستخدماً كل أسلحته ، من بيان وبلاغة فيبلغ المراقى العالية ، ثم يثير فيهم بعد ذلك عاطفة أخرى ، أوسع مدى من الأولى عاطفة تقتحم الحدود الوطنية ، وتتطلق إلى ما عداها من أوطان تلك هى عاطفة الإنسانية فنسمعه يتحدث في مقالاته شارحاً للمواطنين عن معنى الرابطة القومية التى تربط الشعوب ببعضها وأن الفوارق الجنسية والدينية لا تحول دون حب الإنسان لآخيه الإنسان وتعاونته معه وتوثيق صلته به وتبادل المنافع الثقافية

والاقتصادية وإياه وقد وضع ذلك في مقالته (تجاذب الجنسيات والاديان) في ١٨٩٣/٣/١٤ وذكر عنها في خطبته في ١٨٨٢/٣/١٩ في حفلة النابيين أحمد محمود وإبراهيم الوكيل فقد حض على حفظ العهود ومجاملة الأجناب ومعاملتهم بالحسنى والسير معهم بما يقتضيه قانون الآخرة الإنسانية وقد نشر في بعض مقالاته آراء في هذا الموضوع الذي يعد جديداً بالنسبة للكتاب المصريين في عهدة ، وجديداً بالنسبة للوعى الوطنى فى عهده ، وقد يجعل النديم بهذه الدعوة سبقاً فريداً ، وكأنة نظر إلى الغيب يستكشفه أسرارها ، وإلى المستقبل يستنطقه ما يخفيه من أحداث ، فرأى من بعيد يبصيرته لا يبصره ، هذه المؤسسات العالمية الكبرى من عصبة الأمم إلى هيئة الأمم المتحدة لتعاون الشعوب وتآخى الأجناس وصيانة السلام وقد أكد النديم أن عاصمة الإنسانية لا تتعارض مع الروح الوطنية ، لأنها امتداد لها فى الشعور والقوة ، فالإنسان يحب وطنه ويعيش طول عمره بهذا الحب ، فيعمل على رفعة بلاده ومنفعة أبنائه ووطنه ثم هو بعد ذلك لا ينسى أنه فرد فى عائلة كبرى تسع الشعوب جميعاً هى عائلة الإنسانية وأنه مرتبط بها بحكم إنسانيته وتفكيره .

٧ - زعيم التسامح الدينى

من أروع مناقب هذا الكاتب الوطنى أنه كان أول الداعين إلى التسامح الدينى وعدم التفرقة بين قبطى ومسلم ، فتكلم فى عدد الأستاذ الصادر فى ١٨٩٣/٤/١٨ عن الارتباط القوى بين المسلمين والأقباط وتمدح فيه بوطنية الأخيرين واتحادهم مع إخوانهم المسلمين ورفض أن يعترف بما يسمونه (الجمعية الخيرية الإسلامية) و (الجمعية الخيرية القبطية) فلا يجب أن يكون هناك فرق بين جمعيتين مصريتين لهما ودما تعملان لخير البلاد وخير أبنائها بل يجب ادماجهما فى جمعية واحدة تسمى الجمعية الخيرية المصرية . ثم تكلم فى نفس العدد صحيفة ٧٥٣ فى محاوره بعنوان (حافظ ونجيب) عن مضار

التعصب ضد الأديالي والتعصب ضد الأجناس أى ضد الأجانب الموجودين في البلاد ودعا إلى الوطنية السمحة ، وحسن الجوار ، ومعاملة الأجانب بالحسنى والروح الطيبة وفي ١٤/٣/١٨٩٣ قال أن الأقباط متأثرون بالجنسية أكثر من تأثرهم بالدين ، يميلون إلى المسلم المصري لأنه أقرب إلى جنسيتهم من الإنجليزى الذى هو من دينهم لأنه بعيد عن هذه الجنسية . . . ثم خُص من هذا المقال إلى أن الصلة الجنسية أقوى من الصلة الدينية ، ثم دعا إلى فصل الدين عن الوطنية ، وكتب أيضاً في ٢٨/٢/١٨٩٣ يرد على الذين يشيرون كراهة الناس وعدائهم لجريدة الأهرام لأن منشئها مسيحي سورى ، ناعياً عليهم اهتمامهم بدين صاحب الجريدة ، عن صلاح الجريدة من حيث أهدافها ، ورسالتها للوطن .

وقد اهتم النديم بالتعليم الدينى في المدارس ، ولم ينسئ أن يدعو إلى تعليم الدين المسيحي للطالب القبطى كما يتعلم الطالب المسلم تعاليم دينه ، ثم حث على التعاون والتآخى بين عنصرى الأمة ، ليعيشا في وفاق ، ويتربطابطرى وثيقة من المحبة والوفاء ثم تقتضيه روح التقدير لهؤلاء المواطنين الذين عاش المسلمون معهم السنين الطوال في محبة ووثام متحملين صابرين - حين تلوح له نذر عاصفة مقبلة من الغرب لتشتت الكنيسة القبطية إلى طوائف غريبة - أن يعبر عن ألمه في ١٣/١٢/١٨٩٢ فيقول (لاني أتمنى أن لا يتحول القبطى عن كنيسته الارثوذكسية إلى مذاهب مختلفة ، حتى لا تتفرق كتبهم وتشتت جماعتهم ، لأن الأجنبي يعمل على تبديد وحدات الشرق الاجتماعية) ثم ، يتكلم في مقالة بعنوان (نصيحة مخلص في خدمة وطنه) في ٣١/١/١٨٩٣ ينصح مواطنيه في دعوة كتبها من ذوب فؤاده ، وحرارة وجدانه داعياً الى محاربة التعصب ، ومناشداً لإياهم إلى الاتحاد صفا واحداً ، المسلمون والأقباط .

٨- المسرح القومي

كان النديم أول من أدخل فن التمثيل في منهج الدراسة ، كما سبق أوصحننا حين كان ناظراً لمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وكانت له مواهبه الخاصة في التمثيل وليس أدل على ذلك ، من قيامه بتمثيل روايتين من تأليفه وإخراجه وحواره ، على مسرح زينبيا بالاسكندرية ، وقد لاقت هاتان الروايتان (العرب ، طالع التوفيق) نجاحاً فائقاً ، وتقديراً من الجميع وقد تبرع الخديو بمبلغ كبير وكذلك بعض العظماء .

والتمثيل فن من أرقى الفنون ، ورفيه في مجتمع ما ، دليل على رقيه الأدي وسموه الفكرى وليس أروع من المسرح ، كمدرسة تلقن الشعب المبادئ الوطنية والاجتماعية ، فلا غرو أن اتخذ النديم المسرح أداة يبلغ بها الشعب رسالته ، ولو تفرغ للمسرح بعد ذلك لكان من أقدر الممثلين ، ولأسهم في رفع لوائه وتقوية دعائمه .

كتب في الأستاذ صحيفة ٧٧٣ مقالا عن التشخيص العربى ، أفاض فيه عن رسالة المسرح داعياً الى ترقية التمثيل العربى ، وتشجيع تعريب الروايات الأجنبية ، بما يلائم ظروف البيئة المصرية الى اللغة العربية الفصيحة ثم نوه بمسرحية اسمها (محاسن الصدق) من تأليف محمد واصف ، وتمثيل سلامه حجازى ، وقد قدمها أحد كبار الأدياء بكلمة أديبة (هو اسماعيل عاصم بك) ثم ذكر تشجيع الخديو للتمثيل وحضوره خمسة مسرحيات عربية .

ودعا الى تشجيع الجمعيات المصرية التى تعمل على ترقية المسرح القومى المصرى ، وكتب في (الأستاذ ص ٧٣٣) مثنيا على جمعية الفتوح الخيرية التى كان يرأسها الشاب الوطنى مصطفى كامل ومن أعضائها فريد ابراهيم ، أمين فهمى ، حافظ بيومى ، وقد قامت هذه الجمعية بتمثيل مسرحية الملكة بلقيس .

٩ - دعوته لاصلاح بعض طوائف المجتمع المصرى

تنظيم مهنة المحاماة (١) :

وكان أول من نادى بتنظيم مهنة المحاماة، بعد أن رأى فريقا من الأفاقيين الأجانِب يمتنعون هذه المهنة ، عن غير جدارة ، وبدون مؤهلات قانونية (كان فى عهده ، كل من استطاع أن يلم بالإجراءات القانونية ، وطرق التقاضى ، يمارس مهنة المحاماة) ثم يستغلون سذاجة الفلاحين وجهلهم فيوقعونهم فى حبالئهم ويبتزون أموالهم ، ويفتصبون منهم أراضيتهم .

اصلاح حال الموظفين (٢) :

كتب النديم مناشدا الحكومة تحسين أحوال الموظفين ورفع مرتباتهم وربط معاشات دائمة لهم ، تقيهم شر الحاجة بعد اعفائهم من العمل بسبب كبر السن ، وتنظيم العلاقات بينهم وبين رؤسائهم ورفع الاجحاف والمظالم عنهم ، لا سيما وقد رزح الموظف المصرى للمظالم مئات السنين .

محاربة الرقيق (٣) :

كان الأغنياء فى عهده يشترون العبيد من أبناء السودان ولذا الشراء صفة الامتلاك ، الامر المنافى للإنسانية ، فدعا النديم الى محاربة الرقيق ، ودعاء الرقيق المحررين من السودانيين المقيمين بمصر أن يكونوا جمعية تسمى جمعية الاحرار السودانيين .

-
- (١) استجابت الحكومة لهذا النداء ، وصدرت اللوائح لتنظيم مهنة المحاماة والقضاء (انظر المحروسة فى ١٨٨٢/١/٢٤ ، والوقائع المصرية فى ١٨٨٢/١/٢٥ .
- (٢) اهتم مجلس الوزراء بإصلاح أحوال الموظفين وصدر أمر عال تنظيم المعاشات - وصناديق الادخار (انظر كتاب مصر للمصريين ج ٤ ص ١٨٠) ٢١١ ، والمحروسة فى ١٨٨٢/٣/١١ .
- (٣) انظر المحروسة فى ١٨٨٢/٣/٢٤ ، نقلا عن الطائف .

١٠ - الطرق وإصلاحها

هذا الموضوع يتصل فيه الاجتماع بالدين ، لأن الطرق ما هي إلا جماعات تتخذ لها مبادئ دينية معينة ولها نظم وتقاليد خاصة ، كتب النديم لإصلاحها بتاريخ ١١/٤/١٨٩٣ وكتب عدة مقالات بعد ذلك في هذا الموضوع ، مندداً فيها بعادات الطرق من رقص وطبل وزمر وفعل الأفعال المشينة التي هي أبعد ما تكون عن الدين ومن أقواله : هلا اتخذ الناس طريقة للبوالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة ، وهلا رجع هؤلاء الجبهة عن بدعهم ، والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم وما هم إلا في أيدي الشياطين ، يلعبون بهم كيف يشامون ... أين الخول مع الظهور وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال ... وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين منآت الألوفا تهايل وتتلوى .. وأين الإرشاد مع هذه البدع ... أما أن هذه البدع أن تموت ، وهؤلاء الجبهة أن ينتهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعماهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادي ، أن الطريق المسلك للقوم مبنى على الإخلاص في العمل ، وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر والعمل بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم ، وأين هذه الأحوال الشريفة بما نراه الآن من الخروج عن الحدود واستبدال السنة بالبدعة ، وترك الشرع بهوى النفس .. وليس القصد لإبطال الطرق نفسها ، فإنها من أحسن الطرق للتعليم الديني والترية الأدبية ففي تعاليمها ما يعلم الآداب الواجبة .

ثم قال في ٢٥/٤/١٨٩٣ أن صاحب السماحة السيد البكرى ، مستعد لإبطال هذه النحل والبدع ، فكل من سمع قولاً مكفراً من رجل منهم ، يشهد عليه ويكتب إليه ، لردع ذلك المارق والنداء عليه بأنه ليس من أهل الطريقة ، حتى لا يدنس رجالاً يدعون إلى الله تعالى وقد أقاموا أنفسهم في وظيفة

تطهير القلوب وتهذيب النفوس وتصفية الخواطر، وتهيئة الرجال للكلمات،
فهم أساتذة مدرسة دينية لا يوجد لها مثيل في العالم ..

هذا ما كتبه النديم لفصل الحق من الباطل، والنور من الظلام، والحجة الواضحة من السفسطة المارقة ليظهر الدين في صورته الجميلة ومظاهره الرائعة بعيداً عن المعتقدات السقيمة، والتي جاملت كثيراً من الغرباء يثيرون أقطابهم بالظن والتجريح من مظاهر هذه الطرق المتنافية الأخلاق والمبادئ الشريفة ولا يجب أن ننسى أثر هذه الطرق في الشعب، والذي يفكر في إصلاح الطرق وتنقية معتقداتها إنما يعمل على تطهير الحقائق الدينية من الشوائب السقيمة التي ينشرها هؤلاء المدعون بين الناس وقد كانت الجرائد الأجنبية في عهد النديم تكتب عن مظاهر هذه الطوائف ومهازلها بما كان يعتبر صورة مشوهة عن الدين الإسلامي في ذهن غير العارف به والغريب عنه كما وتعد هذه الكتابات دعاية سيئة ضد الشرق، يتخذها الاستعماريون ذريعة يتوسلون بها لتبرير اعتدائهم على الحريات، فدعوة النديم لتنظيم الطرق وتطهيرها وإبعاد المعتقدات المشوهة عنها، تستند إلى عوامل أدبية واجتماعية وسياسية .

وبنفس الروح والدوافع، كتب النديم مندداً بما يحدث في الموالد الدينية من سلوك شائن لا يتفق مع جلال الذكريات والمبادئ التي من أجلها تقام الموالد، من تخليد سير الصالحين ونشر صفحات مناقبهم وأخلاقهم ومشاهيرهم العليا في الحياة، وقد نوه النديم بصفة خاصة عن مولد السيد البدوي الأحمدى بطنطا وما يحدث فيه من اعتداء على الأخلاق والفضائل، وهكذا كان النديم الصحفي الإجتماعي الدقيق الذي يكتب عن عيوب المجتمع بكل جرأة وصراحة، ساعياً في سبيل إظهار العقائد الدينية نقية صافية .

مراجع الكتاب

نذكر هنا أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب..

لعبد الله النديم	مجلة مجلة الأستاذ
,	إعداد جريدة التنكيث والتبكيث
,	, , الطائف
,	كتاب المسامير
,	أجزاء من كان ويكون
جورجي زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤
لويس شيخو	.. آداب العربية في القرن ١٩
أحمد حسن الزيات	.. الأدب العربي
إبراهيم عبده	.. تطور الصحافة المصرية
,	.. أعلام الصحافة
أحمد أمين	.. زعماء الإصلاح
الأستاذ الكبير عبد الرحمن الراجحي	.. الثورة العراقية
,	... عصر اسماعيل ج ١
,	.. د , د ج ٢
البستاني	.. مجلة دائرة المعارف
أحمد سمير	سلافة النديم
أحمد شفيق باشا	.. مذكراتي في نصف قرن
كشف الستار عن سر الأسرار	.. مذكرات عرابي باشا
سليم نقاش	.. مصر المصريين
مدام جوليت آدم	.. إنجلترا في مصر
دكتور عبد اللطيف حمزة	.. أدب المقالة الصحفية
أحمد باشا تيمور	.. تاريخ مشاهير القرن ١٣ (٥)

— ٢٩٠ —

- المعلوم والمجهول
- عبد الله النديم ومذكراته السياسية
- تاريخ الأستاذ الإمام
- مجلدات الوقائع المصرية
- التاريخ السرى للاحتلال
- حاضرات جمال الدين الأفغانى
- البحر الزاخر
- سحر هاروت
- ولى الدين يكن
- دكتور محمد خلف الله
- محمد رشيد رضا
- ويلفرد بلنت
- محمد باشا المنزوى
- محمود باشا فهمى
- سليم عنجورى
- Egypt under Ismail
- Goon

فهرست الكتاب

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٩٦	تأثره وتأثيره	٣	التقديم
١٠٥	جمال الدين الأفغانى	٥	المقدمة
١١٥	صورته الجسمية والنفسية		الباب الأول
	الباب الثالث	٩	عصر النديم
١٢١	آثار النديم الثقافية		الحركة السياسية والفكرية في
١٢٢	أثره في التعليم	١٠	مطلع القرن ١٩
١٢٧	جمعية التمثيل المدرسى		الحركة السياسية قبيل ظهور
١٢٨	إصلاح الأزهر	١٥	النديم
١٣٢	سعيه في سبيل اللغة العربية	١٩	الحالة الاجتماعية
	الباب الرابع		النشاط الثقافى فى أواخر
١٣٩	أثر النديم فى الصحافة	٢٢	القرن ١٩
١٤٠	أساليب النديم فى الكتابة	٢٦	طبقات الشعب
١٤٤	المدارس الصحفية فى عهده		الباب الثانى
١٤٨	النديم الصحفى	٣١	حياة النديم
١٥١	صحف النديم	٣٣	مولده ولشأته الأولى
	نماذج من كتابته فى التنكيث	٤٣	الأديب الشريد
١٦٠	والتبكيث	٤٥	على هامش الكفاح
١٧١	نماذج من كتابته فى الطائف	٤٧	نشاطه فى الإسكندرية
١٩١	د د د الاستاذ	٥٥	الثائر الحارب
١٩٥	آراؤه فى السياسة الصحفية	٧٦	فى المنفى بفلسطين
	الباب الخامس	٧٧	عودته إلى مصر
١٩٧	النشاط السياسى والقومى	٨٠	فى منفاه الأخير
١٩٩	دور النديم فى الثورة العراقية	٨٧	أبو الهدى الصيادى

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
	الباب السابع	٢١٢	الوفاء للثورة بعد هزيمتها
٢٦٧	آثاره في النواحي الاجتماعية	٢١٢	المبادئ السياسية التي نادى بها
٢٦٩	الحرية الأخلاقية	٢١٧	التقديم أستاذ مصطفى كامل
٢٧١	كرامة المواطن		الباب السادس
٢٧٣	التحرر من الخرافات	٢٣٣	آثار التقديم الأدبية
٢٧٦	الخدمة الاجتماعية	٢٣٤	التقديم الأديب القوي
٢٧٩	لإنشاء الجمعيات الخيرية	٢٣٨	التقديم رائد الأدب الشعبي
٢٨٠	النهضة النسائية	٢٣٣	الرجال
٢٨٢	الوطنية والإسلامية		رائد الخطابة في الشرق
٢٨٣	زعيم التسامح الديني	٢٤٥	الغرب
٢٨٥	المسرح القوي	٢٥٣	آثره في الخطابة العربية
٢٨٦	إصلاح بعض الطوائف	٢٥٥	نماذج من خطابه
٢٨٧	الطرق وإصلاحها	٢٦٠	التقديم شاعر
٢٨٩	مراجع البحث		

